ماري - رينيه لاڤوا
MARIE-RENÉE LAVOIE

سيرة أُنثى مملّة

AUTOPSIE D'UNE FEMME PLATE

رواية



الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

سيرة
أُنثى مملّة

AUTOPSIE D'UNE FEMME PLATE

مكتبة | 829
سُر مَن قرأ

mohamed khatab

ماري - رينيه لافوا
MARIE-RENÉE LAVOIE

سيرة أُنثى مملّة

AUTOPSIE D'UNE FEMME PLATE

رواية

ترجمة
زينة إدريس

مكتبة | 829
سُر مَن قرأ

مراجعة وتحرير
مركز التعريب والبرمجة





المحتويات

إلى جميع مَن
تحطَّمت قلوبهم أو قلوبهنّ
بوعود «أبدية»
قصيرة العمر.

لأنّه علينا أن نضحك وحسب.

1

وأنا أعطي رأيي في الزواج

لطالما وجدت أنّه من قمّة الغرور أن يجمع شخصان كلّ أحبّائهما ليقولا لهم، ها نحن ذا، في هذا المكان وفي هذه اللحظة، وعلى الرغم من الإحصائيّات الساحقة، نعلن أمامكم، وقد انصهرنا مؤقّتاً في وهم الخلود، أنّ اتّحادنا هذا أبديّ. وقد طلبنا منكم أن تنفقوا من وقتكم ومالكم للمجيء إلى هنا اليوم، لأنّنا، نحن، لن نقع ضحية للأسباب التي تُنهي الحبّ لدى الآخرين. إنّه يقين تولّد لدينا في سنّ الثالثة والعشرين، ونريد أن نتشاركه وإياكم. ولم نقتنع أو نتراجع أمام حقيقة أنّ غالبية الناس قد أخفقوا أمام قَسَم غير منطقيّ كهذا. سيدوم حبّنا، نحن، لأنّه مميّز. فنحن لا نحبّ بعضنا كالآخرين. زواجنا، نحن، باق إلى الأبد.

لكن في كلّ حفلات الزفاف تقريباً، يجتاح الناسُ حلبة الرقص وهم تحت تأثير الشراب، ويصرخون، محاولين دفن غلوريا غاينور، أنّهم نجَوا، هم، من محنة موت أوهامهم. لقد رأيت بعَينَيّ نساء متوسّطات في السنّ، يمسكنَ بميكروفونات خياليّة، وقد سيطر عليهنّ إحساس عابر بالقدرة المطلقة، وينشدنَ الكلمات الوحيدة المعروفة من الأغنية: «I will survive, hey, hey!». وقد «نجَون» بالفعل، على الرغم من طلاقهنّ. إيه، إيه.

عموماً، ثمّة مشكلة حقيقيّة واحدة فقط في الزواج، ألا وهي صيغة تبادل النذور. فتلك الوعود بالحبّ التي تُقطع لمدى الحياة، حتّى يفرّق بينهما الموت، وفي الغنى أو الفقر المدقع، لا تبدو لي جادّة. بالتالي، ومن باب الصدق تجاه الأجيال القادمة التي ستصرّ بعناد على الزواج، أقترح تعديل الصيغة لإضفاء لمسة أكثر انسجاماً مع القرن الحادي والعشرين، وأقلّ شبهاً بالحكايات الخرافية: «أتعهّد بأن أحبّك، وما إلى ذلك، حتّى أكفّ عن حبّك... أو حتّى أقع في حبّ شخص آخر». إذ لا يخفى علينا أنّه يحدث أحياناً أن تتسطّح المشاعر الأكثر التهاباً وصلابة تحت ضغط محدلة الحياة اليوميّة.

نعم، جميعنا نعرف أزواجاً عاشوا معاً لستّين عاماً، على الرغم من تقلّبات الحياة. استعارات جميلة عملت لقرون متعاقبة على تضخيم محنة الأزواج الذين غالباً ما يعيشون أسرى لوعودهم. لكن في الواقع، تضمّ الأرض عدداً من الأطفال الذين يولدون بإصبع سادس في اليد أو القدم يفوق عدد الأزواج الذين عاشوا معاً بسعادة حقيقيّة طوال حياتهم. وفي حين يَعتبر العلم هذا الإصبع الزائد «شذوذاً استثنائياً»، لا يزال الزواج مؤسّسة ركيزة في مجتمعنا. فمتى يحين موعد المعرض التالي للإصبع السادس؟

بالنسبة إليّ، كانت أمنيتي أن أعيش مع الرجل الذي أحببته، وأن أنجب منه أطفالاً نربّيهم ونحبّهم ونحن ندعم بعضنا البعض قدر الإمكان، ولأطول مدّة ممكنة. كنت لأحب أولادي كثيراً أيضاً، لو أنّني أنجبتهم خارج الزواج، وكذلك زوجي، لو كان مجرد صديقي. ولربّما كان الأمر أفضل، من دون إطار الزواج الذي منعني من رؤية حبّنا وهو ينهار من الداخل.

تزوّجت لأنّ أسـرة زوجي وجدت حبّي بسـيطاً جدّاً. قبل ذلك، لـم أفكّـر قـطّ في البسـاطة على أنّهـا عيب. غير أنّهم سـيحظون الآن بكفايتهم من التعقيد، فهكذا هي الطلاقات دائماً.

استغرقتُ سنوات لتجاوز محنتـي عندما قال: «سـأرحل، فأنا أحبّ شـخصاً آخر». ولـم أكن أنا من سـقط ضحيّة كلماته القاتلة، بل كلّ الأفكار التي كوّنتها عن نفسي، بعينيه، بهذا الاتّحاد المقدّس الذي تمّمني، وعرّفني. اتّحاد استسلمت له تماماً في نهاية المطاف بعد أن خُتم بعهود مقدّسة وخاتمَين مبارَكين.

عندمـا أخبرنـي أنّـه لم يعد يمكنه الوفاء بوعـده، مادت الأرض تحـت قدمـيّ. اختلّـت كلّ معاييري في بضـع كلمات. وأثناء هبوطي المروّع إلى قاع الجحيم، كانت الأخشـاب التي حاولت التمسّـك بها تفلت من يدي.

لا شكّ أنّ الناس اعتقدوا، خطأً، أنّني استأت منه لأنّه كفّ عن حبّي. لكن من المعروف أنّه لا يمكن التحكّم بالمشاعر، وهذا أفضل بكثير. فالغضب يُنسينا هذا الأمر للحظات، لكنّنا نعود إليه عاجلاً أم آجـلاً. هـذه مسـألةٌ يمكنني فهمها، لدى التغاضـي قليلاً عن الإحباط الذي تملّكني. على أيّ حال، كيف أجبره على الاستمرار بحبّي؟ أما كان يُفضل أن يبقى مغرماً بي؟ لأن كل شيء سيكون أسهل، بالنسبة إلى الجميع، بداية به هو، لأنّه لن يضطرّ حينها ليشرح، ويعتذر، ويبرّر، ويدافع عن نفسه أمام كثير من الناس، ولفترة طويلة، قبل أن يأمل في عودة السلام إلى حياته. لأكون صادقة، لم أحسده إطلاقاً على موقفه.

لمته على الزمن، الذي لم يرحمني، بل ترك آثاره على جسدي بأكملـه. فحتّـى لـو لـم يكن له يـد في ذلك، إلّا أنّني أجد، رغماً عنّي،

أنّه من المجحف ألّا تخلّف السنوات سوى آثاراً إيجابيّة عليه، استناداً إلى أذواق يومنا. فالممثّلون الذكور لا يكتسبون مظهراً جذّاباً إلّا عند بلوغهم الخمسين من العمر، بينما نتحمّس نحن عندما نرى مونيكا بيلوتشي تؤدّي دور فتيات بوند. لهذا السبب كرهته، هو وحبيبته السخيفة، هو وقدرته على البدء من الصفر، في الوقت الذي يعلن فيه جهازي التناسلي تقاعده. سرعان ما استبدّ بي الغضب إلى أن بدأت أكره نفسي، جسداً وروحاً. ولو أنّ حجج جاك للانفصال نفدت، لزوّدته بالعشرات منها.

مع ذلك، وعلى غرار غيري من النساء، فقد نجوت.

2

وأنا أغرق ببطء، تحت ثقلي

– أنا أحبّ شخصاً آخر.

امتلأ رأسي بالدماء، وجحظت عيناي من هول الصدمة. بضع مليليترات بعد، وتُخليان محجرَيهما تماماً. بدا لي ما سمعتُه غير منطقيّ إلى حدّ أنّني ألقيت نظرة خاطفة على التلفاز على أمل أن تكون الكلمات آتية من مكان آخر. غير أنّ النجمين اللذين يحاولان حشو الدجاج بالبروسكيوتو كانا يضحكان بملء شدقَيهما. ولم يكن حديثهما يدور حول زوال الحبّ.

– دايان... لم أكن أريد... لستِ السبب، ولكن... أفّ...

راح يرمي في وجهي خليطاً من الكليشيهات بطعم عصارة القمامة. كان يتلوها بعصبية، وبالكاد يخفي رغبته في الانتهاء منها. لم أفهم الكثير، باستثناء بضع كلمات مؤلمة، «مملّة»، «عاديّة»، «رغبة»، وأنّه كان يفكّر «بنا» منذ مدّة طويلة. كانت شارلوت قد غادرت المنزل لتوّها، لذا، لم يتسنّ لي الوقت بعد للتفكير في ضمير يستثني الأولاد. كان يجدر بي ذلك، نعم، أعرف. فقد خطر الأمر ببالي في منتصف الليل إلّا دقيقة.

– دايان، أنا... أنا راحِل...

رحل جاك في ذلك المساء، ليمنحني الوقت لأهدأ وأفكّر في كلّ شيء. خمسة وعشرون عاماً من الزواج أطفأها ببضع كلمات. اعتقدَ أنّ وجوده سيتداخل مع قدرتي على التفكير وأنّه من الأفضل أن يترك لي المجال لهضم خبر كان مدركاً أنّه من الصعب ابتلاعه. فوقفت أشاهد بجزع كلماته التي لا طعم لها ولا لون تتساقط عند قدميّ.

نهض متنهّداً، وقد أنهكه الكلام. لم يرغب في إخباري إلى أين كان ذاهباً، لكن لم يكن من الصعب تخمين وجهته. فلا شكّ أنّ «شخصاً آخر» ينتظره في مكان ما ليحتفلا ببداية حياتهما الجديدة، ويدقّا أولى المسامير على خشبتي.

– كم عمرها؟

– ماذا؟

– كم عمرها؟

– دايان، المسألة ليست مسألة سنّ...

– أريد أن أعرف عمرها اللعين!

قرأته في عينيه المضطربتين: عمر فاضح، دايان، فاضح، لكنّ المسألة تافهة للغاية.

– الأمر ليس كما تظنّين...

لم يكن الأمر كما ظنّت صديقتي كلودين أيضاً عندما تركها زوجها من أجل إحدى طالباته: «إنّها فتاة لامعة، قرأَت كلّ مؤلّفات هايدغر!». ليس الذنب ذنب المسكين فيليب أن يكون هايدغر قد ألقى كلّ علومه الفلسفية في دماغ إحدى طالباته الشابّات، الأمر الذي منحها هالة لا تُقاوم. من يكون هايدغر أساساً؟ من يهتمّ؟ لكنّ كلودين استاءت من هايدغر إلى حدّ أنّها وضعت يدها على مجموعة من

كتبه وأوقدت بها المدفأة، كما فرشت أوراقها في صندوق مخلّفات القطط. وبمرور الوقت، اختلطت صورة الشابّة ذات الدماغ المحشوّ بالظواهر الهايدغرية بكرات الروث. فالمرء يفعل ما في وسعه ليشعر بالتحسّن.

بقيتُ جالسة في ظلام الصالة، وحيدة تماماً، أحدّق إلى التلفاز الذي أطفأه جاك. عكست الشاشة على نحو مشوّه قليلاً خطوط جسدي الجامد والمشلول. كان جسدي مقيّداً بالألم والعار على نحو أعاق قدرتي على الحركة. ولو بقيت هناك قليلاً بعد، لامتصّتني الأريكة ببطء، واختفيت تماماً. لكان من الجيد الاختفاء هكذا، من دون ضجّة، بحيث لا أعيق بعد اليوم سعادة أحد، أنا، المرأة المملّة.

أشرقت الشمس من الجهة نفسها، ككلّ الأيّام، الأمر الذي فاجأني. يبدو أنّ نهاية العالم ليس لها تأثير على حركة النجوم. لا بدّ من مواصلة الحياة إذاً، على الرغم من رغبتي الملحّة في الموت. هكذا نهضت، ببطء، لكي لا أحطّم ساقيّ الخاليتين من الدماء، والتي سيتحتّم عليهما، هما أيضاً، أن تخدماني قليلاً بعد. سأبدأ بالتخلّص من الأريكة التي تبوّلتُ عليها أثناء الغشية التي أصابتني.

وقفت تحت الدشّ بكامل ملابسي، وتمنّيت لو كان بإمكاني أن أخلع عنّي، تماماً كالملابس، كلّ ما علق بي. على أرضيّة السيراميك، اختلطت الصبغة التي سالت من بدلتي الجديدة بالبول، والماسكارا، واللعاب، والدموع. أمّا الأوساخ الحقيقية فظلّت عالقة.

في الخارج، وفي كومة مختلطة على العشب النضر، ألقيت بكلّ الوسائد. ذهبت بعد ذلك إلى القبو لإحضار مطرقة وتحطيم الأريكة، واستنفدتُ بذلك كلّ ما تبقّى لديّ من طاقة، حتّى إنّني أصبتُ أحد

الجدران عرضاً بضربة قويّة. وقد نفعني ذلك، ولو لم أكن منهكة، لسوّيت المنزل بالأرض.

اتّصل بي جاك بعد يومين ليطمئنّ على حالي ويطلب منّي، احتراماً لأحبابنا، أن نتظاهر أنّ أمورنا على ما يرام، بينما نهيّئ الأولاد، وأسرتينا، وزملاءنا. ومع اقتراب الذكرى الخامسة والعشرين لزواجنا، وبما أنّه من غير المنطقي برأيه إلغاء كلّ شيء - «أعرف أنّه كان يجب عليّ التفكير في الأمر سابقاً...»-، فقد أراد ان نتصرّف بحكمة ونمضي هذه الأمسية معاً، في أجواء عائلية من الصفاء، كما «يتوقّع ويستحقّ» الجميع. فتذكّرت العرائس الهنديات اللواتي يبقين، في ليلة زفافهنّ، بمعزل عن الحفلة، ثمّ يتمّ إدخالهنّ بحفاوة لتلقّي تمنّيات بسعادة تمّ استبعادهنّ منها أساساً. لم أفهم قطّ ما الذي يمكن أن يستحقّه الآخرون في حياتي.

- هلّا فكّرتِ في الأمر وأخبرتني بقرارك في هذه المسألة؟

- نعم، نعم...

لطالما كرهت عبارة: «أخبريني بقرارك في هذه المسألة».

مع ذلك، فقد اتّبعت التعليمات، وفكّرت.

اخترت حلّاً بسيطاً، ومن زمني، فقد أنشأتُ ملفّاً شخصياً على فيسبوك (بمساعدة ابني أنطوان، عبر الهاتف). بعد ذلك، أمضيت ساعات في إرسال دعوات الصداقة إلى مختلف أنحاء المقاطعة وخارجها. بدأتُ بأهل زوجي، وشقيقته، والأقارب البعيدين، وزملائنا، وأصدقائنا، وجيراننا، ومعارفنا، وأعدائنا، إلخ. وبمجرّد قبول أحدهم صداقتي، كنت أطّلع على قائمة أصدقائه للتأكّد من أنّني لم أنس أحداً. انهالت التعليقات من الجميع حول وصولي المتأخّر

على الشبكات الاجتماعية، لكنّهم اعتبروه أيضاً مفاجئاً ومبهراً! رحت أنقر على زرّ الإعجاب عشوائياً، على كلّ ما يقوله الناس، ويعرضونه ويعلّقون به، حتّى أولئك الذين حرصوا على إخبار العالم أنّهم مارسوا لعبة Tetris، أو الذين اعتقدوا أنّه من المثير للاهتمام أن نعرف نوع الشاي الذي كانوا على وشك تناوله. علّقتُ على كلّ شيء بحماسة حقيقية، بقدر ما يمكن أن تكون نبتة النسيج طبيعية.

في ذلك المساء، بات لديّ ثلاثمائة وتسعة وعشرون صديقاً وصديقة، وكنت لا أزال أنتظر مئات الردود الأخرى. عندئذٍ، كتبتُ أوّل حالة لي على فيسبوك في حياتي. فعند الإمكان، ينبغي أن تكون المرّات الأولى ملفتة، ولا تُنسى.

دايان ديلونيه، 8 مساءً.

فيسبوك، يا من لا يخفى عليك شيء، هل ألغي برأيك احتفالات الذكرى السنوية الخامسة والعشرين لزواجي بعد أن أخبرني جاك (زوجي) أنّه سيتركني من أجل «شخص آخر» (الجنس غير محدّد، ولكن يمكن توقّعه)؟ الهدف: 300 «إعجاب» بحلول الغد. يرجى تعميمها. والآن اذهبوا وشاهدوا مقاطع فيديو لسقطات ملحمية.

بعد ذلك، أطفأت جهاز الكمبيوتر، وهاتفي الخلوي، والأضواء، والتلفاز، وأقفلت جميع الأبواب (بالسلاسل وبقيّة أقفال الأمان)، وابتلعت بضع أقراص منوّمة، ثمّ تكوّرت في السرير في غرفة الضيوف. كنت أشعر بألم بالغ لكي أستمتع بأيّ شيء. أردت أن تمرّ الأيّام القليلة الأولى وأنا غائبة. أن يتراسل الناس، ويتهاتفوا، ويتبادلوا

الاتّهامات، ويواسوا بعضهم البعض، ويحكموا عليه، ويشفقوا عليّ، ويدينونا، ويتعجّبوا، ويُصدَموا، ويحلّلوا، ويعلّقوا على القضية برمّتها من دوني؛ لن أكون شاهدة على أولى علامات الاستياء الكبرى، وهمسات «ربّاه، لم أكن أعرف» الصاخبة جداً، والنظرات الهاربة، والوجوه الخائبة، والأيدي المرفوعة على الفم لاحتواء المفاجأة أو الصدمة (أو الفرح، من يدري؟). لن أتبختر أمام أيّ كان محاولةً التظاهر أنّني لا أرغب في الموت. لقد رأيت كثيرات منهنّ، في المكتب وخارجه، تتهادين كالزومبي، وأيديهنّ محمّلة بالملفّات، في محاولة للتظاهر أنّهنّ بخير. أخذت إجازة باهظة الكلفة بالنسبة إلى حفل الذكرى الخامسة والعشرين للزواج، وتركت كلّ شيء معلّقاً إلى حين العودة إلى الحياة. فهذا أمر ممكن في سنّ الثامنة والأربعين، عند وجود رصيد جيّد من الإجازات المتراكمة وبعض المدّخرات. رميت الخبر مثل جيفة دسمة لحشد من الكلاب الجائعة. ونويت العودة إلى الساحة عندما لا يتبقّى منها شيء، سوى كومة من العظام المبيضّة التي يمكنني لمّها من دون أن أشعر بالغثيان.

تمنّيت لو أنّ الأذى الذي كنت أحدثه بإلقاء هذه القنبلة يخفّف من ألمي. لكنّه لن ينجح في نهاية المطاف سوى في زيادته حدّة من خلال إرغامي على مواجهة الأذرع العديدة لعلاقتنا. لطالما تخيّلت أنّ أسوأ أشكال المعاناة هي تلك التي تصيب الجسد، غير أنّني كنت مستعدّة في تلك اللحظة لمقايضة ولادات عديدة من دون حقنة مخدّرة بهذا الألم، وأنا مدركة لما أقول.

خلال الأسابيع التي تلت ذلك، لم أقبل برؤية أحد سوى أولادي. بالطبع، كانوا يعانون هم أيضاً. أمّا الباقون، فقرعوا بابي

وجميـع صناديـق رسـائلي، التـي أفرغتهـا من دون أن أقرأ أو أسـمع شـيئاً. حتّى إنّني ألغيت نهائيّاً حسـابي على فيسـبوك، من دون أن أقرأ التعليقـات الأربعمائة والاثنين والسـبعين التـي تراكمت فيه. أمضيت أيّاماً ولياليَ أحدّق إلى السقف، من دون أن أفعل شيئاً سوى محاولة فهـم مـا فاتنـي. وعندما كنت أنام منهكة، أعود وأسـتيقظ من كابوسٍ مرعب أكثر من هذا الواقع، أكتشف فيه في كلّ مرّة أنّ أحدهم قطّع أوصالـي. ظـلّ جرحـي مفتوحـاً، وألمي مبرحاً، ولم يعـد الهواء يبلغ رئتـيّ. كانـت قدمـاي غارقتَين في وحـول حياتي التي تنهار كلوح من الزجاج، فاستسلمتُ لها.

من قاع محنتي المظلم، وجدتُ القوّة للنهوض من جديد. فكما تقـول الأغنيـة، يجب أن يسـتمرّ العرض. كنـت أغنّيها بملء رئتيّ في سنوات المراهقة، أمّا الآن، فأنا أعيشها.

تدريجيّاً، سمحت لأحبابي بالعودة إلى حياتي واحداً تلو الآخر. راحوا يُمطرونني بعناية بالغة بحِكَم مستهلكة، كأنّها صلوات تُردَّد منذ قرون. فتجرّعتُ عطفهم الأخرق كما لو كان حسـاء دجاج مالحاً جدّاً بعد إصابة في المعدة. ومع أنّ علاجهم لم يشفِني، إلّا أنّهم مع ذلك أنقذوني إلى حدّ ما من نفسـي.

لـم نُقِم حفلاً صاخباً بمناسـبة ذكرى زواجنا في شـاتو ماشـين. لا خطابـات جميلـة حول فضـائل الوعود الدائمة، ولا تجديد للنذور، ولا خالة مسنّة بتسريحة شعر غريبة أو أعمام ثملين ذوي عيون زائغة. وخصوصاً، ما من ناجيات على حلبة الرقص.

بالمال الذي جنيتُه من بيع خاتم الزواج، اشـتريت حذاء إيطالياً أزرق رائعاً وباهظ الثمن، وأقولها بلا خجل، لكي تسحق قدماي كلّ

الباقي لفترة من الزمن. أمّا مركز الشباب الذي أعطيته بقيّة المبلغ، فاشترى لعبة بيبي فوت وطاولة بينغ بونغ. ففكرة أنّ الشباب يضربون الكرات على أنقاض زواجي جعلتني أفضل حالاً.

3

وأنا أشاهد كلودين تحاول مساعدتي عبَثاً

نصحتني صديقتي كلودين، كما يحدث عادة في مناسبات كهذه، بالتمسّك بالنواحي الإيجابية للانفصال. عسى أن تكرهوا شيئاً.. غير أنّها انتظرَت بحكمة بضعةَ أشهر قبل أن ترمي لي عوّامات الإنقاذ. فهي تعلم، لكونها عاشت هي نفسها هذه التجربة، أنّ الغضب الذي يستبدّ بالمرء في البداية يُغرق كلّ شيء بما في ذلك القدرة على التفكير السليم.

– فكّري في الأمر، لن تضطرّي لجمع غسيله القذر، وغسل ملابسه الداخلية المقزّزة.
– كان جاك يجمع غسيله بنفسه.
– أصبح السرير لك وحدك الآن!
– أنا أكره ذلك، لا بل أصبحتُ أنام في غرفة الضيوف.
– المنزل! يمكنك الآن بيع منزلك الكبير وشراء شقّة في المدينة، لا تحتاج إلى صيانة، وتقع على بعد خطوات من المقاهي الصغيرة الجميلة.
– هذا منزل أولادي، لقد أمضوا كلّ طفولتهم فيه، وما زالت لديهم غرفهم هنا.
– ولكنّهم كبروا الآن...

– ستعود شارلوت في الصيف.

– كفى! في الصيف... اشتري شقّة تحتوي على غرفة للضيوف، وهكذا تحلّين المشكلة.

– وماذا عن أحفادي، ماذا أفعل عندما يأتون لزيارتي؟

– ليس لديك أحفاد!

– ليس بعد، لكنّ أنطوان يبحث الأمر مع صديقته.

– أنطوان؟ هذا الشابّ ما زال عاجزاً عن الاهتمام بنفسه!

– إنّه فوضوي قليلاً وحسب.

– اشتري شقّة مع مسبح داخلي، وهكذا سيرغبون في المجيء لزيارتك طوال الوقت، ثمّ يذهبون في حال سبيلهم مساء.

– لست جاهزة لذلك.

– عائلته! ألا تكرهين شقيقته؟ الأميرة وصغيرَيها العفريتَين.

– يا إلهي! ألم أخبرك؟! لقد طردتها كما تستحقّ.

– حقّاً؟

– أجل، بعد أسبوعين من رحيل جاك.

* * *

خلال حديث صاخب في إحدى الأمسيات، قال جاك لأخته، التي كانت تتذمّر من أنّه لم يعد لديها حياة، وأنّها لا تعرف الراحة، ولا تملك دقيقة لنفسها مثل بقيّة الناس، أنّه بإمكاننا أن نريحها قليلاً ونعتني بالولدَين من وقت إلى آخر. أذكر أنّني شعرت بألم مبرح في صدري وأنا أسمع اقتراحه. أصبحت جاسينت أمّاً بكامل إرادتها، في بداية العقد الرابع من عمرها – إذ كانت ترفض إفساد شبابها في تربية الأطفال قبل ذلك – وأنجبت عفريتَين صغيرَين لا يُرفض لهما طلب،

ولا يحترمان شيئاً أو أحداً، ولا ينتظران للحصول على أيّ شيء، ولا يحسنان التصرّف بتاتاً. ويبدو أنّ وضعهما كطفلين مدلّلَين بلا منازع يعفيهما من القواعد والعواقب التي تصاحب اعتداءاتهما المتواصلة. لم تنتظر جاسينت أيّ تأكيد من جانبنا على جدوى هذا الترتيب، بل هبطت علينا يوم الأربعاء التالي، حاملة حقيبة مكتنزة من أجل أمسية الصغيرين الطويلة. أمّا هي، فكان بانتظارها جلسة يوغا دافئة وعشاء خفيف مع صديقاتها في مقهى مزدحم.

وعلى الرغم من عدم تجديدنا للعرض، إلّا أنّها استمرّت بالمجيء خلال أيّام الأربعاء التالية، حتّى لو لم تكن تنوي الذهاب لاحقاً إلى جلسات يوغا أو تمارين اللياقة البدنية. ولم يجد عزيزي جاك الشجاعة لإخبارها أنّه من غير اللائق فهم عبارة «من وقت إلى آخر» على أنّها «كلّ أربعاء من دون استثناء». ولم نفلت منها إلّا مرّتين أو ثلاث، عندما أجبرتُ جاك على ملاقاتي في المطعم... عند الساعة الرابعة والنصف. بالمقابل، لم يخطر بباله إطلاقاً على ما يبدو أنّني لم أفكّر يوماً في تخصيص ساعة لنفسي لممارسة أيّ نوع من التمارين عندما كان أولادي صغاراً، بل كان يقول لي وبكلّ قناعة: «لكنّها بحاجة إلى استراحة، فكما تذكرين، ليس من السهل تربية ولدين صغيرين. كما أنّ جورج غائب معظم الوقت». على أيّ حال، حتّى عندما يكون جورج في المنزل، فإنّه لا يملك الوقت لرعاية ولدَيه. هكذا، احترمتُ التزام جاك طوال عامين تقريباً. فمن جهة، لم أعرف كيف أرفض، ومن جهة أخرى، كان ثمّة شيء في داخلي يرغب في ترويض هذين الولدين.

بما أنّ جاسينت كانت على خطّ الجبهة عندما رميتُ قنبلتي

على فيسبوك، فقد ارتأت عدم المجيء يوم الأربعاء التالي. لا شكّ أنّ والدتها أمرَتها، حبّاً بالله الذي عقدتُ زواجي أمامه، عدم ترك ولدَيها بين يدَي امرأة هستيرية خرّبت اللقاءات العائلية. فالجدّان لا يرعيانهما إطلاقاً، لأنّهما لا يملكان الطاقة للجري خلفهما، وإنزالهما عن الستائر. لكن في الأسبوع التالي، ومن دون أن تكترث البتّة لحالتي النفسية، هبطت عليّ في الوقت المعتاد، قبل الغداء بالطبع، ومعها حقيبة ممتلئة من أجل السهرة الطويلة.

قرعت الجرس عدّة مرّات بعصبيّة، وأضاء وجهُها فرحاً عندما فتحتُ الباب.

– آه! يا إلهي! خشيت ألّا أجدك. حمداً لله! أيّها الولدان، كفّا عن الجري، تعاليا إلى هنا، الخالة دايان في البيت!
– لكنّ الخالة دايان ليست في مزاج لرعاية أحد اليوم. ليس لديّ صبر على أحد.
– لا شكّ أنّك بدأت تتحسّنين، أليس كذلك؟
– كلّا، ليس تماماً.
– مع ذلك، تبدين بخير.
– المظاهر خدّاعة.
– حسناً، أنا أفهمك. اسمعي، سأنهي صفّي، ثمّ ذلك أتناول بعض الشراب وحسب مع الفتيات، وأعود على الفور. حتّى إنّني لن أمضي الأمسية معهنّ.
– كلّا، ليس اليوم يا جاسينت، أنا آسفة، لن أستطيع ذلك. كان يجدر بك الاتّصال أوّلاً.
– لكنّني اتّصلت خمسين مرّة! ولم تجيبي!

– هذا لأنّني لا أرغب في الحديث أو في استقبال أحد.

– حسناً، هذا مؤسف، مؤسف حقاً. وأنا التي كنت أتوق إلى هذه الأمسية، وأخذ وقت لنفسي أخيراً. أتساءل أحياناً ماذا أفعل لكي لا أفقد عقلي. أركض من الصباح إلى المساء... وجورج غائب معظم الوقت...

– نعم، أنا أفهمك، فقد مررت بهذه التجربة، أنجبت ثلاثة أولاد. لكن لم يكن لديّ خالة لكي ترعاهم عنّي كلّ أسبوع. لم يعرض أحد عليّ ذلك يوماً...

– من المؤسف برأيي أن يدفع الولدان ثمن انفصالكما. فهما أيضاً يتوقان إلى هذا اليوم من الأسبوع.

– لكن اذهبي إلى أخيك! فهو ما زال على قيد الحياة!

رمقتني شزراً، بحيث بدت شبيهة بوالدتها.

– حسناً، ليس لديّ الخيار، سأفوّت صفاً آخر. لو علمت، لما هُرعت باكراً لإحضارهما. ممتاز! وأنا التي لم تحضّر شيئاً للغداء... حسناً يا صغيرَيّ، سنذهب، خالتكما ليست بخير!

– أتمنّى أن تعثري على شخص موثوق لرعايتهما.

– شخص موثوق....

– نعم، أعتقد أنّني قدّمت ما فيه الكفاية.

– هل أنت جادّة؟ هل ستتخلّين عنّا؟ لكن هذا غير منطقي! السيّدة تنفصل عن زوجها، فتتوقّف الحياة، وينتهي كلّ شيء، وتدير ظهرها للعالم أجمع، تدبّروا أموركم!

– بالنسبة إليّ، ما هو غير منطقي أن أراك تقرعين بابي بكلّ وقاحة، كلّ أسبوع، لتتركي لي ولدَيك اللذين عرض شقيقك

رعايتهمـا، وليـس أنـا، ليـس أنا!! الأمر الـذي لم يمنعني من رعايتهما عملياً كلّ أسبوع لمدّة عامين، عامين!!

– أنـا لا أصـدّق! كنـت أعتقـد كلّ هـذا الوقـت أنّـك سـعيدة بالاهتمام بهما!

– كنت سعيدة، ولكن لكنت أكثر سعادة لو أنّني اهتممت بهما مرّة من وقت إلى آخر، كما عُرض عليك.

– ولكن ماذا تعني مرّة في الأسبوع بالنسبة إليك؟

– تماماً ما تعنيه بالنسبة إليك أنت! تماماً ما تعنيه بالنسبة إليك!

– لكنّ أولادك غادروا المنزل!

– شـقيقك هـو الآخـر غـادر أولاده المنزل! كمـا أنّهما ولدان، ولدان وليس واحداً!

– حسناً، عظيم، سأعود إلى بيتي، وليذهب صفّي إلى الجحيم. لا تهتمّـي، حتّـى ولـو كنتُ على وشـك الانهيـار، هذا ليس مهمّاً، فالسيّدة تريد كلّ أمسياتها لها وحدها...

– تبّاً لك أيّتها الوقحة! لست أنت من تعاني، لست أنت، بل أنا! أنا! أنا لـم أخرّب حياة أحد، بل أنا من خُرّبت حياتي، خُرّبت علـى يـد أخيـك، وعلى يـدك، وعلى أيدي كثيـر من الناس، أيّهـا البؤسـاء! افعلي ما يفعلـه الناس، وظّفي حاضنة أطفال! هل رعيتِ أولادي، عندما كانت كلّ أمسـياتك لك وحدك؟ ولكـن لا، بتاتـاً، بتاتـاً، ولا مرّة لعينة واحدة! ماذا فعلتِ بكلّ أمسياتك، أيّتها الأنانية، هاه؟

* * *

– مع ذلك، لم يكن يجدر بي أن أشتم أمام الطفلين.

– ربّاه! كم أتمنّى لو كنت هناك...
– مهلاً. وأنا أصفق الباب، سمعتها تتمتم شيئاً من قبيل يا لأخي المسكين، بدأت أفهم... شيئاً كهذا، فثار جنوني.
– اللعينة!
– فما كان منّي إلّا أن فتحت الباب مجدّداً وصرخت بها: أيّتها السمينة، أنت كبيرة جدّاً وسمينة جدّاً لارتداء السراويل الضيّقة! أيّتها القبيحة!
– وهل ترتدي سراويل ضيّقة؟
– نعم سيّدتي، سراويل قطنية ضيّقة مزركشة.
– وهل أراحك ذلك؟
– بالكاد... فقد انهرت أرضاً من الجهة الأخرى من الباب، وبكيت طوال المساء.
– إنّها الأعصاب.
– ما كنت لأحتمل هذين العفريتين.
– حسناً، هذا ليس إيجابياً. علينا إيجاد شيء آخر.

غير أنّ جهود كلودين لم تجد نفعاً، ذلك أنّ رحيل جاك لم يساعدني. فقد كان مسؤولاً عن جمع النفايات، وإعادة التدوير، والنفايات العضوية، كما كان يطهو في كثير من الأحيان، لا بل وأفضل منّي، ويهتمّ بالمشتريات، ويدفع الفواتير، ويتذكّر المواعيد المهمّة، ولا يتأخّر قطّ، ويغلق ستارة حوض الاستحمام، ويحبّ الشراب، والنكات الجيّدة، وصديقاتي، ويحضر لي صباح كلّ سبت المافن برقائق الحبوب والمكسّرات. وباستثناء بعض الشُعيرات هنا وهناك، لم يكن لديّ أيّ سبب منزليّ لأبتهج بغيابه. لا شكّ أنّ «شخصاً

آخـر» يكتشـف حاليّـاً أنّ هـذا العشـيق هو أيضاً رفيـق لطيف ومتعدّد المهامّ. ومن المؤكّد أنّها لن تفلته من يدها أبداً. فهذه هي المشـكلة عندما تحسن المرأة اختيار زوجها، إذ يصعب عليها أن تضطرّ لاحقاً لمشاركته مع أحد.

– لا شـكّ أنّك سـئمت من سـماعه يكرّر القصص نفسـها منذ خمسة وعشرين عاماً؟

– كلّا، بل كنّا نتناوب على ذلك.

– ليس أنيقاً.

– بلى.

– يشخر؟

– كلّا.

– رائحته كريهة؟

– كلّا.

– ولا حتّى عندما يمارس الرياضة؟

– ولا حتّى عندما يمارس الرياضة.

– هل كان فوضوياً؟

– أقلّ منّي.

– لا يصغي إليك، بل يتظاهر أنّه مهتمّ؟

– كلّا.

– يغسل سيّارته صباح السبت في مدخل المرآب.

– لم يغسل سيّارته بنفسه يوماً.

– يضع جواربه في حذائه.

– كلّا.

- هل كان صبوراً دائماً؟
- كما لو أنّه لن يموت أبداً.

عندما أنهت جولتها من الأسئلة، شعرتُ أنني معلّقة فوق هاوية لا قعر لها. فكلّما نفيت عنه عيباً، اكتشفتُ عيوبي أكثر، وشعرت في نهاية المطاف أنّني لم أرتقِ يوماً، خلال كلّ تلك السنوات، إلى مستوى الرجل الذي تزوّجني ربّما بدافع الشفقة وليس الحبّ.

- حسناً، أنت تبالغين، هذا كلام فارغ. أنت الآن في المرحلة التي تعظّمين فيها طليقك، وتمجّدينه، وتحقّرين نفسك. هذا طبيعي، لا تهتمّي، فهذه المرحلة ستنقضي. من المؤكّد أنّه ليس رائعاً إلى هذا الحدّ، لكنّك ستتذكّرين ذلك في مرحلة يزول تعلّقك به. وفي هذه الأثناء، سنجد شيئاً آخر.
- لا فائدة من ذلك...
- إنّها تمضية للوقت. فالمسألة ستستغرق وقتاً، لا بل وقتاً طويلاً. ولا يبدو، أنّه سيتحوّل بسهولة إلى رجل خسيس...
- لن يصبح كذلك أبداً...
- ...ربّما علينا التفكير في وسائل أخرى.
- مثل؟
- ثمّة طريقة لا تخطئ تقوم على عكس الأدوار.
- بففف...
- لكنّني واثقة أنّك لست من هذا النوع. أنا أعرف كثيراً من الأشخاص الذين فعلوا ذلك، لكنّك لستِ من هذا النوع، وأحترم رأيك، كما أنّني لست واثقة من أنّ هذه الطريقة ستعطي النتيجة التي نسعى إليها على كلّ حال...

- كفاك هراء.
- قد لا يكون جاك مجرّد زوج طيّب يا عزيزتي.
- كلّا، إنّه بشر، كغيره من الرجال، لكنّه لطالما كان لائقاً معي.
- أيّتها الغبيّة! لقد خانك، وحاك أموراً من وراء ظهرك! ثمّ قال لك إنّك مملّة!

اعتقدتُ مع ذلك أنّ الكلمات، لكثرة تكرارها، تبلى، وتهترئ، وتصبح مثل قطع صغيرة من الصابون التي تنزلق من الأيدي. لكنّها على العكس، اكتسبت قوّة تدميرية تمكّنها من ابتلاعي مثل مدّ أسوَد. أخذت كلمة «مملّة» تطعنني كالخنجر.

- يا لك من ظالمة، حقّاً، أنت ظالمة، أنت...
- أنا ماذا؟ أعيدي ما قلتِ. أنا ماذا؟ عودي إلى رشدك! اكرهيني! سأقبل بذلك من أجلك! اكرهيني، لكن اكرهي شخصاً ما! زوجك جاك لن يعود، لقد انتهى كلّ شيء يا جميلتي! رحل مع امرأة في الثلاثين!
- تقولين ذلك لأنّك تكرهينه ولأنّ زوجك فيليب لم يعُد قطّ!
- وكذلك جاك لن يعود، لكنّك تعيشين حالة إنكار أيّتها المسكينة. تجاوزي الأمر، فقد مضت عليه أشهر! إنّه خسيس كغيره، كما أنّه يحبّ الشابّات، كغيره.
- إنّها مرحلة، مرحلة بشعة، ولكنّها ستنقضي...
- كلّا! بل رحل للعيش معها! هل تسمعينني؟ لقد رحل يا دايان، أفيقي!
- لكنّنا متزوّجان...

تراجعَت خطوتين، كما لو كنت أخبرها أنّني مصابة بالإيبولا.

– حسناً، سنحلّ هذه المسألة بشكل نهائي: كفّي عن قول ذلك، فالجميع كانوا يسخرون منك خلال الغداء.

– مَن؟ ماذا؟

– ينتهي بك الأمر دائماً بالحديث عن الزواج عندما تتحدّثين عن انفصالك.

– لكن أليس للزواج أيّ قيمة؟

– كلّا دايان، ليست له أيّ قيمة. فالحبّ ينتهي، سواء كان الطرفان متزوّجين أم لا. الزواج ليس ترتيباً سحرياً، إنّه لا يحمي من شيء.

– لكنّ العلاقة بين المتزوّجين أقوى، وتدوم لمدّة أطول، أليس هذا ما تؤكّده الإحصائيّات؟

– لكنّ الإحصائيّات لا تتحدّث إطلاقاً عن الحبّ، ياجميلتي!

– أنت ساخرة يا كلودين، وهذا محزن.

– وأنت غير متّصلة بالواقع يا دايان، وهذا مثير للشفقة.

لحسن الحظّ، عندما تكون المرأة أمّاً، في زمن تتحكّم فيه التكنولوجيا بحياتنا وتتغيّر مع تغيّر المواسم، فإنّ تعبير «غير متّصل» يصبح إهانة نتحمّلها يوميّاً، بالمعنيين الحرفي والمجازي. سكّين يُغرز في قالب زبدة طريّ، شيء بلا أهمّية.

جررت جثّة الزوجة المملّة وغير المتّصلة وصولاً إلى المطعم الذي تنتظرني فيه شارلوت، ابنتي الطيّبة، بيطرية المستقبل، التي أعتبرها بالغة الذكاء لتكون ابنتي، والتي ضاعفت من زياراتها

المتعاطفة منذ رحيل والدها. ابنتي فتاة رائعة ومتفانية تريد إنقاذ العالم بأسره. وأعتقد أنّها اختارت الطبّ البيطري لأنّ الحيوانات أسهل انقياداً. فبمجرّد أن نقدّم لها شيئاً من الحبّ والرعاية، تستسلم لنا كما يستسلم الناس الضعفاء للغورو، باستثناء أنّها لا تستطيع أن تقدّم بالمقابل سوى العاطفة.

خلافاً للعادة، طلبتُ من النادل اللطيف، الذي أتى ليقدّم لي شيئاً قبل الغداء، أن يحضر لي كأساً كبيرة من الشراب. فقد كنت بحاجة إلى الالتحام بجسدي مجدّداً لكي أؤدّي دور الأمّ السعيدة.

– مرحباً أمّي!
– أهلاً، صغيرتي! ما أخبار الامتحانات؟
– أوه... لم نبدأ بعد.
– صحيح، اعذريني، عقلي ليس معي. كيف حالك؟
– ممتاز.
– هل تحدّثتِ مع أبيك؟
– نعم.
– متى؟
– منذ يومين، على ما أظنّ.
– أهو بخير؟
– أجل، أجل، إنّه بخير.
– حسناً.

كنت قد وضعت جدولاً أتّبعه حرفياً كلّما رأيت أولادي: الدراسة أو العمل، جاك، الحياة العاطفية، المشاريع المستقبلية. هكذا، لا أنسى شيئاً، كما أعطيهم الانطباع أنّهم يستطيعون الحديث معي عن

كلّ شيء من دون تردّد، حتّى عنه هو. حتّى إنّني كتبت ذلك في البداية على راحة يدي.

– مـررت بالمنـزل قبـل مجيئي إلى هنـا، ولاحظت أنّك قمت أيضاً بتحطيم سريرك.

– قطّعتـه إربـاً لكـي أتمكّن من إخراجه، إذ من الصعب أن يمرّ عبر الباب.

– كان بالإمكان تفكيكه.

– لا، هذه عمليّة معقّدة. إخراج الحطام أسهل.

– وهل طلبتِ سريراً آخر؟

– كلّا، ليس بعد.

فـي زاويـة صغيـرة جـدّاً في أعماق عقلي، كانـت تتراقص فكرة الانتظار لاستشارة جاك قبل اختيار سرير جديد.

– ولماذا أسرعت في إخراجه؟

–

– فكّرتُ في الذهاب معاً للتسوّق.

– هل أنت بحاجة لشيء؟

– كلّا، بل مجرّد القيام بجولة على المتاجر، عندما ترغبين في ذلك.

– حسناً.

– من المريح شـراء شـيء جديد عندما لا نكون على ما يرام، أليس كذلك؟

– آه، ألستِ على ما يرام؟

– أمّي...

– حسناً، خطرت ببالي فكرة. سآخذ إجازة عصر هذا اليوم، هل أنت حرّة؟

* * *

كانت الشابّة التي تعرض عليّ سراويل الجينز ترتدي سروالاً ضيّقاً للغاية. فالردفان اللذان كانا لها في الأساس أصبحا واحداً، تعبره في الوسط خياطة بدت كأنّها تُجاهد لاحتواء كلّ تلك الكتلة اللدنة. بالطبع، لست في معرض الحكم عليها، بل كنت أبدي ملاحظة وحسب.

أرادت أن أجرّب القصّات الضيّقة للغاية، وهي عبارة عن سراويل جينز تشبه السراويل القطنية الضيّقة، والتي، وإن كانت لا تُظهر القدر نفسه من تفاصيل الجسد الحميمة، إلّا أنّها لا تقلّ عنها إبرازاً للمفاتن. وقفت شارلوت خلف البائعة وراحت تشير إليّ بيدها حين لا يعجبها شيء معيّن. غير أنّ طرازي المثالي ما زال يرتكز إلى السراويل المريحة المثيرة التي كانت تروّج لها إعلانات ليفيس في الثمانينيات. السيّدة غير متّصلة البتّة.

في مرآة غرفة الملابس، وتحت ضوء النيون الساطع، بعد أن «انجلى» بصري بفعل كأسَي الشراب خلال الغداء، رأيت جسدي بكلّ بؤسه. فعلى الرغم من الوزن الذي خسرته في الأسابيع القليلة الماضية، بدت لي ساقاي ثقيلتين ورخوتَين وعاجزتَين عن حملي. فوق انتفاخ بطني الذي لا يقلّ ترهّلاً، ارتفع قميصي ذو الطيّات. أمّا ثدياي، الصغيرين جدّاً ليلفتا النظر أو يبدوا مثيرين، فقد استراحا بحشمة تحت القماش. إلى هنا، كان الملل واضحاً، في كافّة تقاطيع جسدي، وفي شعري الباهت، وعينَيّ المحاطتين بالهالات الداكنة،

وملابسي البيج، وظلال مكياجي الطبيعية. من الطبيعي أن يشعر رجل مثل جاك بالملل في النهاية، فقد تغلغل الملل في كلّ خلية من خلايا جسدي.

انهرتُ أرضاً، فوق أوساخ كلّ اللواتي مررن من هناك قبلي، وعجزت عن النهوض أو الكلام. فقد سمّرني الألم بالأرض، كما لو أنّ قوّة الجاذبيّة تضاعفت فجأة. راقبتُ أقدام الناس الذين كانوا يتابعون حياتهم بشكل طبيعي من الجهة الأخرى، وحسدتهم. لكن بما أنّني لم أستطع أن أكون مبدعة في حياتي، يمكنني أن أكون كذلك في الممات. فأنا لم أسمع من قبل عن امرأة عُثر عليها ميتة في حجرة قياس الملابس وقد حطّمتها بشاعتها.

عندما أدركت شارلوت أنّني لا أخرج ولا أجيب على نداءاتها، انزلقت من تحت باب الحجرة وانضمّت إليّ. اضطرّت في أثناء ذلك للزحف تقريباً لكي لا تؤذي عمودها الفقري. جلسَت بالقرب منّي، واحتضنتني بذراعيها الدافئتين، من دون أن تقول شيئاً. صغيرتي شارلوت، طفلتي. كنت أسمعها تقول في نفسها «سيكون كلّ شيء على ما يرام يا أمّي، سيكون كلّ شيء على ما يرام»، «أحبّك يا أمّي». كانت بالكاد تتنفّس، كما لو أنّها أرادت أن تختفي هي الأخرى. غاصت معي في الرمال المتحرّكة، من دون أن تطرح الأسئلة، وهذا ما جعلني أرغب في التمسّك بها.

– هل المقاس جيّد؟

– ممتاز!

– والسروال الضيّق، أخيراً؟

– ممتاز أيضاً!

بالسرعة التي انهرت فيها، بدأت أضحك كالمجانين، وأخذ جسدي ينتفض بأكمله. وكلّما حاولت أن أكتم ضحكي الهستيري، ضحكت أكثر. ثمّ انتقلت العدوى إلى شارلوت هي الأخرى. كان مشهداً جميلاً. امرأتان متعانقتان، إحداهما شبه عارية، تبكيان وهما راكعتين على الأرض القذرة في أحد المتاجر. كان مشهداً جميلاً حقّاً.

– هل تذكرين، عندما كنتِ صغيرة، كنت تقفلين الباب على نفسك دائماً عن غير قصد في الحمّامات العامة؟

– بففف... أجل!

– كلّ مرّة، كنت أطلب منك عدم إقفال الباب، لكنّك تكرّرين الخطأ نفسه!

– أعرف، وأعجز عن فتحه لاحقاً. لا أعرف السبب، ربّما كنت أتوتّر جدّاً على ما أعتقد.

– وكنتُ أضطرّ للمرور من تحت الباب.

– حدث أن مررتِ من فوقه ذات مرّة، إذ لم يكن ثمّة مجال كافٍ من تحته.

– حقّاً؟

– في شاتو لورييه، وكنت ترتدين ثوباً، الأمر الذي لم يعجبك يومها.

– آه يا إلهي! لقد تذكّرت...

خرجنا من هناك بعد ربع ساعة، وعلى أعيننا آثار دموع جافّة. لم نتوقّف عن الضحك الذي عاودنا كلّما تذكّرنا شيئاً من القصص القديمة. حاولت البائعة جاهدة عدم الابتسام بحيث اعتقدنا في النهاية أنّ الضحك ممنوع على الموظّفات في تلك السلسلة من المتاجر.

أنا أفهمها، فما الداعي للضحك عندما يبلغ ثمن سروال الجينز الذي صنعه عمال مستغَلّون في بنغلادش نحو مائتي دولار، بحيث يؤمّن حياة من الرفاهية لثلّة برجوازيين بلا ضمير. ولا داعي للضحك عندما أشتريه أنا بحجّة أنّني لا أملك الخيار.

عندما لاحظت كلودين أنّني لم أرجع بعد الظهيرة، أرسلت إليّ عدّة رسائل نصّية. كانت متلهّفة لإخباري بأمر في غاية الأهمّية وأرادت أن أذكّرها بذلك.

- أعتذر منك.
- أنا أيضاً.
- لكن ليس هذا هو الموضوع الهامّ الذي أريد إخبارك به.
- كلّا، تريدين إخباري بما يجب عليّ فعله لكي يصبح جاك خسيساً بنظري.
- كلّا، ليس هذا أيضاً.
- مع ذلك، هل يمكنني أن أعرف ما يجب عليّ فعله؟
- لا أعتقد أنّها فكرة سديدة...
- أريد أن أعرف، هيّا.
- هل أنت أكيدة؟
- أجل.
- استأجري تحرّياً خاصّاً.
- تحرّياً خاصّاً؟ وبماذا سيفيدني التحرّيّ الخاصّ؟ هل سيخبرني أنّ زوجي رحل مع امرأة تافهة؟
- هذا ما عنيته، ليست فكرة سديدة.
- لكنك أردتِ اقتراحها عليّ.

- أجل، لأنّنا عندما نرغب أحياناً في مساعدة أنفسنا قليلاً، يفيدنا أن نعرف أنّ الأمور لم تجر دوماً كما كنّا نعتقد.
- وما قصدك بذلك؟
- آآآآه... كان يجدر بي أن أقفل فمي.
- بما أنّك بدأت، تابعي!
- تعتقدين أنّ جاك رجل صالح، لكنّه ليس كذلك بالتأكيد.
- ولمَ لا؟
- الإحصائيّات ليست في صالحه.
- ومن يكترث للإحصائيّات؟
- حسناً حسناً...
- تابعي!
- منذ متى وهو على علاقة بالجميلة شارلين قبل أن يرحل معها؟
- طرحتُ السؤال على جاك عشر مرّات على ما أظنّ، وأخبرتك بما قاله في كلّ مرّة.
- لقد أخبرك بما أراد أن تعرفيه.
- لكنّه رحل معها وانتهى الأمر! بماذا سينفعنا ذلك الآن؟.
- ربّما عاشرها لمدّة عامين قبل أن يقرّر الرحيل!
- لا، لا، المسألة جديدة! جديدة نسبيّاً. إذ كان قد مضى على وجود شارلين في المكتب ستّة أشهر عندما هجر المنزل.
- حسناً، فلنسلّم أنّ علاقته بها حديثة العهد، الأمر الذي سيفاجئني إن صحّ، لكن لا بأس، فليكن، هل من المحتمل أن يكون قد أقام قبلها...

- ماذا؟
- هل تعتقدين أنّها مغامرته الأولى من هذا النوع؟
-
- المحقّق لن يغيّر شيئاً، بل الغرض منه عكس الأدوار وحسب، لمساعدتك على رؤيته مقزّزاً.
-
- دايان؟
-
- دايان؟!!
- أنا أفكّر.
- كلّا، لا تفكّري، لن يجديك ذلك نفعاً. انسي الأمر، سنجد حلّاً آخر.
- أنت تعرفين أموراً أجهلها.
- كلّا، أقسم لك. كلّ ما في الأمر أنّ قصّتك كلاسيكيّة للغاية! أن يقوم عزيزك جاك، بين ليلة وضحاها... هل تعرفين أنّني لم أتمكّن يوماً من معرفة عدد الطالبات اللواتي أقام معهنّ فيليب علاقة؟
- أشعر أنّني في قمّة الغباء...
- لكن لا، لا، انسي الأمر.
- أعتقد أنّ لديك اسماً تنصحينني به.
- لديّ فكرة إيجابية من أجلك، هل تريدين سماعها؟ إنّها رائعة، ولهذا اتّصلت بك. ليست شيئاً لم يعد لديك، بل لم يكن لديك، وسيصبح بإمكانك الحصول عليه أخيراً!

– هممم...
– شيء لم يكن بإمكانك فعله مع جاك.
– لا أفهم ما الذي لم يكن بإمكاني فعله، باستثناء معانقة رجال آخرين.
– لقد نسيتِ شيئاً هامّاً... لطالما حدّثتني عنه...
– لا أذكر.
– حقّاً؟ ألا تذكرين؟
– هيّا!
– لهذا السبب كلوكلو هنا!
– حسناً خالتي، تكلّمي.
– سيكون بإمكانك أخيراً... أن تقبّلي قبلات فرنسية!
– ماذا؟ هل أنت جادّة؟ أهذا هو موضوعك الكبير؟ أنا لست مهتمّة بذلك!
– لكن، سيكون لك ملء الحرّية بفعل ذلك! كم مضى عليك وأنت محرومة منها، خمس وعشرون سنة؟ كم مرّة أخبرتني أنّك تتوقين إلى ذلك، وتحلمين به، وأنّ جاك لا يحبّ القبلات الفرنسية!
– ولكن هذا ليس مشروع حياة!
– أنا لا أعطيك مشروع حياة، بل سبباً وجيهاً لكي تتابعي حياتك! أنت ذكيّة، وجميلة...
– لا تحاولي عبثاً، أنا عائدة للتوّ من متجر الملابس.
– لا أحد يجد نفسه جميلاً في حجرة قياس الملابس.
– أنا مترهّلة.

– لا أهمّية لذلك بالنسبة إلى القبل الفرنسية. ارتدي جوارب لشدّ الجسم، بانتظار أن تستعيدي لياقتك، وستبدين رائع!

– بففف...

– أنت جميلة يا دايان، آمل ألّا يكون لديك شكّ في ذلك! أنت رائعة الجمال. ولو لم أكن أحبّك إلى هذا الحدّ، لكرهتك.

– لا تبالغي.

– سمّي لي رجلاً تودّين تقبيله، هيّا هيّا، من دون تفكير.

– هذا سخيف، أشعر كأنّني في الرابعة عشر.

– أنت كذلك إذا طرحنا أعوامك الخمسة والعشرين مع جاك.

– بل ثمانية وعشرون، فقد كنّا معاً لثلاث سنوات قبل زواجنا.

– هذا أسوأ! عليك أن تبدأي من مكان ما! والقبل الفرنسية تشبه منصّة القفز التي تعلو متراً واحداً عن حوض السباحة: إذ يجب عليك أن تتمرّني على ارتفاع منخفض قبل أن تقفزي من على ارتفاع عشرة أمتار.

– يا لها من مقارنة مضحكة.

– أعرف. هيّا، أعطني اسماً!

– لا أرغب في تقبيل أحد.

– أريد اسماً!!

– جي–بي!

– جي–بي الذي يعمل في الطابق الرابع؟ المحاسب؟

– أجل، لمَ لا؟

– لا أدري، ربّما كان طموحك عالياً بعض الشيء. كما أنّه متزوّج، عليّ مراجعة ملفّاتي.

– أنت من طلب منّي اسماً!

– نعم نعم! هذا عظيم! ممتاز! سنحتفظ باسم جي–بي، فهو فكرتك الأولى. ركّزي على هذه المسألة، على أيّ حال نحن نتحدّث عن قبلة وحسب.

– نعم، إنّها في غاية السهولة.

– كلّما فكّرتِ في الأمر، انشغلتِ به أكثر.

– مع ذلك، يقلقني أن تقولي هذا.

– فقط لو تعرفين كم أنا محقّة.

– سآخذ اسم التحرّي.

– لديّ أيضاً مستشارة نفسية جيّدة.

* * *

كانت شارلوت مكوّرة تحت غطائها الكبير، تشاهد على حاسوبها حلقة من مسلسل أميركي عليّ «حتماً مشاهدته». قالت لي ذلك نحو ثلاثين مرّة خلال العامين الفائتين. لكنّني متخلّفة عن الركب منذ مسلسل *Six Feet Under* الذي تخلّيت عن متابعته. نعم، أنا غير متّصلة.

– وماذا عن الجينز، هل أنت نادمة؟

– كلّا، يا صغيرتي، أنا سعيدة به جدّاً. إذا كنتِ تعتقدين أنّه سيفيدني، فأنا أصدّقك.

– لكنّه لاق بك حقّاً.

– حسناً.

– أقسم لك.

– هل تحدّثتِ مع كلودين؟



- كلودين؟ كلّا، لماذا؟
- خطابكما متشابه.
- هذا طبيعي، فأنت جميلة. الجميع يجدونك جميلة.
- أجل...
- لا بل حقاً.
- شكراً حبيبتي، أخبريني ما رأيك بمركز نوتيلوس؟
- أفّ! إنّه باهظ التكلفة، كما أنّ جميع من انتسبوا إليه وجدوه بالغ الصعوبة. هل تريدين تمرين عضلات ذراعيك؟
- في الواقع، عليّ أن أعود لممارسة رياضة ما. لن يضرّني ذلك.
- يمكنك أن تبدأي بالهرولة، فهذه الرياضة يمكن ممارستها في كلّ مكان، ولا تكلّفك شيئاً. كما أنّها رائجة.

أنا أكره الأشياء الرائجة.

4

وأنا أقدّر ثمن الكلام

- كيف تشعرين؟

كانت كلودين قد وعظتني عدّة مرّات قبل موعدي الأوّل: «عليك أن تكوني منفتحة، وجاهزة للحديث عن نفسك، وللمواجهة. يمكنك أن تشتمي، وتبكي، وتنبطحي أرضاً لكي تصرخي، المهمّ أن تتكلّمي، مفهوم؟ سيكون ذلك صعباً، وستشعرين أنّك تدورين حول نفسك، لكن هذا طبيعي. وكلّما اقتربتِ من العقدة، أصبحت الأمور أصعب. هذه المرأة ستساعدك إذا ساعدتِ نفسك، وفقط في هذه الحالة. إنّها ليست مدبّرة منزل، ولا تقوم وظيفتها على إنارة مصباح في داخلك لكي تضيء ذاتك، بل ستواجهين أسوأ كوابيسك وسيكون ذلك مؤلماً...». هكذا، وصلتُ إلى هناك مشحونة بالكامل، وعلى أتمّ الاستعداد لإفراغ تقلّباتي النفسية على أريكة تلك الغريبة المدرّعة بالشهادات. كنت محقونة إلى هذا الحدّ، لدرجة أنّ شبهها بمحامية غوميشي لم يؤثّر عليّ بتاتاً.

- كالحثالة.
- هذه استعارة.
- هذه أوّل كلمة خطرت ببالي.
- لماذا برأيك؟

– لأنّ هذا ما أشعر به.

– هل غالباً ما ينتابك هذا الشعور، سيّدة ديلونيه؟

– هل يمكننا رفع الكلفة؟

هذا سؤال نعتاد على طرحه مع التقدّم في السنّ، لا سيّما وأنّ مناسباته تتضاعف بسرعة مخيفة. فالناس يتحدّثون معي بكلفة من دون تردّد منذ وقت طويل، بحيث بتّ أُجفل كلّما تحدّثَت معي عاملة الصندوق في محلّ البقالة بلا كلفة وهي تسألني، «هل تريدين كيساً؟». لو لم أكن أصبغ شعري، لكان الآن أشيب، أشيب بالكامل. ظهر الشيب بشكل مفاجئ بحيث كان من الممكن أن أتنافس مع ماري أنطوانيت.

– هل تستخدمين هذا التعبير كثيراً للحديث عن نفسك؟

– كلّا.

– هل ساورك هذا الشعور فقط بعد انفصالك؟

– أظنّ ذلك، أجل.

– لماذا برأيك؟

مرّت العقدة الأولى. شعرت كأنّني أبتلع البسكويت الجاف من دون مياه.

– لأنّ زوجي لم يعد يحبّني.

– وهل تشعرين أنّك أصبحت شخصاً أسوأ الآن؟

– ربّما... أجل.

– ما الذي تغيّر برأيك؟

– أفّ! أمور كثيرة!

– مثل ماذا؟

- في الواقع... أشعر أنّي قبيحة.
- من أيّ ناحية؟
- من كلّ النواحي.
- جسدياً؟
- مثلاً.
- هل يمكنك أن تشرحي لي بعض الشيء؟
- من الصعب التعبير عن ذلك... بالكلمات...
- ماذا ترَين عندما تنظرين إلى نفسك؟

حرصاً منّي على استغلال كلّ المال الذي دفعته، ضبطتُ سرّاً عدّاد الوقت في ساعتي، وقرّرت أن أتكلّم بسرعة وأن أجيب على الفور. غير أنّنا لم ننه بعد الدقيقة السابعة حتّى بدأت الكلمات تتباطأ في حلقي، مثل يرقات مخدّرة. كنت قد دخلت عيادتها وأنا على يقين أنّني لن أنهار، لكنّ الأمور اتّخذت على ما يبدو منحىً مغايراً.

- بشرة مترهّلة، وباهتة.
- هل هذا جديد؟
- كلّا! كلّا، في الواقع...
- إذاً ما الذي اختلف الآن؟
- بدأتُ أرى نفسي على نحو أوضح.
- أوضح؟
- بدأتُ أرى التفاصيل التي غائبت عنّي في السابق، والتي لم تكن تزعجني... فقد ازداد وزني مع الوقت، وأصبحت مشيتي ثقيلة، وبطني مترهّلاً، تخطّه التشقّقات، و«كفي» التي تقضّ مضجعي...

– ماذا؟

– «كفى»، تلك الكتلة من اللحم التي تتحرّك عندما ترفعين ذراعك لقول «كفى!».

رفعت ذراعها وطوتها، وقد انتابها الفضول لمعرفة تأثير الجاذبية على عضلتها ثلاثية الرؤوس. كانت تلك الحركة تنمّ عن قلّة لياقة من جانبها، فهي تعرف جيّداً أنّ عضلتها لن تتأرجح.

– هل كنت راضية عن نفسك في السابق؟

– أعتقد ذلك. على كلّ حال، كنت أجد أنّه من الطبيعي أن أكتسب الوزن، وأن يتغيّر شكلي، شأني شأن جميع الناس.

– لكنّك ما عدت مقتنعة بذلك الآن؟

– كلّا.

– وما السبب؟

– أدركت أنّ هذه التفاصيل فاتتني نوعاً ما.

– فاتتك؟

– تماماً مثل «دعه يمرّ».

– هل تعتقدين أنّ اختيار جاك لامرأة أكثر شباباً له دور في ذلك؟

– أكثر شباباً بكثير.

– نعم، أكثر شباباً بكثير.

– أفّ... ربّما.

– لو أنّ جاك وجد امرأة خمسينية لديها «عيوبك»، فلنسمّها على هذا النحو حاليّاً، هل تعتقدين أنّك كنت ستحكمين على نفسك بهذه القسوة؟

لم أكن قد تجاوزت الثامنة والأربعين، وتدويرها الرقم إلى العدد العشري الأعلى سلبني عامين ثمينَين لن أتركهما يمرّان من دون مقاومة. من الواضح أنّ الدبلوماسية لا تدخل في اعتباراتها.

– أعتقد أنّ الأمر كان سيثير قلقي أكثر.

– حقّاً؟ ولماذا؟

– لأنّ المشكلة في هذه الحالة ستكون فعلاً نابعة منّي أنا. أعني أنا، بعقلي، بما أنا عليه.

– أمّا في هذه الحالة...

– أمّا في هذه الحالة، فقد تكون مجرّد مسألة جنس.

– هل تحدّثتما في الموضوع أنت وجاك؟

– أيّ موضوع؟

– الأسباب الكامنة وراء قراره.

– نعم، في الواقع، بكلّ تأكيد.

– إذاً؟

– المسألة ليست بهذه البساطة...

– أهو غير راضٍ جنسياً؟

– كلّا، لا أظنّ ذلك. لكنّ المرء لا يحتاج إلى كثير من التفكير ليفهم ماذا يفعل رجل في سنّه مع فتاة في الثلاثين.

– وما كانت أسبابه؟

– لا أفهم لماذا نتحدّث عنه؟ أنا أستشيرك بشأني أنا.

– نحن نحاول أن نفهم ما الذي تغيّر في مرآتك أنت.

لو أنّ الصمت لم يكن يكلّفني غالياً، لَلُذتُ به طويلاً. العقدة الثانية، الدقيقة الثالثة عشرة. عقدة تسيل عبر حلقي.

– قال لي... إنّه... إنّه...

– هممم.

لـم يكـن لـديّ الخيـار في تقطيع الجملة إلى كِسَـر صغيرة لكي تعبر.

– قال لك إنّه...

– يريد...

– هممم...

– أن يكون...

– قال لك إنّه يريد أن يكون...

بحثَت في عينيّ عن الخرّاج الذي تريد فأقَه. فقد تكوّن في مكان ما فـي عقلـي، وبدأ يهدّد بالانتقال إليهـا على نحو نهائي. هذه المرأة تعرف. لم تكن تصدّق أنّه خسيس.

– سعيداً.

جاك يريد أن يكون سعيداً.

جاك لم يكن سعيداً معي.

جاك يستطيع أن يكون سعيداً معها.

جاك يريد أن يكون معها.

قياس منطقي لعين.

أمضيت بقيّة الجلسة وأنا أنتحب، مخفية وجهي بيديّ. أعطتني الطبيبة اللطيفة، بصبر مهنيّ، مناديل سـميكة مشـبعة بخلاصة الصبّار. فخرجتُ من هناك بوجه متعب، وأنف مرطّب.

5

وأنا أكشف إصبعي السادس

لقد ولدتُ مملّة. فقد تسلّلَت المورّثة المسؤولة عن ذلك إلى حمضي النووي عندما حملت بي أمّي. لا أجيد الرقص لكوني عاجزة عن مواكبة الإيقاع الموسيقي. وليست الأذن هي السبب، فقد عرضني والداي على عدّة أطبّاء في صغري، بل دماغي المخرّب، الذي يلتقط جميع الأصوات من دون أن يتوصّل إلى تنسيق الحركات معها. وخلافاً للأشخاص الذين يفكّكون رموز الإيقاع، فإنّه محكوم عليّ أنا بتخمينه. فكلّ خطوة أخطوها وأنا أرقص هي محاولة لالتقاط الإيقاع. ولا أتوصّل إلى ذلك سوى صدفةً، ونادراً جدّاً. أنا أعاني رسمياً من خلل إيقاعيّ، وهي إعاقة غير ظاهرة، مع الأسف. كنت أفضّل لو أنّني ولدت بإصبع سادس، فثمّة عمليّات جراحية يمكن إجراؤها لحلّ المشكلة.

في صغري، كان الأمر مسلّياً. إذ كنت أذوب بين حشد الأولاد الذين يرقصون كيفما اتّفق. كان مروري على مسرح الرقص يثير الدهشة. يضحك الناس وهم يمسكون ببطونهم أو يخفون أفواههم، بينما تشجّعني والدتي وهي تصفّق بيديها. كان الجميع سعداء، وأنا أوّلهم. فكنت أعطي دائماً أفضل ما لديّ، وأُكافأ على ذلك. كم أشتاق إلى البراءة.

بدأت الأمور تتّخذ منحىً مختلفاً لاحقاً عندما قامت أمّي، التي

رأت في عجزي عن مواكبة الإيقاع دليلاً لا شكّ فيه على موهبة فنّية، بتسجيلي في صفّ لتعليم الباليه جاز في مدرسة لابيير الشهيرة. لكن بعد عدّة أسابيع من السخط الواضح، الذي لم أفهم له سبباً، شرح الأستاذ لوالدتي أنّ الأمر لا يستحقّ المجهود. وفي ذلك اليوم، دخلت عبارة «خلل إيقاعي» حياتنا. فأجابته أمّي أنّ التكاليف التي تتقضاها المدرسة لمجرّد «تقليد حركات سخيفة يمكن لأيّ طفل بعمر خمس سنوات القيام بها بمفرده» كانت باهظة على أيّ حال. لقد عشقتُ أمّي في بعض الأحيان.

في الطوابق السفلية في منازل صديقاتي، ونحن على مشارف سنّ المراهقة، كنّ يبتكرن لي أدواراً خاصّة، ثابتة عموماً، أؤدّي فيها دور دعامة لكوريغرافيا الأخريات. فأكون محوراً لأولئك اللواتي يدرن حول أنفسهنّ، وعموداً لوضعية الأرابيسك، وقاعدة للأهرامات، وحتّى حائطاً، عند الحاجة، للفتيات اللواتي لا يستطعن الوقوف بثبات على أيديهنّ. وما كنّ ليعاملنني بشكل مختلف لو كنت بساقٍ واحدة. لقد حظيتُ بصديقات كريمات، حمَينني من التعرّض للسخرية.

عندما بدأت حقبة حفلات قبو الكنيسة، وجدت لنفسي موهبة لإعطاء انطباع أنّني حاضرة دوماً على مسرح الرقص، من دون أن أكون موجودة بالفعل. فكنت أتنقّل من صديقة إلى أخرى، وأجد دوماً سرّاً أهمسه في أذن هذه أو تلك، وأتبع اللواتي تذهبن إلى الحمّام، أو إلى كشك الوجبات السريعة، وحتّى أولئك اللواتي تخرجن للتدخين خفية. وحين تزدحم ساحة الرقص بحيث تصعب الحركة، كنت أجازف بتأدية بضع حركات، سرعان ما تذوب في فوضى الأطراف المتشابكة. أمّا بقيّة الوقت، فأتهرّب وأبتلع تعليقات «آه، كم أنت مملّة!» كغيرها من

التعليقـات، مثـل «سـمينة» أو «وجـه البيتزا». ذلك أنّ حَبّ الشـباب لا يختلف بشيء عن الخلل الإيقاعي، بل هي المعاناة نفسها.

منحتنـي فـورة U2 بعضـاً مـن أجمل أوقات حياتـي. معها، بات الرقـص فـي غاية البسـاطة. إذ يكفي أن يلصق المـرء قدميه ببعضهما ويثبّتهما على الأرض، ثمّ يحرّك جسـده كأعشاب البحر التي يؤرجحها التيّار، بعينَين مغمضتَين، بينما تحوم اليدان حول الجسد في جوّ سائل يُغـرق تمامـاً افتقـاري للإيقاع. في بعض الأمسـيات، لم نكن نسـمع سـوى U2، فقـد كانـت نيرفانا العصـر. وفي نهاية المطاف، كنّا ندخل في حالة من النشـوة المنوّمة. حتّى هذا اليوم، ما زلت أشـعر بالغرابة عندمـا أسـمع أولى أنغام صنداي بلـودي صنداي. وبقيت أيّام الأحد في ذهني بهذا اللون.

فـي الجامعـة، منحتنـي البيرة الرخيصة والوقت الذي كنّا نمضيه فـي الطابـور الهنـدي بانتظار شـرائها كثيـراً من الحجـج. فقد أعلنت نفسي مسؤولة عن تأمين الطلبات، وأمضيت معظم وقتي في رحلات مكّوكيـة بيـن البار ونقطة اللقاء الرسـمية في السـهرة (المؤلّفة عموماً مـن كومـة مـن الحقائـب المرميّـة فـي إحـدى الزوايا). كنـت أعرف النـوادل، وكانـت صديقاتي منتـقات الأغانـي. خلال تلك الأوقات، كانت الموسيقى تسري كالأنهار في أجسادنا الثملة وعقولنا وأرواحنا المشـحونة. هنـاك، وأنـا أبدي حماسـتي أمام فتّاحـة الزجاجات التي صنعها طلّاب الهندسـة الميكانيكية، التقيت بجاك. كان منحنياً مثلي فوق الآلة التي تتيح فتح سـتّ زجاجات معاً، في صندوق الشـراب مباشـرة. كان ابتكاراً عبقرياً مسـخّراً لريّ عطشـنا. ممّا لا شـكّ فيه أنّ أولئك الشـباب يتمتّعون بحسّ الأولويّة. كنت قد طلبت للتوّ خمس

كؤوس، بينما طلب هو ستّة، ثمّ عرض عليّ المساعدة مع ذلك.

- لكنّك تحمل ستّة أصلاً!
- يمكنني حمل عشرة.
- عشرة؟
- أضع إصبعاً في كلّ كوب.

غمس أصابعه في الأكواب البلاستيكية، مخترقاً الرغوة، من دون أن تحرجه الأوساخ التي تراكمت على يديه منذ آخر مرّة غُسلتا فيها، من عرق، ودهون شَعر، وأوساخ أنف، وبكتيريا عالقة على النقود، والمفاتيح، والأيادي التي صافحها.

- هكذا لا أُسقط شيئاً منها.
- فكرة عمليّة.
- هل أنت بمفردك؟
- كلّا، مع صديقاتي.
- أين؟
- موقعنا في آخر القاعة، هناك.

أشرت إلى آخر القاعة، من فوق الأجساد التي تقفز على أنغام «Jump! Jump! Jump!» التي تصيح بها مكبّرات الصوت. ابتسم جاك كاشفاً عن صفّين من الأسنان البيضاء الجميلة والمتّسقة. لا شكّ أنّه شابّ من أسرة محترمة.

- لديّ فكرة.
- ماذا؟
- فلنوصل الطلبيّة ونلتقي في الخارج، عند المدخل ب.
- لندخّن؟

– لنتنشّق الهواء.

– ألا تريد أن ترقص؟

– كلّا، أنا لا أجيد الرقص.

هذا الإعلان الصريح، البسيط في ظاهره، سيحدّد مسار حياتي. فقد كان جاك، مثلي، يعاني من خلل إيقاعي. عندما رأيتُه يتحرّك كيفما اتّفق، متحدّياً الإيقاع بجرأة، شعرت أنّني كالغريق الذي يرى الحضارة تصل إلى جزيرته المهجورة. هكذا أغرمت بهذا الرجل في البداية بسبب ما لا يملكه. طغى هذا النقص على كلّ صفاته الجميلة، وجعله إنساناً غالياً جدّاً في نظري. لا بل كدت أعتقد أنّه التعويض عن حرماني من نصيبي من الإيقاع. أمضينا سهرتنا الأولى في العناق الملتهب، مثل جميع الأشخاص الذين يقعون في الحبّ. ولو قال لي في تلك اللحظة إنّه لا يحبّ القبل الفرنسية، لما صدّقته. في وقت لاحق، كنت أفكّر أحياناً أنّ القبل الفرنسية، شأنها شأن البويضات، تأتي بعدد محدود. وعندما يجفّ المخزون، علينا أن نتعلّم العيش من دونها. بدأت علاقتنا تفتر على نحو مطّرد. ولم أعرف تعباً كهذا إلّا بعد أن أنجبت أولادي. هكذا، أحببنا بعضنا كما لم يفعل أحد، بالطبع. ومثل أيّ اثنين، تزوّجنا إلى الأبد.

في الرياضيّات، ينتج عن اجتماع اثنين سلبيين واحد إيجابي، أمّا في علم الأحياء، فالأمر في غاية الوضوح. هكذا عندما ولد ألكسندر، استعنتُ بترسانة من الوسائل لكي يولّد دماغه الروابط العصبية والعصبيّة العضلية اللازمة لإدارة الإيقاع. اشتريت له رقّاص إيقاع لتعليمه التصفيق، وأقراصاً مدمجة لقصص وأغانٍ ولوحات راقصة لتحفيز عالمه السمعي باستمرار. سجّلته منذ أن كان في شهره

الثامن عشر في حصص للإيقاظ الموسيقي للأهل والأطفال من أجل «تطوير الموسيقى الداخلية للجسد لدى الطفل». وتحمّلت عدداً من المشاركات المذلّة قبل أن أتخلّى عن الدروس وأعود لاستعمال الأقراص المدمجة لتحفيز هرمون الإيقاع. غير أنّ «المعالِجة» قرّرت ألّا تسمح لي بالخروج من قاعتها من دون أن «تروّض الفوضى السمعية» لديّ، ولن آتي هنا على ذكر الأساليب النفسية التي استخدمَتها لدعم نهجها. صحيح أنّها لم تكن المرّة الأولى التي يحاول فيها أحدهم علاجي، لكنّ طريقتها اتّسمت بشيء من العدوانيّة، إذ كانت تمسكني من كتفيّ لتجبرني على التحرّك معها، أو تصفّق بيديها بالقرب من أذنيّ «لإيقاظ» جسدي. ولحسن الحظّ، رحلتُ قبل أن أضربها.

في سنّ الرابعة، تمكّن ألكسندر من متابعة دروس في الباليه الكلاسيكي (وكان درسَ الرقص الوحيد الذي يعطى من دون وجود الأهل). لكن سرعان ما سقط عنه الحكم، فقد نجا، إذ تبيّن أنّ جسده قادر على الانصياع للإيقاعات الأكثر تطلّباً.

عندما أعلن لنا أنّه شاذّ في سنّ الرابعة عشر، فسّرت حماتي المسألة بطريقة ساذجة، وهذا اختصاصها عادة: «آمل ألّا تكوني مندهشة من ذلك، مع كلّ صفوف الرقص التي سجّلتِه فيها». في الأيّام التي تلت ذلك، هدّأتُ من غضبي عبر تخيّل مشاهد أقوم خلالها بفقء عينيها، أو كسر أنفها، أو ركلها في بطنها بكلّ ما أوتيتُ من قوّة. أهذا ردّ فعل عنيف؟ لكنّه أقلّ عنفاً برأيي من الاعتقاد أنّ الشذوذ عاهة.

كذلك، يتمتّع كلّ من شارلوت وأنطوان بانضباط إيقاعي طبيعيّ تماماً. أنا أكنّ احتراماً كبيراً للرياضيّات.

6

وأنا أستخدم جان بول كمنصّة قفز صغيرة

في نهاية المطاف، بدأت أفكار كلودين الصبيانية تتّخذ شكلاً، وتحوّلت إلى تمثيليّة شغلت فكري. كانت خطّتها تعمل، حتّى إنّني وضعت سلسلة من السيناريوهات الخيالية التي تليق بأردأ أنواع المسلسلات الطويلة، والتي تنتهي بقيامي بعناق جي-بي:

أ) بمحض الصدفة، ألتقي بجان بول في حجرة آلات التصوير، فأغلق الباب وأعانقه من دون أن أواجه أيّ مقاومة.

ب) يتعطّل المصعد – ونكون فيه نحن الاثنان وحدنا، بطبيعة الحال – فيقترب منّي بدافع الحماية التلقائي، ولا يلبث أن يعانقني من دون مقدّمات، الأمر الذي لا أعترض عليه.

ج) أصعد السلالم للتريّض قليلاً، قبل أن أذهب للجلوس إلى مكتبي، فألتقي به هناك – وهو يمارس الرياضة في الوقت نفسه بمحض الصدفة! – الأمر الذي ينتهي حتماً بقبلة فرنسية طويلة.

د) إلخ.

تضمّن بنك سيناريوهاتي أيضاً بعض الكوارث التي حرّكت مشاعري أحياناً:

أ) نُجبر على إخلاء المبنى بسبب إنذار بوجود قنبلة، وفي

خضمّ الذعر والفوضى، نجد نفسينا معزولَين على بعد عدّة شوارع من المكتب، متعانقَين، لكي نتمكّن من مواجهة الحقد الذي يحفل به العالم على نحو أفضل.

ب) عطل كلاسيكي في الكهرباء، ظلام، خوف، رطوبة، صُدف متقنة، أيادٍ، شفاه، بهذا الترتيب أو لا.

ج) أفقد وعيي في الممرّ المؤدّي إلى قاعة الاجتماعات، وفي حركة بطولية أولمبية، يمسكني جي-بي قبل أن يتحطّم رأسي على أرضيّة المبنى الإسمنتية الحائزة على شهادة LEED (منقذاً إيّاي في حركة واحدة من تحطّم جمجمتي ومن صعوبة تنظيف الأرضية). وعندما يراني وأنا أستعيد وعيي، يفرح جدّاً ويعجز عن منع نفسه من عناقي مطوّلاً.

د) إلخ.

في مناسبات أخرى، كنت أدفع الكارثة إلى مستويات لا تصدَّق من الاستحالة. وفي أفضل هذه الحالات، نكون نحن الاثنان الناجيَين الوحيدَين من خراب الأرض، ونتعانق لكي نهرب من خوفنا ونحن نترقّب نهايتنا المحتّمة. باختصار، العالم يفنى، في حين أنّني منشغلة بالعناق.

في الواقع، يعمل جي-بي في القسم المالي، في الطابق الرابع، بينما أعمل أنا في قسم الموارد المادّية، في الطابق الذي يليه. وتُعتبر فرص لقائنا بمفردنا، في المصعد أو في مكان مجاور، شبه معدومة. بالتالي، ربّما عليّ أن أستعين بخيالي قليلاً.

هكذا بدأتُ أضاعف رحلاتي بين مدخل المبنى والطابق الخامس لزيادة فرص لقائي به، من الناحية الإحصائية. إذ عليّ أن

أبدأ من مكان ما، كأن أذهب للوقوف على المنصّة الصغيرة. كنت أسلك الدرج للنزول، وأستخدم المصعد للصعود – فأنا لا أريد أن يفسد عليّ العرق كلّ شيء – وأتحجّج بتغيير وتيرة حياتي لكي أشرح سبب زيادة نزهاتي الرياضيّة في فترات الاستراحة وفي ساعة الغداء. وفي وضعي، تفهّم الجميع حاجتي إلى التجديد. كنت أذهب أيضاً أكثر من اللازم للتحقّق من الاستخدام في الطابق الرابع (في الحقيقة، كنت أدخل الحمّام وأتظاهر أنّني أنظّف أنفي). وبالطبع، غالباً ما كنت أنسى هذا الشيء أو ذاك، الأمر الذي يمنحني مزيداً من الفرص لتوليد الصدفة، التي لا بدّ لي من الاعتراف أنّها كانت أكثر تعاوناً في الخيال منها على أرض الواقع.

عندما كنت أتواجد مع جي-بي وعدد كبير من المرافقين في المصعد، كنت أنظر إليه بشكل مكثّف لإعطائه إيحاءات ذهنية، إذ يقال إنّها تعبر تجويف المخّ بشكل أفضل في وجود الشخص. فأحدّق إلى رأسه بإصرار وأعطيه الأمر الآتي: «عانقني». لكنّه لا يسمعني. يخرج الناس من المصعد كما دخلوا، ويومئون برؤوسهم بتهذيب، قبل أن يحدّقوا إلى لوحة المفاتيح التي تضيء وتنطفئ. وكلّما نظرت إليه، ازداد إعجابي به، وبدا لي من المستحيل أن يأتي يوم وتلتقي فيه شفاهنا.

– لكن هذا ليس شيئاً! ما تفعلينه شعوذة. عليك القيام بحركة فعلية، أن تذهبي لرؤيته، أن تقومي بدعوته إلى فنجان قهوة. لا يمكنك معانقته إن لم تقتربي منه. أمّا إيحاءاتك الذهنية...! لا تقولي لي إنّك قرأتِ ذلك في كتب السرّ.

– بل في مجلّة.

- لا تعطني العنوان. حسناً، تعالي لرؤيتي بعد قليل، فأنا أريد منك خدمة صغيرة.

بعد الاستراحة، ذهبت بكلّ سذاجة لرؤية كلودين التي قالت لي بصوت عالٍ لكي يسمعها الجميع: «آه! دايان! هل أنت ذاهبة إلى المحاسبة؟ هلّا أعطيتِ جي-بي هذه، من فضلك؟».

تناولت الملفَّين المرتّبين اللذين ناولتني إيّاهما، ثمّ توجّهتُ إلى الطابق الرابع، ومشيت بخطى واثقة إلى مكتب جان بول. وجدت الباب مفتوحاً، فدخلت. رأيت أكواماً من الملفّات المرتّبة التي تنتظر أيادٍ تهتمّ بها بجانب كوب من الكريستال المزيّف المليء بالأقلام المتشابهة: أقلام بيلوت هاي تيك ف7 (ظهرت تكشيرة خفيفة على وجهي، فأنا أكره الأقلام ذات الخطّ العريض). على مسافة قصيرة منها، وُضع تمثال صغير من الخزف لراعٍ يبتسم بطمأنينة، كما لو أنّه لا وجود للذئاب، وهو يراقب أغنامه الخيالية. كان المكتب يخلو تماماً من اللوحات، لاتزيّنه سوى نبتة زنبق السلام بدت سعيدة للغاية بوجودها هناك. لكنّ هذا لا يعني شيئاً، ذلك أنّ زنبق السلام يبدو سعيداً في كلّ مكان. أتت سكرتيرته مسرعة لاستقبالي.

- أهلاً، دايان!
- آه، مرحباً، جوزي!
- هل تبحثين عن جان-بول؟

باستثناء السكرتيرة، لم يكن أحد يناديه جان بول، ربّما لأسباب هرمية. فهو نفسه لا يعرّف عن نفسه سوى باسم جي-بي. منذ الرواية المتلفزة Les dames de coeur، لم يعد جان بول اسماً شعبياً.

- أوه... أجل.

– هل أحضرتِ له ملفّات؟

– أوه... كلّا، بلى، في الواقع، كلودين هي التي كلّفتني بإيصالها، وأفضّل تسليمه إيّاها بنفسي.

– لا تقلقي، سأعطيه إيّاها، فهو لن يتأخّر.

– أين هو؟

– ذهب لتناول فنجان من القهوة في الطابق الثاني، فقد اشتروا آلة إكسبريسو.

– أوه، هذا رائع!

– جماعة الترجمة لا يشربون القهوة مثل غيرهم.

– سأحاول العثور عليه هناك، فأنا أودّ أن أشرح له بعض التفاصيل.

– ملابسك جميلة.

– أوه! شكراً... هذا لطف منك.

لو كنت عمياء، لبادلتها المجاملة ربّما. عندما رأيتها تتوجّه إلى مكتبها بحذائها الشاهق، بلونه الأبيض اللامع، شعرت بالشفقة عليها. حيّتني بحركة من أصابعها ذات الأظافر البيضاء المزيّفة، والمحاطة بخواتم من اللؤلؤ الأبيض المتناسقة تماماً مع أقراطها وأساورها، والمشط الذي يزيّن شعرها، وظلال العينين البيضاء، تماماً كبدلتها. منذ وصولها إلى الشركة، ذاع صيتها كفتاة مراوغة، وكانت تثبته كلّما سنحت لها الفرصة. ولو كانت لديّ سكرتيرة مثلها، لوسّعتُ أنا أيضاً على الأرجح دائرة أبحاثي الميدانية، إلى أن أعثر في طابق بعيد على آلة قهوة.

نزلت الدرج، في محاولة لكسب الوقت حتّى أستجمع

شجاعتي. عندما وصلت إلى الطابق الثاني، رأيت جي-بي يدخل المصعد بكلّ حيويّته ونشاطه. فهُرعت للحاق به، لكنّ الباب أُغلق في اللحظة التي كنت أصيح فيها: «جيبي-بيبي!» وقد خرج الاسم هكذا، ممطوطاً على نحو مضحك. فبقيتُ هناك، والملفّات بيدي. لكن سرعان ما فُتح الباب مجدّداً، لأجد أمامي جي-بي مبتسماً، وقد طغى عليه الفضول لمعرفة ما أريد منه.

– آه... أوه... مرحباً، إنّها كلودين، طلبت منّي تسليمك هذا. كان لديّ عمل في الطابق الرابع، كنت... مارّة من هناك...

– لكنّك أتيت حتّى الطابق الثاني، لا شكّ أنّ الأمر مهمّ؟

– لا لا، أتيت من أجل آلة القهوة.

– ما هذه الملفّات؟

– أوه... ليست لديّ أيّ فكرة...

– حسناً... هممم هممم... يبدو لي أنّني وافقت عليها في الأسبوع الفائت.

– ربّما أخطأت.

– نعم، لكن هذا غريب. هل ستصعدين؟

– أوه... أجل.

– أما كنت تريدين شرب القهوة؟

– آه! صحيح، لقد نسيت.

– حسناً، شكراً على الملفّات، سأطّلع عليها حالاً، فلا شكّ أنّه ثمّة خطب ما.

– أجل...

– نهارك سعيد!

– أجل...

أُغلق باب المصعد في وجهي المربَك. فتخلّيتُ القهوة واستخدمت السلّم مجدّداً بخطى بطيئة، في محاولة لهضم خيبتي من دون أن يزعجني أحد. دخلت مكتب كلودين، وألقيت بنفسي على كرسيّ الشكاوى. كان الكرسيَّ الأكثر استعمالاً في المبنى بأكلمه.

– نصيحتك المتعلّقة بالقبل الفرنسية غير مجدية إطلاقاً. فقد بدوتُ كالحمقاء، وكرهت نفسي. كما أنّ جي–بي، بكلّ صراحة...

– جي–بي منصّة قفز صغيرة ممتازة.

– لكنّه وسيم للغاية.

– إنّه مستقلّ، وعنيد بعض الشيء، وحازم، أعتقد أنّه مرشّح ممتاز للقبل الفرنسية.

– ولديه زوجة، وشقراء أيضاً!

– لكنّ هذه المسألة لا تهمّك على الإطلاق، لا بل هذا أفضل، فأنت لا تسعين للزواج منه، ولا حتّى للنوم معه، بل تريدين عناقه وحسب. وبعد ذلك، يعود لمتابعة حياته.

– تريدينني أن أنتقم من جاك؟

– مطلقاً. المسألة ليست مسألة انتقام، بل أنانيّة خالصة. في هذه اللحظة، عليك التفكير في نفسك، وأنت بحاجة إلى شيئين: تمضية الوقت واستعادة ثقتك بنفسك.

– ربّاه! لقد حقّقتُ نجاحاً باهراً!

– كم يوم مضى عليك وأنت تحلمين بجي–بي في أوقات فراغك؟

– لم أفعل.

– لا تطلبـي منّـي أن أصـدّق أنّ هذا الأمر لم يمنحك شـيئاً من التسلية.

– بالكاد.

– ولا تطلبي منّي أن أصدّق أنّك لا تبذلين بعض المجهود في الصباح وأنت ترتدين ملابسك.

– قليلاً.

– عظيـم، هـذه هي الفكرة من مشـاريع العنـاق. إنّها تماماً مثل كـوب مـن الماء السـاخن مـع الليمـون، غير مؤذيـة ولكنّها مفيدة. فقد مرّت أشهر لم تهتمّي فيها بنفسك.

عندمـا عـدت إلـى مكتبي، وجدت رسـالة من جان بـول بوافير على المجيب الآلي. فأخذتُ أهزّ برأسي غير مصدّقة: لقد اتّصل بي جي–بي، اتّصل بي أنا. لقد طلب شبيه توم برادي في قسم المحاسبة رقمي البريدي أنا.

– ... مرحبـاً دايـان... هـلّا مـررتِ بمكتبـي عندما يتسـنّى لك الوقت؟ لا شيء عاجل أو مهمّ، عندما تجدين الوقت.

– لكن أهذا كلّ شيء؟

– أجل.

– ولمَ كنت تقولين إنّك بدوت كالحمقاء...

– ولكن، ما الذي أفعله بالضبط؟

– لا أظنّ أنّه سؤال حقيقي.

– حتماً سأبدو كالحمقاء!

– هذا مؤكّد، لكنّك ستذهبين على الرغم من ذلك.

– أبقي كرسيّ الشكاوى دافئاً، سأعود حالاً.

كان باب مكتبه مغلقاً، مثل حصن ضدّ احتمالات الزيارة التلقائيّة. بعدما أنبأته جوزي بحضوري عبر الهاتف، حرصَت على أن تفتح لي الباب بنفسها، مثل حارس نشيط مع حركة ذراع على طريقة برنامج الألعاب ذا برايس إز رايت. كان انتباه جي-بي مركّزاً على شاشته، وبدا وهو مقطّب الجبين أكثر وسامة من أيّ وقت مضى. زادته ملامح الانزعاج جمالاً، ومنحته لمسة من الحكمة التي يفتقر إليها الرجال الذين يظهرون في المجلّات. كان شعره كثيفاً يصعب أن تمرّ يد عبره، حتّى يد امرأة ذات أصابع نحيلة، على عكس شَعر جاك، الذي هجر السفينة بهدوء ولم يتبقَّ منه سوى تاج يحيط برأسه. لكن بما أنّ التجاعيد تزيد وجه الرجل وسامة، فإنّ مجرّد حلاقة تلك البقعة كانت كافية لتختصر من عمره عشر سنوات وتضعه على قائمة الرجال الناضجين الوسيمين. كنت أشعر في بعض الأحيان أنّني ضحيّة تبادل خبيث في هذا الزواج اللعين، إذ يمرّ عليّ عدد مضاعف من السنوات، سنواتي وسنواته.

– أوه! أهلاً دايان. شكراً جوزي، يمكنك إغلاق الباب خلفك.

– هل أردّ على المكالمات لكي لا يزعجكما أحد؟

– لا، لا، حوّليها إليّ، لا مشكلة في ذلك.

– آه! أهذا موعد غير رسمي؟

– كلّا، بل مهنيّ. شكراً، جوزي.

ما إن أُغلق الباب، حتّى قام جي-بي بجرّ كرسيّه إليّ، من الجهة الأخرى من المكتب، وبدأ يكلّمني بصوت منخفض: «اسمعي دايان، من غير المريح أن أطلب منك ذلك في الواقع، لا بل إنّ الأمر محرج

بصراحة، لكنّني لاحظتُ رغماً عنّي...».

في البداية، لم أسمع بقيّة كلامه. رأيت فمه يتحرّك مع يديه، لكنّ ما قاله فاتني بالكامل خلال ثوانٍ طويلة. غرقت في صمت تامّ، وأنا أتأمّل يديه وشفتيه الجميلتَين التي فعلَت بي فعل المخدّر. هذا كلّ ما أحتاج إليه، ولا أكترث أن يستخدمها لشيء آخر غير عناقي. عندما توقّفت شفتاه عن الحركة، وضع يديه على المكتب وهو يرفّ بعينيه في إشارة إلى أنّ دوري قد حان للكلام.

– آه...

– أعذريني، أعتقد أنّني أتطفّل. أنا آسف.

– لا! لا لا. أنا... أنا... بصراحة لم أسمع.. لم أسمع ما قلتَه.

– آه؟

– كنت شاردة، أعذرني.

هذا ما عنيته عندما قلت إنّني سأبدو كالحمقاء.

– حسناً... لقد سألتك من أين اشتريت حذاءك، فقد وجدته جميلاً، وقريباً يصادف ذكرى ميلاد زوجتي...

– هل أنت متزوّج؟

– نعم.

– آه، غريب، اعتقدتك عازباً. فالزواج أصبح أكثر ندرة بين أبناء جيلك.

– أوه... ظننت أنّنا... في السنّ نفسه تقريباً.

– آه حقّاً؟ وكم عمرك؟

– أنا في الرابعة والأربعين.

– لا!

– بلى.

– لكن لا!

– لكن بلى.

– هذا مستحيل!

بالكاد بدا في الخامسة والثلاثين. كنت على وشك أن أضربه هو والتجاعيد الجميلة المحيطة بعينيه. خلفه، من وراء زجاج النافذة الكبيرة غير المنظّف بعناية، بدا جزء من سهول أبراهام، بجمالها التاريخي، وتوزّع عليها بعض المتنزّهين الذين أتوا لعيش أجواء ريفية لبضع لحظات قبل العودة إلى أقفاصهم الإسمنتية. جمح بي خيالي خارج النافذة من دون أن يرفّ لي جفن، بحيث استطعت أن أشعر بالعشب تحت قدميّ. فجأة، انتابتني رغبة قويّة في الجري.

– ما مقاس قدم زوجتك؟

– ثمانية.

– إنّه مناسب تماماً.

نهضتُ، واستندت إلى طرف المكتب، ثمّ خلعت حذائي، وتركته فوق كومة الملفّات المرتّبة التي تنتظر أمامه. حاول أن يمنعني، وأن يقنعني باستعادة الحذاء، لكنّني أكّدت له أنّه جديد، وأنّه لن يجد مثله على الإطلاق، كما أنّ الحذاء يضرّ بي.

– أنا لا أريد حذاءك، هذا كرم بالغ منك، لكنّني لا أريده، كنت أسأل وحسب من أين اشتريته. هذا غير منطقي على الإطلاق، لا يمكنني أخذه، مستحيل يا دايان، لن تخرجي هكذا...

– لقد جعلتَني أدرك أمراً: أريد أن ينظر الناس إلى عينَيّ، وليس

إلى قدمَيّ.

– حسناً، لقد صدمتك، أنا أعتذر، حذاؤك جميل، كلّ ما في الأمر...

أدرت له ظهري، ثمّ فتحتُ الباب – لا وجود لجوزي، ممتاز! – وبدأت أركض بجواربي في أروقة الطابق الرابع، ومن ثمّ صعوداً على السلّم الإسمنتي البارد، وفي كافة أروقة الطابق الخامس. رحتُ أجري وذراعاي مثنيتان بزاوية تسعين درجة، مثل المرأة الخارقة. كنت مشحونة تماماً، كذاك الشعور الذي كان ينتابني وأنا في الصفّ الابتدائي الأوّل عندما يرنّ الجرس. أحسست بارتياح هائل، وبدا لي كلّ شيء أخفّ وزناً، وأقلّ إرهاقاً. ولأولئك الذين التقيتُ بهم في طريقي، أشرتُ لهم لكي يفهموا أنّه لا داعي للهلع، وأنّني أمرّ وحسب بلحظة جنون عابرة. بإمكانهم العودة إلى ملل استماراتهم القاتل، أمّا أنا، فإنّني بحاجة إلى الجري. وقد جريتُ. في خيالي، كنتُ لولا، فورست، أليكسيس لا بوانت. وصلت إلى باب قاعة الاجتماعات المغلق وأنا ألهث، والعرق يتصبّب منّي، بينما اسودّت جواربي من الغبار.

أتت كلودين تبحث عنّي وقد بدا عليها القلق. فابتسمت لها ابتسامة عريضة كشفت عن أسناني المصفرّة من كثرة ما استهلكتُ من القهوة والشراب الأحمر. كنت بخير، كان هذا واضحاً.

– عليك حقّاً أن تجرّبي ذلك، فالإحساس لا يوصف!

ثمّ عدت أجري على السلالم وأنا أضحك، مثل فتاة بلا حذاء، ولا عقل، ولا زوج.

طلبتُ من سائق التاكسي أن يوصلني إلى أقرب متجر للأحذية.

فقد كان واضحاً للجميع أنّني بحاجة إلى حذاء.

* * *

عندما دخلت المتجر الرياضيّ بجواربي القذرة، اتّجه نحوي الشابّان اللذان يعملان هناك مسلّحَين بنظرات القلق. وهذا طبيعي، فبالحالة التي كنت فيها، لا شكّ أنّني بدوت مثل متسوّلة أتت تطلب شيئاً تنتعله. لكن سرعان ما ابتسم لي أحدهما، وقد اطمأنّ حين رأى حقيبة يدي الجلدية إيطالية الصنع.

– لقد رغبت في الجري.

– هل فقدت حذاءك، سيّدتي؟

– لا، لا، بل أعطيته لشخص يحتاج إليه.

– حسناً، سنحلّ المشكلة.

ابتسم كاشفاً عن صفّين من الأسنان البيضاء لشابّ لا يبدو أنّه يشرب القهوة، وتوجّهنا إلى داخل المتجر. اصطفّت هناك مئات الأحذية الرياضيّة ذات الألوان البرّاقة، مؤلّفة فسيفساء خلّابة من البراعة التقنيّة والمستقبليّة. فجلستُ على أحد المقاعد لكي لا أصاب بالدوار.

خلعت جواربي لارتداء تلك التي ناولني إيّاها الشابّ اللطيف «كريم في خدمتك»، جوارب ارتداها جميع الراغبين في الجري لتجربة الأحذية الجديدة، جوارب مليئة افتراضياً بالفطريات، كما كان ليقول جاك الذي يعاني من خوف لا عقلاني من أمراض القدمين. فارتديتها بسعادة، ذلك أنّني أحبّ المجازفة.

– تعالي معي، سنقوم بتجربة جري.

– تجربة جري؟

– يجب أن أراك وأنت تركضين لأرى ما يناسبك.
– لكنّني لا أريد سوى حذاء جري عادي.
– نعم، ولكن يجب أن أرى دعستك إذا كنت ترغبين بحذاء متناسب مع قدمك، وإلّا فمن الممكن أن يسبّب لك الأذى.
– أوه! الأمر جدّي!

هكذا وقفتُ على سجّادة الجري داخل المتجر، وركضت عليها ذهاباً وإياباً بضع مرّات أمام عيني الشاب الراكع أرضاً لتقييم دعستي على نحو أفضل، الأمر الذي حكم عليه برؤية الكتلة المترهّلة التي تعلو قدمَيّ. كان يوماً من التخريب الذاتي، لكنّه عمل خير أيضاً، ذلك أنّه سيجد صديقته الشقراء أكثر جمالاً من أيّ وقت مضى عندما يلتقي بها في المساء. صديقته، أو صديقه، لا يهمّ.

علمت أخيراً أنّني أعاني من كبّ واضح، وهي حالة تدعى فرط الكبّ. هكذا، أتيت لشراء حذاء رياضيّ، وسأخرج بتشخيص طبّي. ومن بين مئات الأحذية المعروضة، ثلاثة فقط كانت تناسبني. والثلاثة على قدر كبير من البشاعة، تختلط فيها الألوان الفلورية المفتقرة إلى الأناقة والخطوط التي تشير إلى الأيروديناميكية. كانت عودة موضة الثمانينيات من الأمور التي تؤرقني، لا بل هي أقرب إلى رُهاب، وهذا يُظهر مقدار المتعة التي كنت أشعر بها وأنا أختار شيئاً.

أجبرتُ أيضاً على التخلّي عن فخري المعتاد بشراء الملابس.
– هل مقاس الحمّالة مناسب، سيّدتي؟
– في الواقع... أجل على ما أعتقد، صدري مضغوط بعض الشيء...
– هذا طبيعي، فهي تسحق الثديين قليلاً، لدعم هذه المنطقة.

لم يكن صدري مضغوطاً، بل شكّل مساحة مسطّحة ومشوّهة تماماً. ولو كنت أملك ثلاثة أو أربعة أثداء، ما كان ليلاحظ أحد...

- هلّا قفزت في مكانك، من فضلك، لكي نعرف ما إذا كانت الحمّالة مناسبة.

بعد كلّ ما جرى اليوم، لم لا؟ ارتعشت مفصلات ومزلاج غرفة الملابس على إيقاع قفزاتي، حتّى الخفيفة. ولو واصلت القفز، للزمنا مفكّ براغٍ. فعلاً، لا حدود لسخرية القدر. كنت على وشك أن أنفجر ضاحكة عندما فكّرت في احتمال وجود كاميرا مخبّأة في مكان ما. وإذا رآني الناس وأنا أقوم بهذه الحركات على يوتيوب، ستكون تلك نهايتي لا محالة.

بحسب توصيات كريم، اخترت بعض الملابس المناسبة، المصنوعة من الألياف الدقيقة عالية التقنية، بما في ذلك سروال طويل ممتصّ للصدمات، وحتّى سراويل داخلية «مثبتة علمياً» تؤمّن الراحة. أنا أُعتبر حتماً هدفاً سهلاً للتسويق الرياضي، فتحت ستار العِلم، يمكن بيعي أيّ شيء.

- ما يميّز هذه الملابس الداخلية، سيّدتي، أنّها تحتوي على شبكة إدراج للتهوية مضادّة للميكروبات في المواقع الاستراتيجية.

من الواضح أنّه يقول لي وهو ينظر إلى عينيّ إنّني سأحتاج إلى نظام تهوئة لمنع تكاثر الميكروبات غير المرغوب فيها في مناطقي الحسّاسة.

- بإمكانك أيضاً اختيار نوع مشدّ الردفين الذي ترغبين فيه. انظري، لدينا من كلّ الأنواع.

– رباه!

– لا أنصحك بالقصّة الرفيعة، فهي أنسب للواتي يرغبن في الحفاظ على المظهر، فالشابّات يحببنها...

– ماذا تشتري نساء سنّي عادة؟

– القصّة العريضة التي تؤمّن دعماً فائقاً.

وددت لو كنت أملك الشجاعة لسؤاله ما إذا كان هذا النوع من السراويل الداخلية يسحق الردفين بقدر ما تفعل حمّالة الصدر، وفي هذه الحالة، لا أعود بحاجة إلى نظام التهوئة، لكنّني خشيت أن يطلب منّي القفز في مكاني لتقييم مدى ترهّل ردفيّ.

بعدما ناقشتُ على هذا النحو أجزاء جسدي الحميمة مع شخص غريب تماماً، خرجت من المتجر وقد أنفقت 427 دولاراً. سيتحتّم عليّ أن أبدأ بالجري على الفور لكي لا أندم على ذلك. كانت شارلوت على حقّ، فالجري لا يكلّف شيئاً، بعد استثمار بضع مئات من الدولارات.

* * *

لاحقاً، في سريري، في غرفة الضيوف، ضحكت حتّى سالت دموعي وأنا أتذكّر وجه جي–بي عندما مدّ إليّ حذائي يائساً، كما لو كان يحمل بطاطس ساخنة. بعد ذلك، شغّلتُ حاسوبي لطلب حذاء جديد صُنع في إيطاليا أقلّ لفتاً للأنظار. فعليّ أن أمنح عينيّ فرصة.

7

وأنا أهذي بالسخافات

– هل أنت حاقدة عليه؟
– أجل، كثيراً. هذا مؤكّد.
– لماذا؟
– أفّ...
– هلّا أخبرتني مع ذلك؟

كان لون قميصها الحريري الوردي مريحاً. حتّى إنّني قرّرتُ عدم تشغيل عدّاد الوقت لذلك اليوم. ليس عليّ سوى أن أكون عمليّة وألّا أهذي كامرأة يائسة.

– عندما نمنا سوية آخر مرّة، لم أكن أعرف أنّها كانت الأخيرة. بالنسبة إلى امرأة في سنّي، هذا قاسٍ. فقد تكون المرّة الأخيرة في حياتي.
– هل كنت تفضّلين لو عرفتِ ذلك مسبقاً؟
– لا أدري كيف كان ذلك سيحصل: اسمعي يا دايان، بالمناسبة هذه قبلتنا الأخيرة...
– نعم.
– أمّا هو، فكان يعرف، من المؤكّد أنّه كان يعرف. هذا ما يثير اشمئزازي.

– ولماذا يثير اشمئزازك؟
– لأنّني أتخيّله وهو يقول في نفسه: هيّا يا جاك، مرّة أخيرة... وبعد ذلك، ترحل...

تهدّج صوتي، وبدأت ذقني ترتعش. لم أستطع التخلّص تماماً من ألمي، بل كان يقفز إلى حلقي كلّما اقتربتُ منه. نظرَت معالجتي النفسية إلى عينيّ بصمت من دون أن تحرّك ساكناً، حتّى شعرتُ أنّها اختفت تماماً. لو لم تكن تتمتّع بلباقة هذا الصمت، لتوقّفتُ ربّما عند هذا الحدّ. رسمَت دموعي الغزيرة الحارّة قوساً على خدّيّ قبل أن تلتقي عند عنقي.

– أودّ أن أفهم ما الذي فاتني. أتساءل كيف تحدث هذه الأمور، وكيف تبدأ. من يفعل ماذا. هذا غباء، أنا أعرف، فهذه الأمور تقع لكثير من الناس. وما يحدث معي طبيعيّ تماماً، لكنّني لا أفهم ما الذي حدث في البداية. أشعر أنّني غارقة في الضباب، فأنا أتخيّل ملايين السيناريوهات الصغيرة التي تدور في حلقة مفرغة. لقد أعطاني تاريخاً تقريبيّاً لبداية علاقته بتلك اللعينة، لأنّني ألححت عليه حقّاً، لكنّ هذا لا يكشف لي كيف بدأت العلاقة. الأمر يبقى غامضاً. وأعتقد أنّه ليس من المعقّد إخباري، أقلّها لتحريري من هذا الغموض. عندما يُقتل شخص ما، يكون لأقاربه الحقّ في معرفة كيفيّة حدوث الجريمة، فيتمّ إخبارهم بنوع السلاح وبساعة حدوث الجريمة، وما إذا كان الشخص قد تعذّب أم لا، وفي هذه الحالة، لِكَم من الوقت. أنا واثقة أنّه من الأقلّ إيلاماً معرفة كلّ شيء، وإلّا، فإنّني سأمضي الوقت في

تخيّل كيفيّة حدوث ذلك. لكنّني أعرف أنّ أحداً لم يمت... القبلـة الأولـى... لمسـة اليد الأولى... هـذا يثير جنوني. لن تغيّر معرفتي شيئاً، لكنّها ستمنحني نقطة انطلاق لكي أكرهه. سـيكون بإمكانـي أن أبـدأ بكـره شـيء محـدّد، المؤتمرات، الرحلة إلى بوسطن، العشاء في بونانوتي... أمّا هذا الوضع، فيشـعرني أنّني تائهة، كمن يحوم في الفراغ... أتخيّلهما في إحدى سـهراتهما الاجتماعيّة، تبّاً كم كنت أشـمئزّ من تلك الأمسيات التي نتجاذب فيها أطراف الحديث مع شخصيّات المجتمع الذين لا يتحدّثون سـوى عن المال. أتخيّلها وهي تتهادى، مثل نجمة، بأقراطها اللّامعة، وزينتها البرّاقة، نضرة وشـابّة، بلا تجاعيد وبلا جيوب تحت عينيها، بطنها مسـطّح تحت ثوبها القصير اللعين، وبشرتها مشدودة. ثمّ أرى جاك وهـو ينظـر إليهـا ويقول في نفسـه، أوه ربّاه، كم هي جميلة. يعـرض أن يحضـر لهـا شـراباً، بلباقتـه المعتـادة، فتتلامـس يداهما، وتبتعدان، ثمّ تعودان وتتلامسـان مجدّداً... الأيدي، كلّ شيء يحدث بالأيدي، نظنّ أنّها العيون، لكنّني واثقة من أنّهـا الأيـدي... فالأمر لا يحتاج لأكثـر من إصبع متمهّل... لـم أشـعر بالغيرة يوماً، لم يسـبق لي أن فكّرت في ذلك، تبّاً، فـي مـا عـدا مرّة واحدة، منذ زمن طويل، لكنّني كنت أتخيّل يومها أموراً لا أساس لها من الصحّة... ربّما رآهما الزملاء، عندما بدأت علاقته بشارلين، لكنّهم لم يكترثوا، فأمور كهذه هي مدعاة للتسلية، كما أنّ الجميع يفعلون ذلك... يبدأ الأمر بأمسـيات، تتبعهـا مؤتمـرات خـلال عام، ثمّ تـروى أكاذيب

كثيرة في أثناء ذلك، أنا أعرف قصصاً عديدة، أقسم لك، قصصاً عن نساء أخريات عادة... في مرّات أخرى، أراهما في المكتب، وأتخيّل يد جاك وهي تحطّ على كتفها، كتف الجميلة شارلين، «مرّي بمكتبي من فضلك، علينا مناقشة أحد الملفّات». وما إن يغلق الباب، حتّى يقتربان من بعضهما البعض... أيّ منهما، لا فرق، فهو المسؤول عن حمايتنا، هو المسؤول عن صدّها، هذا واجبه هو، لا هي، فتلك الفتاة غير مدينة لي بشيء، هو الذي ينبغي أن يحول دون وقوع ذلك، وإن لم يفعل، فلأنّه أراده... لا يهمّ، هذا يعيدني إلى النقطة نفسها، أنا السبب، إن كان جاك قد ذهب إليها أو سمح لها بالاقتراب منه، فهذا لأنّه بحاجة إلى شيء آخر، شيء آخر لم يجده لديّ... لم أنتبه أنّه لم يعد سعيداً...

أمالت رأسها المسرّح بعناية بزاوية ثلاثين درجة وضغطت قليلاً على جفنَيها.

– حسناً، كثيرة كانت الاجتماعات التي تنتهي فجأة في ساعة متأخّرة، ناهيك عن عودته أحياناً إلى المكتب في المساء لإحضار ملفّات... في إحدى المرّات عاد عند الساعة الواحدة صباحاً وبيده فنجان قهوة من تيم هورتنز، أفّ! كان يكره تلك القهوة... حصل أيضاً على بطاقة اعتماد جديدة من أجل «نفقات العملاء»... لو كانت مغامرة عابرة، علاقة بلا أهمّية، أعتقد أنّني كنت سأتفهّم في النهاية، يبدو لي أنّني كنت سأفعل... لكنّه اختارها هي، اختار التخلّي عن كلّ شيء من أجلها، رمى خلف ظهره علاقة استمرّت

خمسة وعشرين عاماً من أجل شابّة في الثلاثين، حتّى وهو يعرف أنّ فعلته تلك ستقضي عليّ... كم أنا ساذجة! كم أنا ساذجة! ظننت أنّ أمراً كهذا لا يمكن أن يحدث لي، أعرف أنّ الجميع يقولون ذلك، لكن هذا ما ظننته حقّاً، كنت على قناعة عميقة بذلك...

– لماذا؟

– لأنّني لطالما اعتقدتُ أنّ النساء اللواتي يعشن تجربة كهذه يستحققّنها ولو قليلاً... تبّاً... ربّما كنت أستحقّ فعلاً ما يحدث لي... لطالما اعتقدت أنّني فوق ذلك...

لم تكن تكتب شيئاً. كنت أهذي على الأرجح بالحماقات نفسها والبديهيّات نفسها التي تكرّرها النساء على أريكتها وهنّ يضغطن على بطونهنّ. لم أكن أعيد اختراع الألم، بل أعيشه. كانت طرقاتي، ومخاوفي، وأفكاري هي نفسها، ولم يكن ثمّة داعٍ لصرف الحبر عليها، أنا أوافقها تماماً. القصّة نفسها، القصّة اللعينة نفسها.

– كنت أظنّ أنّ المحن جعلتنا أكثر قوّة، ووطّدت من علاقتنا، وقرّبت بيننا، لكن أعتقد أنّها استهلكتنا وحسب... ربّما ليس من الجيّد أن نعرف الشخص الآخر جيّداً، ربّما كان ذلك يبعدنا أكثر ممّا يقرّب بيننا... فمع الوقت، نعيش يوميّاً القصص القديمة نفسها، والمراوغات نفسها، فيما تزداد العيوب حجماً... أعرف أنّني أنهار تدريجيّاً... لا أدري ما الذي يحدث أوّلاً، هل يقع الرجل في حبّ امرأة أخرى لأنّه سئم من زوجته، أم يقع في الحبّ أوّلاً ثمّ يسأم من زوجته؟... البيضة أم الدجاجة، تلك هي المعضلة دائماً...

أنـا أشـعر بالعـار، هـذا غريب، هـو الذي يخونـني وأنا التي تشعر بالعار. أشعر أنّ الناس ينظرون إليّ كما لو كنت مصابة بالطاعون. لا شـكّ أنّ الناس يعتقدون أنّ لدى جاك أسـبابه ليتخلّى عنّي على هذا النحو، وأنّني مملّة أو لا أطاق، صحيح أنّه صبر ربّما بسـبب الأولاد، فكثير من الناس يمكثون إلى أن يكبـر الأولاد... فقـد غادرت شـارلوت المنزل للتوّ على أيّ حال، وربّما لـم تكن مجرّد مصادفة... أشعر بالعار، كما أشـعر أنّني قذرة. في المسـاء، أسـتحمّ بالماء المغليّ وأفرك بشـرتي كمن يسـعى إلى إزالة طبقة منها، لكنّ الإحسـاس لا يزول...

بينمـا كنـت أحـكّ ذراعي، ألقيت نظرة على سـاعتي لأدرك أنّنا تجاوزنا السـاعة بثلاث عشرة دقيقة.

- مسكينة أنت، تسمعين القصص نفسها كلّ يوم...
- جراحك أنت جديدة. إذا ما كسرت ذراعك، لن تشعري بألم أقلّ لمجرّد أنّ ملايين الناس كسروا ذراعاً قبلك.
- صحيح، ولكن...

8

وأنا أتذكّر أفراح سنّ المراهقة

الانطباع الذي تكوّن لديّ بأنّني مذنبة في ما يحدث لي يرجع جزئياً إلى ما رأيته يحدث مع كلودين، ذلك أنّ ابنتيها تحمّلانها ذنب ما جرى، كما لو كانت مسؤولة عن مصير البشرية جمعاء. وكما هو الحال في العديد من هذا النوع من القصص، فقد رفضت تشويه سمعة فيليب أو اتّهامه بأيّ شيء، بينما ألقى عليها بالذنب كلّه لتبرير رحيله لهما. فتكلّم عنها بالسوء من دون أيّ تردّد، ولم يكن ينقصه سوى تحميلها مسؤوليّة تغيّر المناخ.

بحكمتها المعهودة، كانت كلودين على يقين من أنّ البنتين ستدركان الحقيقة عاجلاً أم آجلاً، وستتراجعان عن أحكامهما الظالمة. لكن بينما كانت تنتظر حلول ذلك اليوم المبارك، حوّلت الفتاتان حياتها إلى جحيم. حتّى إنّهما لا تتردّدان في التصرّف بوقاحة أمامي، كما لو كنت مجرّد قطعة أثاث. في سنّ الثالثة عشرة والسادسة عشرة، تذكّراني بنيلّي، تلك الصغيرة في مسلسل البيت الصغير في البراري.

- أين سروالي القطني؟
- الملابس المتّسخة معلّقة في غرفة الغسيل.
- وهل سروالي القطني هناك؟

– اذهبي وتأكّدي.

– لكن هذا غير معقول.

– ما عليك سوى أن تغسلي ملابسك بنفسك لكي تتأكّدي من أنّ كلّ ما تحتاجين إليه موجود.

– لا تبدأي!

وانصرفت وهي تتمتم غاضبة، فجنّ جنون كلودين.

– لوري، عودي حالاً!

– لا وقت لديّ، عليّ أن أبحث عن ملابسي.

– عودي إلى هنا حالاً!

– كلّا! لقد سئمت من خطاباتك السخيفة!

– حقّاً؟ إذاً الخروج ممنوع! هل سمعتني؟ الخروج ممنوع هذا المساء!

– لا آبه! سأخرج على أيّ حال!

– إذا وضعت قدمك خارج هذا الباب، سألغي خطّ هاتفك المحمول فوراً!

– إذا فعلت ذلك، سأتّصل بأبي، وهو سيقطع عنك النفقة! هو الذي يدفع فاتورة خطّي على أيّ حال.

– العفريتة الصغيرة... سأقطّعها إرباً.

وقفت الفتاة الأصغر سنّاً عند باب المطبخ بمظهرها الطفلة المنهكة والمسحوقة تماماً، كعادتها. جرّت قدميها إلى أقرب كرسيّ، وانهارت عليه بتكاسل، مثل كتلة لزجة. ولولا قميصها الرهيب بقماشه الشفّاف، وخصل شعرها الزرقاء، لظنّ المرء أنّها مشت لأسابيع هرباً من بلد في حالة حرب.

– ليس لديّ ما أفعله.

– ليس لديك ما تفعلينه إذاً! اتّصلي بليا!

– إنّها عند أبيها، في آخر العالم.

– وماذا عن نويمي؟

– لا رغبة لديّ.

– لماذا؟

– شقيقتها لا تتركنا.

– اطلبي منها المجيء إلى هنا أوّلاً.

– كلّا، لا أحبّ ذلك.

في منزل والدهما، كان القبو مجهزاً بالكامل، مع حوض سباحة، ومنتجع صحّي، ومجموعة لا تخطر على بال من الأجهزة الإلكترونية، والشاشات الكبيرة، كما في فهرنهايت 451. شربت كلودين نصف كأسها دفعة واحدة. كانت تحتاج إلى شيء أقوى قليلاً.

– ماذا عن كلّ ما اشتريناه لك الأسبوع الفائت لكي تتعلّمي رسم المانغا؟

– لم تعد لديّ رغبة في ذلك.

– اخرجي وقومي بجولة على الدرّاجة، الطقس جميل.

– كلّا!

– بإمكانك أن تصنعي لي سواراً من أساور الصداقة، فقد أضعت سواري.

كانت تلك مجرّد طريقة في الكلام، لكنّها لم تضعه حقّاً. فآخر سوار صنعته لها آديل كان باللونين البرتقالي والبنّي، مع خطّ صغير من الأخضر اللّيموني. سوار فظيع انتُزع من يدها عن طريق الخطأ.

- يمكنك أن تصنعي لي واحداً جميلاً، بأشكال معقّدة بالأسود والأحمر.
- لكنّ صنع الأساور تسلية للأطفال.
- حسناً، تسلية أطفال، هذا مؤسف... اذهبي للتنزّه في الحديقة.
- أنت لا تريدين سوى التخلّص منّي.
- أنا أريد أن تجدي شيئاً تفعلينه، أن تعيشي عوضاً عن الملل القاتل الذي يسيطر على حياتك.
- ليس لديّ ما أفعله...
- نامي إذاً، هكذا تقتلين الوقت، تبدين متعبة للغاية على أيّ حال.
- لست راغبة في النوم.

شربت كأسي دفعة واحدة، قبل أن أعطي كلودين كأسي لأذكّرها أنّني معها. عندما يكون العدوّ في المطبخ، على المرء استخدام كل الوسائل المتاحة للدفاع عن نفسه.

- هذا غريب، لا أذكر أنّني كنت أشعر بالملل حين كنت في سنّك.
- أنت محظوظة.
- آه! اسمعي، خطرت ببالي فكرة يمكنك تطبيقها مع نويمي.
- أف...
- هل كنت تفعلين ذلك يا دايان، اتّصالات الهاتف؟
- أوه، يا لها من أيّام!
- الأمر ليس معقّداً، تأخذين دليل الهاتف وتتّصلين بأشخاص عشوائيّين، ثمّ تقولين لهم أشياء سخيفة.

- دليل الهاتف!
- تبحثين أوّلاً على الإنترنت، تتّصلين بأشخاص تعرفينهم أو لا، أصدقاء في المدرسة مثلاً، وتتظاهرين أنّك فتاة أخرى من المدرسة، ثمّ تروين لهم أموراً سخيفة.
- نحن كنّا نرسل البيتزا للأساتذة.
- صحيح، البيتزا!
- هذا سخيف!

رحنا نغرف من تراثنا من الأفكار الشعبية للأيّام الخوالي، قبل ظهور الأنا التي أحدثت ثورة في فنّ الترفيه لدى الشباب. ففي حين أنّهم يستمتعون اليوم بالظهور بأكبر قدر ممكن، كانت ألعابنا تتطلّب منّا بدلاً من ذلك بذل ما في وسعنا لكي لا يتمّ التعرّف علينا.

- يمكنكما إلقاء البيض على منازل الناس، على سطوحهم، على سقيفة سوداء مثلاً، ستنضج على الفور تقريباً.
- على الخزّانات، هذا مسلّ أكثر.
- أو إلقاء بالونات من الماء من فوق الجسر!
- أوه، أجل!
- هذا مسلٍّ للغاية! وإذا اعتقلك الشرطة، تتظاهرين بالغباء، وتقولين إنّك رأيت ذلك في الكاميرا الخفية.
- إذا كنت ترغبين بشيء أخفّ عياراً، يمكنك تجربة مقلب الخمسة دولارات، سهل للغاية: تضعين ورقة نقدية بقيمة خمسة دولارات على الرصيف، وتربطينها بخيط صيد، ثمّ تسحبينها عندما يحاول الناس أخذها. أنا أعطيك خمسة دولارات. سترين، إنّه مضحك جداً.

- آه، هذا يذكّرني بحيلة البصمة.
- لا أعرفها.
- حقّاً؟ إنّها مضحكة للغاية. تبولين في سروالك الداخلي، ثمّ تجلسين على الرصيف لطبع بصمة ردفيك. وتواصلين التنقّل إلى أن يجفّ البول.
- آه! فظيعة! ولديك دائماً المقلب الكلاسيكي لكيس الورق البنّي.
- مقلب كيس الورق...
- تتغوّطين في كيس ورقيّ، ثمّ تضعينه أمام باب شخص تكرهينه، شخص يسبّب لك الإزعاج، باستثنائنا، حتّى لو كنت أزعجك، وقبل أن ترنّي الجرس، تضرمين النار بالكيس، وهكذا سيحاول من يفتح الباب إطفائه بالقفز عليه، فتنتشر القذارة في كلّ مكان!
- المشكلة أن تكون لديك رغبة في التغوّط.
- نعم هذا لبّ المشكلة، في الواقع.
- بواسطة قلم عريض أسود وأبيض، كنّا نعدّل اللافتات، فنغيّر أسماء الشوارع، نزيد أو ننقص منها أحرفاً، كما نحوّل الأسهم الكبيرة التي تشير إلى اتّجاه واحد إلى أشكال بذيئة. مجرّد بعض التعديلات الصغيرة هنا وهناك.
- حسناً، أنتما معتوهتان.
- لكن انتظري، لدينا كمّ من الأفكار! الضفادع! يمكنك أن تجعلي الضفادع تدخّن سيجارة، ستدهشك عندما تنفجر!
- أنا ذاهبة إلى نويمي.

- هاه! هذا جيّد، لكنّنا رافقناك لرمي البيض...

مرّت لوري من أمامنا مسرعة، بسروالها القطنيّ الضيّق.

- لكن إلى أين أنت ذاهبة؟

- إلى أيّ مكان.

- أذكّرك أنّك محرومة من الخروج!

- أفّ!!!

اهتزّت الأكواب في الخزانة عندما أغلق الباب بعنف. وقفت كلودين بهدوء، وتناولت هاتفها الخلوي، ثمّ فتّشت جهات اتّصالها بحثاً عن رقم.

- صباح الخير، أرغب في تجميد أحد الأرقام التابعة لي... أجل... لديّ خطّ تستخدمه ابنتي وأريد تجميده بشكل عاجل... أجل، الرقم... كلودين بولان. هل يمكنك تجميده من دون حضوري؟ نعم، إلى أجل غير مسمّى... نعم... السبب؟ هل لديكم خيارات؟ قلّة تهذيب، وقاحة... نزاع؟ أجل، هذا مناسب...

أغلقت الخطّ في اللحظة التي مرّت بها آديل مسرعة في المطبخ، حاملة حقيبة صغيرة على كتفها.

- أخبرينا يا حبيبتي إذا احتجتِ إلى مزيد من الأفكار.

وصُفق الباب مجدّداً. فركت كلودين يديها بحماسة.

- تعالي لنخرج.

- إلى أين؟

- إلى أيّ مكان، المهمّ ألّا نبقى هنا.

- لقد أكثرنا من الشراب، لا يمكننا القيادة.

– ثمّة ملهى صغير في الجوار.
– ألم نكبر على هذا النوع من الأماكن؟
– على الإطلاق، روّاده أشخاص مثلنا.
– حسناً، لا تنسي هاتفك.
– لن آخذه معي، تبّاً.

كانت السيّدة التي تقطن في المنزل المجاور تنادي قطّتها عندما خرجنا: «مينو، مينو، مينو، تعالي يا صغيرتي، تعالي إلى هنا، هيّا، هيّا يا طفلتي، مينو، مينو، مينو! ماما تناديكِ!». من شأن الوحدة أن تفعل ذلك. جسدياً، كانت امرأة مثلنا جميعاً.



– أعرف بماذا تفكّرين.
– بماذا؟
– بالفتاتين.
– كلّا، لا أفكّر فيهما. أنا أفهم ما يجري، إنّهما مراهقتان وقد مرّت ابنتاي بهذه المرحلة.

مع ذلك، فإنّ المناكفات الصغيرة التي كنتُ شاهدة عليها للتوّ جعلتني أرغب في الاتّصال بجاك لأشكره على انتظار رحيل الأولاد قبل أن يرميني مثل جورب قديم.

– الفتاتان في حالة بائسة. فوضعنا يثير غضبهما، منزلان في مدينتين.
– هل هما كذلك مع فيليب أيضاً؟
– أظنّ ذلك. في الأسبوع الفائت قال للوري إنّها إن لم تغيّر سلوكها مع عشيقته الشقراء الجديدة، فإنّه لن يتردّد في الاختيار بينهما.

– هل قال ذلك حقاً؟

– لا بل إنّ هذا الرجل صاحب التناقضات أكّد لي ذلك، كما يمكنك أن تتخيّلي. فقد حذّرني من أنّه «يتّخذ الإجراءات» للتخلّص منها، ريثما «تتعلّم العيش». ولم يخطر بباله أنّه مسؤول عن تعليمها كيفيّة العيش، ذاك الوغد. كلّا، السيّد لم يعد يريد رؤيتها ببساطة.

– لكنّه لا يستطيع فعل ذلك!

– أوه، بلى، ما يريده فيليب يحدث.

– وماذا عنك؟

– وهل بيدي حيلة؟ هل أخبرها أنني لا أريد رؤيتها أنا أيضاً؟ وأعطيها بذلك سبباً إضافياً لكي تكرهني؟ كلّا، سأعتني بالاثنتين. لدى والدها، يتعيّن عليها أن تكون دائماً بمزاج حسن، وأن تؤدّي دور الطفلة السعيدة في منزل جديد. لكنّه لم يتوقّع في خططه أنّ الأولاد قد يسبّبون المشاكل. فهو لا يلام على شيء، بالنسبة إليه، الحياة بألف خير.

– وهل ستذهب آديل بمفردها إلى منزل والدها؟

– أوه! هذا سيفاجئني. على أيّ حال، عندما يعرف فيليب أنّ المدرسة على وشك طردها، أنا واثقة أنّه سيجد لها العقاب المناسب، شيء من قبيل «سأطردك أنا أيضاً، ولكن هذا لصالحك يا ابنتي. ستعودين عندما يصبح سلوكك مُرضياً».

– وما المشكلة مع المدرسة؟

– آديل فوضويّة بقدر ما أنّ لوري وقحة. وبعد الرسوب الثالث، فإنّ المدرسة تطرد الطالب، ما لم يكن الأهل قادرين على

التبرّع بمبلغ كبير لفريق كرة القدم.

– ربّاه!

كان الملهى مكتظّاً بروّاده الجالسين لتناول الشراب. ساد هناك جوّ ثقيل. فقد اختلطت روائح الأجساد بروائح السوائل المخمّرة التي كانوا يرتشفونها في جرعات صغيرة لتخفيف معاناة الأسبوع الذي انتهى للتوّ.

جلسنا إلى البار، الذي كانت تروح وتجيء خلفه فتاة كعارضات الأزياء يعلو وجهها العبوس وشاب موشوم طويل الشعر. ينبغي العودة إلى الثمانينيات لرؤية الموضة تفرض نفسها باستبداد إلى هذا الحدّ. وما من شيء، على الإطلاق، يشبه ذراعاً موشومة سوى ذراع أخرى موشومة.

عكست المرآة الكبيرة أمامنا الناس الجالسين خلفنا. كانوا أصغر منّا بقليل، لا بل إلى حدّ كبير، على عكس ما قالت كلودين، التي أدرجت ضمن وصف «مثلنا» كلّ من هم في سنّ تناول الشراب لإغرائي بالمجيء.

عندما أتى إلينا النادل أخيراً، رفع ذقنه الملتحية نحونا بحركة صغيرة وحادّة، كانت على ما أظنّ اختصاراً لـ: «مساء الخير، أيّتها السيّدتان، كيف حالكما؟ ماذا يمكنني أن أقدّم لكما؟» لم يعد أحد يخوض في اللياقات الاجتماعية اليوم، فالوقت ثمين. رفعت كلودين إصبعين وقالت «أبيض» من دون أن تبتسم. جواب عملي.

أعدنا صناعة العالم عدّة مرّات، وملأنا كؤوسنا بالقدر نفسه ونحن ندوّر سبّابتنا في الهواء بما معناه، «أعد ملأها» أيّها البطل، وضعنا عدّة مشاريع قوانين غير ثورية، وتحدّثنا بكثرة عن زوجَينا

السابقَين، وسوّينا حسابات زميلين أو ثلاثة غير أكفاء تماماً، ووضعنا أسس فكر فلسفي جديد وكمالي – مناهض للهايدغرية – كما بكينا أحياناً بهدوء على حياتنا المخيّبة للآمال على نحو رهيب.

ككلّ ليلة منذ رحيل جاك، تلقّيت رسالة نصّية من أنطوان للتأكّد من أنّني بخير. وهذه المرّة لم أكذب: «أنا عظيمة، يا عزيزي. أنا مع كلودين. قبلاتي، ماما». أعرف أنّه لا ينبغي أن أوقّع رسائلي إليه، لكنّني أحبّ كتابة كلمة «ماما».

تأخّرت قليلاً للذهاب إلى الحمّام، لدرجة أنّني عندما وقفت على قدميّ، خشيت ألّا أتمكّن من كبح نفسي. استجمعت العدد القليل من الخلايا العصبية التي لم تتأثّر بالشراب، لأجد الشجاعة للذهاب والوقوف في الصفّ الذي تشكّل أمام حمّام الفتيات. انتظرت بصبر، وشددت كلّ عضلاتي العاصرة قدر الإمكان لكي لا أعيش هناك، في هذه الحانة المزدحمة للغاية، إذلال تبليل سروالي.

عندما حان دوري، هُرعت إلى الحمّام متظاهرة أنّه لا داعي للعجلة. لم يستغرق الأمر أكثر من ثانية ونصف لأظهر للفتيات أنّ نساء سنّي قادرات على السيطرة على الوضع. غير أنّني لم أر الكومة الكبيرة من القذارة والأوراق التي تسدّ المرحاض إلّا عندما وضعت مؤخّرتي على المرحاض. ولم يكن لديّ الخيار سوى إضافة لمستي الخاصّة، إذ كان قد أصبح من المستحيل أن أكبح نفسي. غير أنّني رفعت ردفيّ قليلاً لكي لا أتلوّث بالرذاذ. ولو أنّني قضيت حاجتي في حقل مهجور، لكان أفضل.

خرجتُ كسابقاتي، كأنّ شيئاً لم يكن، مخفيةً جريمتي بتجنّب نظرات الأخريات. فنظراً لكمّية الأوراق المتراكمة هناك، كان واضحاً

أنّني لست مصدر المشكلة. غير أنّني اكتفيت في زيادتها سوءاً، وهذا عموماً ليس خطأً فعليّاً، ولا عذراً أيضاً.

عندما عدت إلى مكاني، انفجرت بالضحك وأنا أخبر كلودين القصّة.

– تبّاً، من الذي سيزيل هذا الانسداد؟

– بالنظر إلى سماكته، سيحتاج إلى فأس!

رنّ هاتفي، لكنّني لم أعرف الاسم المعروض.

– لا أعرف من المتّصل، لن أردّ.

– هذا ما أفعله أنا أيضاً.

– لهذا السبب لم تعد تُستخدم الاتّصالات الهاتفية.

بعد الرنّة الخامسة، فتحتُ المكالمة، وأنا على استعداد لصدّ هذا المتّصل اللجوج.

– نعم؟

– أين أنتما؟

– من معي؟

– لوري.

– لوري؟

صفعت كلودين جبهتها.

– أوه، كلّا! لا شكّ أنّ الأميرة الصغيرة غاضبة للغاية.

– أين أنتما؟

– خرجنا لتناول شراب.

– أين؟

– عند تي–لويس.

– كلّا! هل تمزحين؟!
ثمّ أغلقَت الخطّ.
– أنا آسفة.
– ستلحق بنا قريباً، أؤكّد لك ذلك! لم يعد بإمكانها استعمال الهاتف مساء الجمعة، يا للخسارة...
– هل ستأتي إلى هنا؟
– بكم تراهنين؟
– لا شكّ أنّها قلقة وحسب، فنحن لم نخبر أحداً بمكاننا.
– هاه هاه! حتماً قلقة!
كانت كلودين لا تزال تضحك عندما رأيت انعكاس لوري على مرآة البار.
– آه! لدينا زائرة.
طارت إلينا عمليّاً، واجتازت الحشد مثل سبّاحة آلية. أخيراً، وقفت جامدة أمام أمّها. ألقيت نظرة على يديها لأتأكّد من أنّها لا تخفي أشياء حادّة كالطوب أو عصا.
– كان بإمكانك أخذ هاتفك.
– لم أكن راغبة في التعرّض للإزعاج. أنت ممنوعة من الخروج، كما تعرفين.
لم تكن كلودين تتكلّم بقدرما كانت تمضغ الكلام بفمها الناعم. في هذا الوقت، ارتسمت على وجهي ابتسامة حمقاء سعيدة لأظهر للوري أنّني مع والدتها، في القارب نفسه، متورّطة بالجريمة نفسها.
– علينا العودة يا أمّي.
– لا لا! أنا باقية هنا، فما من أحد يزعجني في هذا المكان، أنا

بخير.

– أمّي، تعالي من فضلك.

تمسّكت كلودين بكأسها. كانت العاصفة وشيكة، فقد بدأت تباشيرها بالظهور. لامس الشراب الذهبي أطراف الكوب وهو يدور في دوّامة.

– ألستِ غاضبة بسبب هاتفك أيّتها الصغيرة؟

– شقيقك يريد التحدّث إليك.

– شقيقي؟ السيّد العظيم؟ لا شكّ أنّه في ورطة!

– هيّا.

– هل كلّمك؟

– هيّا.

– أخبريني بما جرى أوّلاً.

– ليس هنا.

– إذاً لن أتحرّك من مكاني.

– والدك مات.

لم تتحدّث كلودين مع والدها منذ طلاقها. فبرأيه، كان كلّ الذنب ذنبها هي. ذلك أنّ منطقه الرجولي المتعنّت يعتبر المرأة هي المسؤولة دوماً عن تفكّك الأسرة. كان رجلاً من جيل آخر، يتمسّك بأفكار قائمة على القدرة المطلقة للذكر، ولا يرى كم أنّ فكره ما زال سجين العصور الوسطى، بل على العكس من ذلك، لم يكن يفوّت الفرصة للتعبير عن رأيه، وصولاً إلى حدّ القول إنّ أخطاء الرجال تفسّرها الطبيعة، التي تدفعهم إلى التكاثر حتّى النهاية، على عكس النساء، اللواتي يذبلن قبل وقت طويل من موتهن، وهذا ما ينقذهنّ

من عذاب الشهوة. بالتالي، كان رجلاً لطيف المعشر وعالِماً بيولوجياً كبيراً بالفطرة. بالرغم من كلّ ذلك، كان والدَها. غير أنّ مزيج الحبّ والكراهية لا يختلط جيّداً مع الكحول.

– ذلك العجوز مصرّ على تكدير حياتي حتّى النهاية.

شقيقها أندريه نموذج فريد هو الآخر، لكن من نوع مختلف. فقد كان خبيراً بالتلاعب بالناس، ويعاني من عدد لا يحصى من الأمراض الخفيّة: جنون العظمة، والنرجسية، وعقدة الإله، وهوس الأساطير، والكوميديا الحادّة، وتبذير المال، والكذب القهري، إلخ. وقد أنقذته كلودين عدّة مرّات من مشاكل متعلّقة بالديون، غير أنّها اضطرّت في النهاية لتركه لمصيره لكي لا تغرق معه. لكن بما أنّ الموت يجلب أكلة الجيف، فقد عاد من جديد.

عدنا إلى المنزل تحت المطر الغزير، بخطى بطيئة، من دون مقاومة الماء الذي سطّح كلّ ما طاله، المعنويات، والشعر، والملابس. لم تتفوّه لوري بكلمة واحدة عن هاتفها، بل أمسكت بذراع والدتها لتمشي معها. ربّما ستنقضي فترة المراهقة في النهاية. لدينا الحقّ في أن نحلم بذلك.

9

وأنا أصرخ مثل روكي، «شارليييين!»

أرادت الجميلة شارلين عشيقة زوجي جاك أن تقابلني، لكي نتحدّث كامرأتين، وما إلى ذلك. أرادت أن تقدّم لي عرضها التكفيري. فالسينما والأدب حافلة بمشاهد جلد الذات التي تحاول فيها العشيقة الماكرة، ورائعة الجمال، والشابّة، والتي تتّسم دائماً بقدر من الغباء، وذلك من خلال اعترافات صادقة بقدر ثدييها المزيّفَين، نيل مغفرة المرأة المهجورة، لتبرئة ضميرها والاستمتاع أخيراً بالزبدة، ومال الزبدة، وصانع الزبدة. كانت تتمنّى بالتأكيد أن أدرك، عبر الإصغاء إليها، أنّ الذنب لم يكن ذنبها، وأنّهما استسلما لشيء أكبر منهما، جمعهما في تكافل خيميائي يتجاوز، لا بل يلغي، كلّ العهود الماضية. لكن كان من المستحيل أن تسير الأمور على هذا النحو. فهي لا تملك ما فيه الكفاية من المفردات لصياغة أفكار معقّدة، ولستُ مستعدّة لمسامحتها مهما يكن الثمن. وحتّى لو لم أكن أسعى حقّاً إلى الانتقام، إلّا أنّني كنت سعيدة للتمكّن على الأقلّ من تحميلهما، ولو في الجيب الخلفي لضميريهما، بعضاً من كراهيتي وألمي.

وافقتُ على مقابلة شارلين لأنّها همست بحلاوة على الهاتف أنّها لم تخبر جاك بالأمر، لأنّه لن يسمح لها إطلاقاً. «سرّي للغاية»،

هكـذا قالـت بلكنتهـا الإنكليزية. إذاً، ها قد أتيحت لي الفرصة لخيانة جـاك مـع عشـيقته – مـن دون اتّصـال جسـدي تقريباً. فقـد أملتُ أن تخبرنـي بأمـور لـن أتمكّـن من معرفتها بطريقة أخرى. كانت بالنسـبة إليّ فرصة لدراسة الإعصار من الداخل.

❀ أسـرار شارلين ❀

لـم تنتعـل كعبيهـا العاليين أو تضع وشـاحها الصغير على طراز بـاردو، بـل اكتفـت بملابـس قطنيّة لكي أشـعر من البدايـة أنّها قادمة كصديقة وأنّه يمكنني، إذا أردت، أن أسخر منها قليلاً. وأعترف أنّني وجدتُ في هذا السلوك كريماً من جانبها. فقد توقّعت منها المجيء بملابس المكتب – بالبدلة الرسـمية مع حذاء متناسـق، ومجوهرات أنيقـة – لكنّهـا اختـارت بدلاً مـن ذلك أن تلعب بطاقة الطلّة الطبيعية، بملابـس قطنيـة رماديـة، وصندل قبيح، وبشـرة كئيبـة خالية تماماً من مسـاحيق التجميـل. مـن الصعب للغاية مهاجمة شـخص ما بملابس قطنيّة، إذ يبدو أنّه شـبه منبطح أرضاً في الأسـاس. وعلى المحضرين وضبـاط مواقف السـيارات التفكير بجدّية في هذا النوع من الملابس.

كنـت قـد دعوتهـا إلـى المنـزل، للجلـوس علـى الشـرفة، حتّى تتمكّـن مـن البـكاء براحتهـا – فهـذا محرج في المطاعـم – وتخبرَني بحرّية بسـخافاتها. وبما أنّ المطر هطل في الليلة الفائتة، فقد جفّفت كرسـيّين. عندما وصلت، بالطبع، قدّمت لها عن طريق الخطأ كرسـيّاً ثالثـاً، هـو الأكثـر بللاً. ومع أنّها لم تكن ترتدي البنطال الكتاني البيج الـذي حلمـتُ بـه، إلّا أنّ ذلـك لـم يمنع من تكوّن دائـرة داكنة لطيفة التصقت بردفيها، اللذين بدوا مشدودَين، حتّى تحت القماش القطني.

تمتمتُ باعتذار، وقدّمت هذه المرّة الكرسيّ المناسب. كانت لاعبة جيّد، إذ بادرت فوراً بالمجاملات الصادقة.

– منزلك جميل!

– شكراً.

– تصميم الباحة رائع.

– آه، إنّه جاك! لا بدّ أنّه سيقوم بترتيب شيء لطيف في منزلكما.

– والشرفة الجميلة التي تملكانها هنا!

– التي أملكها، أملكها!

– نعم، نعم، أنا آسفة.

– أحد أصدقاء جاك هو الذي نفّذها، السيّد نيليغان.

– آه! سأحفظ الاسم.

خسيسة. أردت على الفور أن ألقي بمحتويات إبريق الماء الذي وضعته بعناية على المنضدة – بدون كأس، بالطبع، لأنّني خطّطتُ لرميها به. لكنّ كلّ السرور الذي منحتني إيّاه الفكرة قبل وصولها تلاشى بسبب هندامها غير الأنيق. حتّى إنّه بدا لي من غير المعقول إهدار لترين من المياه العذبة من دون نيل فرصة إفساد تسريحة شعر، أو ملابس جلديّة، أو زينة وجه متقنة.

– أفّ... لو تعرفين كم يكلّفني مجيئي لرؤيتك اليوم...

وسرعان ما انهمرت الدموع. فتحت عينيها متظاهرة بتجفيف دموعها عن طريق التلويح بيدها. هذا مبهر. كانت شارلين دوغال تبكي بلا سبب في فناء منزلي الجميل، وهو مشهد رغبت فيه بقدر ما اشتهيت قطعة جامبون بالأناناس. غير أنّني حرصت على عدم وضع يد مشفقة على كتفها، خشية أن أخنقها.

– قلتِ إنّ حديثنا لن يتجاوز نصف ساعة من الوقت يا شارلين، لذا عليك الاستمرار.

– أوه... أنا آسفة، أجل، المعذرة. كنت... كنت أريد أن أقول إنّني أفهمك، فأنا لم أرغب في حدوث ذلك، وما تعيشينه، سبق أن مررت به...

ما عاشته لا يهمّني، بل يناسب ربّما أغاني فرانسيس كابريل. أردت أن أعرف ما يحدث معهما الآن، وما هي مخطّطاتهما. فجاك يتحوّل إلى سمكة لزجة عندما أحاول معرفة نواياه. إذ يتكلّم عن كلّ الأمور بطريقة مراوغة، تحت ستار غموض مزعج بدا لي وسيلة لكسب الوقت، بقدر ما كان يهدف إلى عدم تعذيبي. لم أستطع أن أخفي تلك الحقيقة عن نفسي، لكن تحت طبقات المرارة التي تراكمت بداخلي، ما زال ثمّة شيء من الأمل القديم، من ذاك النوع الذي يمنح الإنسان الشجاعة عند حافّة الهاوية، يجعلني أتمنّى عودة جاك. كان بالطبع شكلاً من أشكال الإنكار من أجل البقاء على قيد الحياة، والذي، على الرغم من الحماية التي وفّرها لي، إلّا أنّني شعرت بطبيعته المثيرة للسخرية.

– يهمّني أن تعرفي... أنّني... لم أسعَ إلى حدوث ذلك...

وما إلى ذلك من هراء.

وهنا عرفتُ المزيد عن قصّتهما من خلال سلسلة من الجمل المبلّلة بالدموع، والمقطّعة إلى كلمات هي بالكاد مفهومة، أتاحت لي مع ذلك إعادة بناء الحقائق، بكل حتميّتها: صدفة، لحظة ضعف، حفل كوكتيل، مؤتمر، أيادٍ، إرباك، دهشة، إحساس بالذنب، كلّا، نعم، ربّما، قلب، زواج، حبّ، وهم (أم نَهَم، لم أفهم تماماً تلك الكلمة)،

احترام، حياة، حبّ من النظرة الأولى، كيمياء، (الكيمياء اللعينة!)، كلّها تتخلّلها عبارة «تعلمين» المقصود بها على الأرجح إضفاء لمسة من الإنسانيّة على روايتها المثيرة للشفقة. باختصار، كانت عشيقة جاك قبل فترة من انفصالنا، تماماً كما شككت، شكراً جزيلاً.

بما أنّ أنفها لم يكفّ عن الاحتقان، الأمر الذي أعاق عليها دخول وخروج الهواء، وبما أنّني لم أساعدها بأيّ شكل من الأشكال، فقد أعلنت في النهاية عن رغبتها في الذهاب إلى الحمّام. غطّت وجهها بيدها، وأشارت إليّ باليد الأخرى لكي أبقى جالسة، ففعلت بكلّ سرور. دخلت المنزل، واستدارت يساراً من دون تردّد، كما لو كانت في بيتها. حاولت قمع السيناريوهات التي راحت تختمر في رأسي – لقد سبق وأتت إلى منزلي، الخسيسة! – للتركيز على متعة تخيّلها في الحمّام، محرومة تماماً من المناديل. فقد حرصتُ على إزالة ورق التواليت من الحمّامَين، فضلاً عن المناديل، والمناشف، والقطن، وأيّ شكل آخر من أشكال الفوط التي يمكن استخدامها لمسح الدموع، أو إفرازات الأنف، أو البول، أو حتّى البراز. ولا أعتقد أنّها ستذهب إلى حدّ تنظيف نفسها بالباب الزجاجي لحجرة الاستحمام. لا شكّ أنّ القطرات الأخيرة – أو أيّاً يكن ما يخرج من جسدها – سيبقى في سروالها الداخلي. لحسن الحظّ، وبسبب إرباكها، تركت حقيبتها بالقرب من كرسيّها الجاف، لذلك لن تتمكّن من استعمال مناديل الطوارئ الصغيرة.

عندما ظهرت ثانية، بدت أنّها أفضل حالاً، غير أنّ الوقت غدرها فجأة ولم تعد قادرة على مواصلة حديثنا الذي طال انتظاره.

– من الأفضل أن أذهب.

– حقاً؟ بالكاد تسنّى لنا الوقت للكلام.

– أنا مضطرّة للذهاب.

أزعجني كلّ شيء في استعجالها، نظراتها الهاربة، ولهجتها المتشنّجة، والعنف الذي حاولَت يداها به تسوية ملابسها. من الواضح أنّ ارتداء الملابس القطنية لم يكن من عادتها. لم أستطع أن أعرف بأيّ جزء من ملابسها نفخت أنفها، ما لم تفعل ذلك في المغسلة، قبل أن تغسل الأثر بالماء. من الجيّد أنّها فكّرت في المغادرة، فأنا لن أتمكّن من منع نفسي من إيذائها لفترة أطول. لقد كرهتها بشدّة، ليس بسبب الزوج الذي سرقته بل لرغبتها، من خلال المجيء لمقابلتي، في التخلّص من الإحساس بالذنب الذي يلقي بظلاله على سعادتها الجديدة، كما لو أنّها نسيت أنّ ذلك الأمر يرتبط مباشرة ببؤسي. لقد أخذت منّي كلّ شيء، لكنّها تريدني أيضاً أن أمنحها السلام الداخلي، مستعينة بقليل من الدموع والصدق الزائف. فلتذهب إلى الجحيم هي وصدقها.

– هل سبق وأتيتِ كثيراً إلى هنا؟

– هنا؟ ماذا تعنين؟

– هنا، منزلي، الذي كان منزلنا في ما مضى. إلى منزلي، الذي كان منزلنا...

– بالطبع لا! ما الذي تتحدّثين عنه؟

– أنت تعرفين اتّجاه الحمّام.

– لكن... الأمر ليس بهذا التعقيد، فجميع المنازل تتشابه.

– كلّا، على الإطلاق.

– بلى، إلى حدّ ما.

– لكنّك لم تتردّدي ولو لثانية واحدة.

– حسناً، أعتقد أنّه من الأفضل أن أذهب، فالأمور بدأت تتّخذ منحنىً سيّئاً.

– سأرافقك.

ما إن نهضتُ، حتّى شعرت أنّ هذا هو الوقت الأنسب. يمكن للمقاعد الجلدية البيج لسيّارة الميني كوبر أن ترتوي قليلاً. هكذا، وبحركة واحدة، أفرغتُ إبريق الماء البارد بأكمله على ظهرها، من دون حتّى أن أحاول التظاهر أنّها كانت حادثة. فأطلقَت صرخة مدويّة، قبل أن تفرّ هاربة. لا بدّ أنّها خشيت أن أكون قد أخفيت بعض البيض تحت الطاولة، وقد أسفتُ حقّاً لأنّني لم أفكّر في ذلك.

انطلقت السيّارة مصدرة صريراً عالياً، وارتفعت خلفها سحابة من الغبار. فصرختُ لها بمديح لأختتم به رسميّاً حديثنا الودود: «الملابس القطنية تليق بك!».

بعد ذلك، أغمضتُ عينيّ لأتخيّل بشكل أفضل الانزعاج الذي ستسبّبه لها ملابسها المبلّلة بالماء والبول، والتي ستجعل الجلد الرقيق للمقاعد لزجاً. فهنّأتُ نفسي على حجم الدمار الذي تسبّبتُ به، بقليل من الماء وحسب.

وقفت للحظة أمام المنزل حاملة الإبريق الفارغ بيدي، وقلبي يحتقن بالأدرينالين. كانت مدام نادو، المختبئة جزئيّاً بستارة غرفة المعيشة، تستمتع للغاية بالعرض المرتجل الذي، وإن يكن رديئاً، إلّا أنّه امتاز على الأقلّ بسحر الواقع. لم تردّ لي التحيّة، لكي لا تؤكّد وجودها. لذلك، من أجلها ومن أجل جميع المعجبين السرّيين المتربّصين خلف نوافذ أو أبواب منازلهم الصغيرة الأنيقة، هتفتُ

بصوت عالٍ: «هذه عشيقة زوجي، شارليييين! هي التي تركني جاك من أجلها! لا بأس بتلك الخسيسة، هاه؟».

انتظرتُ ردّ فعل لم يأت، وكان ذلك متوقَعاً. بدا لي يوماً مناسباً لتجربة لوازم الجري باهظة الثمن التي اشتريتُها. فقد كنت مجهّزة بحذاء رياضي، وقلب مليء بالغضب. أمّا الباقي، فسيتبع بشكل طبيعي.

10

وأنا أحاول الجري

بعد رحيل شارلين، مدفوعة بثورتي الصغيرة، ارتديت زيّ عدّاءة محترفة، باستثناء الساعة المزوّدة بجهاز تحديد المواقع («سأفكّر في الأمر»، هكذا قلت لكريم)، وذهبت إلى المتنزه لممارسة أوّل تمرين جري منذ أن كنت في الصفّ الرابع ثانوي. كنت قد حرصت على قراءة بعض النصائح الأساسيّة على الإنترنت خلال الأسبوع. سيكون كلّ شيء على ما يرام، يكفي أن أبدأ ببطء، وألّا أضغط على نفسي، وأن أشرب الماء. سأستعيد لياقتي وأصفّي رأسي في آن واحد.

بعد مائتي أو ثلاثمائة ياردة، من الصعب التأكيد (تمنّيت حقّاً لو أنّني اشتريت ساعة جي بي إس)، شعرت بطعنة ألم في جانبي الأيسر، مثل كلّ مرّة ركضت فيها في المدرسة الثانوية (في الكلّية، تلقّيت دروساً في الاسترخاء والمبارزة). واصلت الجري وأنا آخذ أنفاساً عميقة، فالألم سينقضي في النهاية، هذا ما قرأته. قبل أن أصل إلى وحدات اللعب الخاصّة بالأطفال، شعرتُ بألم آخر في جانبي الأيمن، وكان أقوى وأكثر إيلاماً. أبطأت من سرعتي من دون أن أتوقّف، وأنا أمسك بجسدي بكلتا يديّ، وأضغط بكلّ ما أوتيت من قوّة على العُقَد لكي تختفي. إذا أخذت أنفاساً عميقة، فسوف يزول الألم، هذا ما قرأته.

كانت نافورة المياه على مرمى بصري، عندما شعرت أنّ قفصي الصدري على وشك أن ينفتح ويحرّر أحشائي التي تستغيث ألماً. تسارع نبضي على نحو غير طبيعي، ورحتُ أصفر من أنفي، وأتعرّق من كلّ فتحات جسدي، كما شعرت بخدر في قدميّ ويديّ. باختصار، كنت أعاني من كلّ علامات الموت الوشيك. عندما تذكّرت أنّني لم أحدّث وصيّتي منذ رحيل جاك، توقّفتُ في مكاني.

– تبّاً! لن ينال السيّد مالي بهذه السهولة، مستحيل! أفضّل أن أبقى مترهّلة! واللعنة على الأربعمائة دولار ثمن لوازم الجري!

لاحظتُ أنّ الشابّات الآتيات نحوي انحرفن للسير على العشب لتجنّبي. كنت سأفعل الشيء نفسه لو رأيت أمامي امرأة مجنونة بعينين محتقنتين بالدماء تتحدّث إلى نفسها، فهذا أمر مقلق، بغضّ النظر عن الزمان والمكان.

لا شكّ أنّني كنت أتصبّب عرقاً، كما كنت في غاية الغضب. فجسدي يعاندني، في حين أنّني لا أريد له سوى الخير. فأنا أحاول التعويض عن الوقت الضائع وإعطائه فرصة ليكون مرغوباً من جديد. كم هو ناكر للجميل.

رفعتُ إصبعي للستائر التي تحرّكت عند مروري، وبدأت العمل على الفور عندما عدت إلى المنزل. فتخلّصتُ من بعض الأثاث، لا سيّما ما يخصّ منه جاك، وذلك من نافذة الطابق الثاني، على شكل أجزاء منفصلة، وكلّ همّي أن أمنح المنزل مساحة للتنفّس. فالغرف، كالأجسام، تحتاج إلى الأكسجين. واستفدت من زخمي للاتّصال بالتحرّي الذي نصحتني به كلودين.

بعد ذلك بقليل، وصلت شارلوت مذعورة بعض الشيء.

- أمّي؟ أنت هنا! ماذا تفعلين؟
- آه! أهلاً! يا لها من مفاجأة! أنا أنظّف قليلاً.
- أمّي، عليك أن تكفّي عن تدمير المنزل...
- المكان هنا مزدحم جدّاً.
- يمكننا وهب الأثاث لشخص ما، أو وضع إعلان عنه وسيختفي على الفور.
- حسناً، سأتوقّف. كنت بحاجة إلى تحريك جسدي قليلاً.
- هل ذهبتِ للجري؟
- ليس تماماً، لم أنجح في ذلك.
- عليك أن تبدأي بالتبديل بين المشي والجري.
- آه.
- هل حاولتِ الجري هكذا؟
- نوعاً ما.
- دعينا نحدّد موعداً هذا الأسبوع، سآتي للجري معك.
- لكنّني لا أظنّ أنّ الأمر سينجح يا صغيرتي.
- بلى، بإمكان أيّ كان أن يمارس رياضة الجري. سأضع لك برنامجاً صغيراً.
- هل كنتِ في الجوار؟
- كلّا، بل اتّصل بي والدي.
- والدك؟
- أتت شارلين وهي في حالة يرثى لها.
- آه! في الواقع... اقتصر الأمر على قليل من الماء.

– أمّي...
– سقط الإبريق منّي.
– حاول الجميع الاتّصال بك.
– لماذا؟
– كنّا قلقين عليك.
– ولكن، لا داعي للقلق...
– حتّى والدي.
– حقّاً! هو!
– لم يكن مسروراً عندما علم أنّ شارلين أتت لرؤيتك.
– أنا التي سمحتُ لها بالمجيء، تلك الغبيّة.
– ليست غبيّة، بل فضولية، وهذا طبيعي.
– أنت بملابس غير رسمية لتثير شفقتي.

عندما وضعت شارلوت يدها على ذراعي، ترقرقت الدموع في عينيّ وتدحرجت على منصّة وجنتيّ قبل أن تقوم بالقفزة الكبيرة. لم أكن أبكي، بل كان رأسي يدور بسبب كثرة الضغوط التي لم أعد قادرة على احتمالها.

– لكن ماذا عنك، كيف حالك يا حبيبتي؟ نحن لا نتحدّث سوى عنّي.
– أنا بخير.
– حقّاً؟ هل من شيء في الأجواء؟
– لقد عاد دوم إلى الصورة مجدّداً.
– ها أنت جادّة؟ ممتاز! كنت أعرف أنّه سيعود! ألم أقل لك ذلك؟

– أعرف.

– وماذا ستفعلين؟

– لا أدري، أعتقد أنّني سأتركه يتعذّب قليلاً.

– قليلاً فقط.

– أجل قليلاً.

– ما زلتِ تحبّينه، لذا لا تخسريه.

– يقول أبي إنّ العودة إلى الشريك السابق أشبه بارتداء جوارب قذرة.

حاولتُ ألّا أركّز كثيراً على حقيقة أنّني أنا الجوارب القذرة في مقارنته. مع ذلك، وكإجراء احترازي، وضعتُ من يدي الصولجان الذي كنت لا أزال أحمله.

– أخبريه أنّ الجوارب القذرة يمكن غسلها.

جاك لم يحبّ دومينيك أبداً، فهو فنّان بوهيمي إلى حدّ ما ولا يشاركه قيمه. إذ يتبنّى دومينيك نسخة مقلوبة رأساً على عقب لهرم ماسلو، وهذا أمر مزعج جدّاً بالنسبة إلى مهندس واقعي مثل جاك. بلا مهنة «نبيلة» وبلا نقود، لا يمكن لدومينيك أن يرتقي في عينيّ جواربي القذرة، أي زوجي السابق.

– لا تخبري جدّتك، وإلاّ ألقت عليك خطاباً مطوّلاً عن الرجل المثالي.

– هل تريدين أن تسمعي خبراً يفرحك؟

– بالتأكيد.

– جدّتي تكره شارلين.

– حسناً، إنّها تتحسّن مع تقدّمها في السنّ.

11

وأنا أبحث عن متجر الحيوانات

- ضعيفة؟
- أجل، لكن يصعب عليّ الوصف، كأنّني نسيت كيف تجري الأمور.
- عمّ تتحدّثين؟
- ينتابني إحساس أنّني لم أعد أمّاً صالحة.
- لماذا؟
- أشعر أنّني أقلّ صلابة وثقة بالنفس، مثل كرسيّ بثلاثة أرجل.

رفعت حاجبيها عالياً، ككلّ مرّة تدعوني فيها إلى مواصلة الكلام.

- عندما كانت شارلوت صغيرة، ربّما في الثالثة أو الرابعة من العمر، عانت من نوبات قلق كبيرة بالنسبة إلى طفلة في سنّها. بدأ الأمر مع متجر الحيوانات. كنّا عائدتين في إحدى الأمسيات في السيّارة، عندما بدأت فجأة بالبكاء، من دون سبب. نظرتُ إليها عبر المرآة، وكانت في كرسيّ الأطفال، ويداها الصغيرتان على عينيها. سألتها عمّا يجري، فأجابت أنّها لا تعرف أين يقع متجر الحيوانات. قلت، ولماذا تريدين معرفة ذلك يا حبيبتي؟ أجابت، لأنّني أريد شراء هرّ عندما أكبر. قلت، حسناً، أنا أعرف أين يقع متجر الحيوانات،

وسأخبرك. كانت شارلوت المسكينة تعشق القطط، وترغب كثيراً في اقتناء واحدة، لكنّ جاك رفض ذلك رفضاً قاطعاً، واحتجّ أنّه يتحسّس من القطط لكي لا يبدو قاسياً. هدأَت قليلاً، وظننت أنّ المسألة انتهت، لكنّها استأنفت البكاء بعد دقيقتين. سألتُها، ماذا يجري يا صغيرتي؟ أجابت، لكن أنا لا أملك سيّارة للذهاب إلى متجر الحيوانات. أجبتها، سأصطحبك بسيّارتي، وسنذهب إلى هناك سوية، يا حبيبتي، سأذهب معك، لا تقلقي، سأكون هناك، أنا لديّ سيّارة، وأعرف أين المتجر، كلّ شيء على ما يرام، لذا كفّي عن البكاء... مع ذلك، استأنفت البكاء مجدّداً. قالت، لكن أمّي، لدينا مقعد واحد للأطفال، وأنا أريد إنجاب طفلين.

– ربّاه!

– في تلك اللحظة، أعترف أنّه كان من الصعب عليّ ألّا أضحك، فقد كانت خطّتها واضحة. قلت لها إنّنا سنشتري مقعداً آخر، وإنّني أعرف من أين نشتريه، وأملك المال لشراء الهرّ والمقعد، وكلّ ما نحتاج إليه، وإنّني أعرف كيف أهتمّ بالقطط، وبالأطفال، وبكثير من الأمور الأخرى. شعرت أنّ كلامي ليس هو ما يهدّئها، بل النبرة التي أتكلّم بها. لا تقلقي يا شارلوت، أنا هنا، سأكون موجودة دائماً، كما أنّني أعرف كلّ ما تحتاجين إلى معرفته. لم أشكّ في ذلك ولو لثانية واحدة.

– هممم.

– كنت أعرف إلى أين أنا ذاهبة، ولماذا أفعل هذا الشيء أو

ذاك، فكلّ شيء كان واضحاً بالنسبة إليّ. كانت لديّ خطّة للتقاعد، ومشاريع سفر، وكنت أعرف تماماً ماذا سنأكل في كلّ يوم من أيّام الأسبوع، وماذا سأزرع في الحديقة في الصيف... أمّا اليوم، فقد انهارت كلّ مخطّطاتي، وأصبحت عاجزة عن التفكير في ما سأفعله في المساء التالي، لم تعد خططي تجدي نفعاً، بل أصبحتُ بحاجة إلى وضع خطط جديدة. لكنّني عاجزة عن ذلك، لا رغبة لديّ. أشعر أنّني أستطيع أن أخلد إلى السرير وأن أنام لعشرة أعوام.

- إنّها مسألة وقت، هذا طبيعي.
- كنت أريد أن أكون أمّاً قوية من أجل أولادي، أردتُ أن يأتوا إلينا لطلب النصيحة، والمواساة، ولأخذ استراحة من مشاكل الحياة، أو القليل من صلصة السباغيتي...
- ولم يعد بإمكانهم فعل ذلك؟
- يبدو أنّ الأدوار انقلبت، وأصبحت أنا الضعيفة، وأنا التي تعاني من الألم، والمصاعب... لم أعد واثقة من شيء، بل أشعر أنّه عليّ أن أبدأ من الصفر، لكنّني لا أعرف من أين أبدأ. لم أعد أعرف حتّى أين يقع متجر الحيوانات.

12

وأنا أحضر مشهداً يليق بمسلسل منطقة الشفق

من ضمن المناسبات العشرة التي أكرهها، تأتي على رأس القائمة، حفلات استقبال المولود الجديد، وحفلات الزفاف، والتعميد، والجنازات.

أقيمت جنازة السيّد بولان على حافة الطريق السريع في ما يشبه القصر المبنيّ من أحجار مزيّفة – كانت الجدران في الواقع عبارة عن هياكل خشبية ثُبّتت عليها بالإسمنت واجهات حجرية مزيّفة. وحفاظاً على التناغم، زُيّن المدخل بنباتات من القماش، على الرغم من الضوء الطبيعي الوافر الذي يغمرها.

في الغرفة ب، تلك المخصّصة لأسرة بولان – «إلى اليمين، في آخر الرواق، بالقرب من الحمّامات، سيّدتي» – شكّلت الأسرة والأصدقاء والغرباء حلقات نقاش صغيرة على الموكيت المزخرف بأنماط دائرية تتدرّج فيها ظلال اللون البنفسجي على نحو يسبّب الدوار. فحاولتُ أن أبقي نظري بمستوى الأكتاف.

كان معظم الناس بأعمار متقدّمة، يرتدون الملابس الداكنة، كما تملي آداب السلوك، باستثناء امرأة واحدة أتت لسبب غامض ببدلة كاملة بلون أخضر زمرّدي لامع مذهل. حتّى إنّها ظلّلت عينيها باللون

نفسه. راحت تضحك وتتحدّث بسعادة، وهي تحرّك ذراعيها بحيوية، بينما تشبّث الآخرون بكؤوس الماء. شكّلَت المرأة بذلك بقعة من البهجة في هذا البحر الرمادي، الأمر الذي دفعني إلى تسجيل بعض الملاحظات الذهنية لترتيباتي الجنائزية: دعوة الناس لارتداء الألوان، وإقامة حفل صغير في حانة ذات أضواء خافتة، ومنع إلقاء الخُطب، وتقديم الشراب الجيّد.

قمتُ بجولة لتعزية أهل الفقيد، الذين أمكن التعرّف إليهم من خلال دبّوس على شكل طائر نورس (؟)، وأنا أردّد عبارة صغيرة: «دايان، صديقة كلودين، تعازيّ الحارّة». جملة كرّرتها أكثر من عشرين مرّة، وكنتُ أعدّل درجة صدقي وتعابير وجهي بحسب مدى الحزن الظاهر على الوجوه. أمّا بالنسبة إلى أندريه ووجهه المنافق، فقد رسمت ابتسامة مزيّفة، مع الحرص على إخراج «تعازيّ الحارّة» من الجملة. فأنا لم أر سبباً لمشاركة أيّ مشاعر معه، بل اكتفيت بابتلاع كلّ الشتائم التي أردتُ أن أكيلها له. وكان هذا كافياً.

التفتّ إلى كلودين، التي كان وجهها منتفخاً من شدّة الحزن، وأحطتُها بذراعيّ، مثل نبتة آكلة للّحوم. أضاف الشجار الأبديّ الذي فرضه عليها موت والدها مزيداً من المرارة إلى مزيج مصائبها اليومية. شكرتني لوري على مجيئي وهي تشدّ على يديّ بقوّة. وبدت لي وكأنّها كبرت فجأة. أمّا آديل، فمن الواضح أنّها لم تلقَ المصير نفسه، إذ جلست بعيداً بعض الشيء، وقد أرهقها الوقوف على ساقيها لمدّة نصف ساعة. لن يكون لها مكان بين شرطة الخيالة الكندية الملكية. بدت والدة كلودين، البالغة من العمر ثلاثة وثمانين عاماً، أفضل حالاً بكثير. أمّا فيليب، وبصفته صهراً سابقاً، فقد وقف في نهاية صفّ أهل

الفقيد، غير أنّي تمكّنت من تجنّبه من دون أن ألفت الانتباه، ولا شكّ أنّه شكرني في نفسه.

بدأت المراسم التي تناوبت فيها الأناشيد، وكلمة الكاهن الذي راح يتحدّث مستعيناً باستعارة مرور الفصول، وخطب أفراد الأسرة. حتّى ذلك الحين، كان كلّ شيء يسير بسلاسة، في جوّ من الملل البالغ، كالعادة. بدأت المتعة مع الخطاب الذي ألقَته شقيقة كلودين، التي تصغرها بعشر سنوات. عدّدت فيه الأمور الرائعة التي علّمها إياها والدها (التزلّج، والتقاط كرة البيسبول، وغسل السيّارة، وتلميع السيّارة، إلخ...)، عندما تردّد صوت أجش عالٍ في وسط القاعة.

– على أيّ حال، الفضل لا يعود إليه...

تردّدت كلير، ثمّ واصلت الكلام، بينما بدأ الناس يهمسون في آذان بعضهم البعض.

– ... صباح كلّ سبت، كنتَ تريني أدواتك في المرآب...

– لو عاد الأمر إليه... لما كنتِ هنا!!!

وقفت امرأة عجوز قصيرة القامة وهي تشير بإصبعها إلى السقف، كما لو أنّها تُشهد الله على كلامها.

– لم يرغب بك!!!

حاول المحيطون بها تهدئتها، وراحت امرأة عجوز أخرى، أقصر قامة منها بعد، كما لو كان ذلك ممكناً، تشدّ كمّها محاوِلة دفعها إلى الجلوس. أخيراً أمسكت شابّة بكتفيها بحزم.

– كفّي عن ذلك سيّدتي، فالوقت ليس مناسباً.

– لا بل إنّه أنسب وقت! فقد مات!!!

– بالضبط، وبالتالي لا جدوى من ذلك.

– كان الرجل بلا قلب! إن لم نقل ذلك الآن، فلن يقال أبداً!!!

حاول عديد من الأشخاص اصطحابها إلى خارج القاعة من دون إزعاجها، وراحوا يدفعونها برفق لإجبارها على اتّخاذ خطوات صغيرة جدّاً في الاتّجاه الصحيح. غير أنّ المرأة العجوز تحوّلت إلى نبع ماء ساخن، وراحت تدفع بيديها الملتويتين والضعيفتين أولئك الذين يحاولون جرّها بعيداً. لقد صمتت عن قصّتها أربعين عاماً، ولم يعد بالإمكان كبح لجامها.

– كان يريد الإجهاض!!!

تناولتُ أحد الكؤوس المتروكة على الطاولة بجواري لأشتمّ محتوياته: ماء وحسب. كان كلّ من في الغرفة يحاولون التخمين، «لا بدّ أنّها نسيت تناول أدويتها»، «قد تكون جلطة»، «لقد بدأت تصاب بالخرف»، وكلام من هذا القبيل. بغضّ النظر عن ذلك، كانت صرختها صادقة في هذا العالم المعجون بالنفاق.

لجأت كلير إلى ذراعَي زوجها. فجأة، افتقرت إلى الإلهام للإشادة بمزايا الرجل الميت، الذي تلقّى للتوّ صفعة غير متوقّعة على الإطلاق. انتشرت الفضيحة الصغيرة على شفاه الجميع في صخب راح يرتفع بشكل محموم. فاندفعت المسؤولة إلى الميكروفون لتطلب الصمت، بوجه خالٍ من التعابير، من أجل إفساح المجال لمتابعة المراسم. لا بدّ أنّها رأت مشاهد كهذه من قبل، إذ يعدّ الموت أرضاً خصبة لتصفية الحسابات. خلفها، وفي مشهد سريالي تماماً، كانت والدة كلودين تضحك، أو بالأحرى، تحاول ألّا تضحك. بدا واضحاً أنّها تواجه صعوبة في ذلك، بكتفيها المرتعشين ووجهها المتشنّج المكسوّ بالتجاعيد، والذي بدا على وشك الانفجار. بجانبها، مدّ لها

رجل يقارب المائة عام منديلاً لكي تخبّئ به وجهها. كان من الممكن بسهولة الاعتقاد أنّها تبكي، إذ بدت ملامحها محيّرة. غير أنّ الضرر كان قد وقع، وتذبذبت الأجواء بين القلق والضحك العصبي. أخذ أولئك الذين يعرفون خفايا الموضوع يحدّقون إلى الأرض، في حين أنّ آخرين، مثلي، ممّن سمعوا عن خيانات والدها – حتّى إنّه ثمّة لقيط في مكان ما في غرب كندا – وجدوا أنّه من حقّ امرأة عانت الأمرّين أن تتلذّذ بانتقام صغير عبر إطلاق ضحكات من القلب أمام نعش زوجها.

خصّ شقيق كلودين نفسه بشرف إلقاء خطابه الصغير في نهاية الحفل، على غرار الضيوف المهمّين. وأثبت أنّه يرقى إلى مستوى الشخصية التي وصفتها لي كلودين.

بدأ رثاءه بقصّة ولادته هو، تلتها قصّة خطواته الأولى هو، وأولى المرّات التي ركب فيها الزلّاجة، والدرّاجة، وسقطاته الأولى، إلخ. وكلّ ذلك رواه بلا جهد، مثل سياسي مكلّف بتهيئة الحشد للنوم. ضحك بعض الأعمام وتراقصت حناجرهم، مقتنعين بحقيقة الرواية، وإن كانوا لا يذكرون تلك التفاصيل. حرص أندريه على أن يروي زبدة حياته، تاركاً في الغربال التكتّلات القبيحة للأخطاء التي ارتكبها في شبابه. وما كان من الممكن لكاتب سيرة ذاتية مضلّل أن يبلي أحسن منه وهو يربط ببراعة قصصاً عن حياته بقصص من حياة والده. «عندما كنت أشاهد والدي على مدرّجات منتزه سان روش، خلال مباريات الكرة التي شاركتُ فيها، كنت أعلم أنّه سعيد هناك». بعد عشرين دقيقة من الإصغاء إلى سيرته الذاتية المفعمة بالإلهام، عبّرت السيّدة ذات الملابس اللمّاعة بصوت عالٍ عن الانزعاج الذي ألمّ

بمعظم الحاضرين.

– ربّاه، ألن ينتهي هذا الخطاب؟

على شعاع بضعة أمتار حولها، سمح الناس لأنفسهم بشيء من الضحك. ثمّ استغلّ أحد الأعمام الفرصة التي انفتحت وقال: «حبّاً بالله، بالكاد بدأ، فوالده هو الذي مات!». لم يتراجع أندريه، بل كان يستعدّ لإتحافنا بالمزيد عندما تسلّلت لوري خلفه، وأمسكت بسلك مكبّر الصوت، ثمّ سحبته بكلّ قوّتها. انطلقت ومضات من القابس، قبل أن يُفلِت السلك. فجأة، خيّم الصمت البارد على الحشد.

كانت والدة كلودين هي التي كسرت الصمت عندما انفجرت ضاحكة من دون قيود هذه المرّة. أنا واثقة أنّ هذه المرأة لم تستمتع إلى هذا الحدّ منذ وقت طويل. استطاع أحد المسؤولين أن يجد الكلام المناسب لإعادة الهدوء: «سيّداتي سادتي، سيتمّ تقديم الطعام في الغرفة الخلفية الصغيرة». سرعان ما بدأ الحشد يتوجّه نحو الباب الخلفي، مثل سرب من الأسماك. خُطب، ومفرقعات، وبوفيه... لقد كان حفلاً ناجحاً.

كنت في طريقي لتهنئة لوري وتقبيل كلودين قبل المغادرة عندما رأيته هناك، في الجزء الخلفي من القاعة، يداه في جيبيه، ووسيم على نحو خطير. تمنّيت لو لم يرني، ذلك أنّني لم أتوقّع اللقاء. نظّفت وجهي بسرعة وأنا أسير نحوه (زوايا الشفتين، العينان، وتحت الأنف، والحاجبان). حين رآني، ظهرت التجاعيد الجميلة حول عينيه، وثنية على خدّه الأيسر. كان يرتدي بذلة باللون الرمادي الداكن. بوسامته تلك، حتّى جورج كلوني ما كان لينافسه.

– مرحباً! لم أكن أعلم أنّك آتٍ.

– فكّرت في المرور لبعض الوقت.

– إنّها عائلة مميّزة، أليس كذلك؟

– تماماً مثل كلودين.

– نعم، هذا صحيح.

كلودين مميّزة، بقدر ما أنا مملّة. امرأتان متناقضتان، مهجورتان من زوجيهما.

– حسناً، سألقي عليها التحيّة قبل الذهاب.

– هل لديك الوقت لتناول شيء من الطعام؟

– لمَ لا؟

شققنا طريقنا إلى طاولات البوفيه، التي أعدّتها على الأرجح جمعية المزارعين المحلّية. فكان بينها الأطباق الكلاسيكية من سلطات الكرنب، والبطاطس، والمعكرونة، وأسياخ صغيرة من البصل المتبّل والزيتون والمخلّلات الحلوة، والبيض المسلوق، وخضار نيّئة مع تغميسة (عبارة عن مزيج لذيذ من الكاتشب والمايونيز)، ومثلّثات صغيرة من السندويشات الخالية من القشور بالخبز الأبيض أو الأسمر. تناولت ما وقعت عليه يدي، إذ كنت منشغلة جدّاً في محاولة الظهور كامرأة واثقة من نفسها لأنتبه أين أضع يدي. لكنّ الحظّ السيّئ ظلّ رفيقي: كروتون. ما من طريقة لتناول شطيرة كروتون بشكل أنيق. بالمقابل، اكتفى جي–بي بتناول قطعة من الكرفس وقطعتين أو ثلاث من الجزر. ثمّ جاءت كلودين لتنضمّ إلينا مع الفتاتين.

– آه! جي–بي الوسيم هنا!

– تعازيّ الحارّة يا كلودين.

– أشكرك على مجيئك.

انحنـى عليهـا ليقبّلهـا، وهو ممسـك بذراعيها، مثـل الصور في روايات هارلكوين. ثمّ مدّ يده نحو لوري، التي نظرت إليه بحماسـة بعينيها الكبيرتين الجميلتين.

– أنا زميل والدتك، تعازيّ لك.

– شكراً على مجيئك.

كرّر المناورة مع آديل، التي مدّت له يداً كسولة ظلّت مفتوحة. الفتاة لا تلام، فالتنفّس يستهلك كلّ طاقتها.

– تعاليا معنا، نحن ذاهبات لتناول السوشي.

– ألن تبقي قليلاً مع عائلتك؟

– تحدّثـت مـع والدتـي وشـقيقتي والآخريـن... هـل تأكليـن الكروتون؟

– أوه... أجل.

– دعيها من يدك. هيّا بنا، فلنغادر هذا المكان.

– هل أنت جادّة؟

– لا يغرينـي الانشـغال بمكتبـر الصـوت. قلت لهـم أن يذهبوا لمحاسبة الكاهن من أجل نفقات الجنازة.

– أيّتها السيّدات، أنا سأترككنّ هنا، فأسرتي الصغيرة بانتظاري. تحلّي بالصبر يا كلودين، وأنتما أيضاً أيّتها الفتاتان.

شـعرتُ بتشـنّج فـي معدتي. فمـا من أحد ينتظرنـي في المنزل، باسـتثناء بعـض النباتـات التـي أهملتهـا بقسـوة. أنـا التي كنـت دائمة الانشـغال منـذ وقـت غيـر بعيـد، لـم أعد أعـرف ماذا أفعـل بأصابعي العشـرة. كـم أنّ الحيـاة صعبـة. يجب أن يكون لدينـا الحقّ في إعادة التوازن إلى ساعات الزمن لتسطيح القمم وملء التجاويف.

- إلى اللقاء، عزيزي جي-بي.

لم أستطع الاستمتاع بالقبلة التي أعطاني إيّاها، إذ ركّزت على حبس أنفاسي المحمّلة بجزيئات الكروتون. غالباً تُفسد التفاصيل التافهة أفضل اللحظات. فقد رأيت ذات مرّة عروساً تبكي مباشرة قبل الصورة الرسمية للعائلة لأنّها كسرت ظفر إصبعها. استدار جي-بي على عقبيه، وبدا وسيماً، حتّى من الخلف. لطالما أثّر بي مؤخّر أعناق الرجال.

أكلنا السوشي، وشربنا الساكي، وضحكنا كالمجانين. حتّى إنّ آديل رفعت رأسها عدّة مرّات للمشاركة في المحادثة. خلال جلستنا تلك، سمعت كلودين للمرّة الأولى عن صديق لوري، وتأثّرت بوضوح. في بعض الأحيان، يكون للموت تأثير الصدمة الكهربائية.

كما بكت كلودين أخيراً.

13

وأنا أروي الأكاذيب لحماتي السابقة

أرادت بلانش أن تلتقي بي لإجراء «مناقشة جادّة، من امرأة لامرأة». كنت أفضّل أن أقتلع سنّاً بدون مخدّر بدلاً من احتمال إحدى محاضراتها، لكن لا بدّ لي من القضاء على العدوى قبل أن تنتشر. لذلك، وبمجرّد توقّف المطر، جفّفتُ لنا كرسيّين في الخارج.

لم تحضر حماتي بالملابس القطنية، وربّما لم تكن تعلم بوجودها أساساً. أصرّت أيضاً على الجلوس في الداخل، لأنّ ما سنناقشه يُعتبر مسألة حسّاسة للغاية ولا ينبغي أن تصل إلى آذان جيراني المتطفّلين. ويبدو أنّ فناءنا الخلفي الصغير الذي تبلغ مساحته 7000 قدم مربّع لا يوفّر ما فيه الكفاية من الخصوصيّة. لم أكلّف نفسي عناء إزالة المناديل من الحمّامات، فبلانش لا تستخدم المراحيض. في الواقع، دائماً أفكّر فيها عندما يزعم الرجال أنّ الفتيات لا تستخدمن الحمّام.

– هل ترغبين بفنجان من شاي الأعشاب، أو القهوة، أو كأس من الشراب؟

– سآخذ بكلّ سرور كأس كناري يا عزيزتي.

الناس العاديّون يسمّونه ببساطة الماء الساخن بالليمون.

خلعت شال الكشمير، وتفحّصت الكرسيّ، ثمّ جلست بأناقة، جامعة ركبتيها ويديها تحت وفوق الطاولة، ومُرجعة الكوعين إلى

الخلف، بالطبع. كان كلّ شيء مدروساً بالنسبة إليها، حتّى أدقّ التفاصيل، لإعطاء انطباع بالراحة والتواضع على السواء. لكنّ ذلك لم ينجح معي، فأنا أعرف أنّ عائلة عادية مكوّنة من أربعة أشخاص يمكن أن تتغذّى لعدّة أشهر بثمن أبسط أقراطها. من الواضح أنّها اختارت حذاء أنيقاً بكعبين عاليَين لكي تتمكّن من النظر إلى عينيّ مباشرة. فلطالما سبّب لها طولي الاضطراب.

- كيف حالك يا ابنتي؟
- بخير شكراً لك، وأنت؟
- أنا بخير، أشكرك. على الرغم من مسألة الانفصال...
- الانفصال؟
- انفصالكما.



- نعم، يؤسفني ذلك.
- ستسير الأمور على ما يرام، سنواجه كلّ يوم بيومه.
- شارلين رائعة، سترين.
- نعم، بلا شكّ. وبما أنّني تحدّثت مع جاك عدّة مرّات حول خلافكما، فقد وجدت أنّ الوقت قد حان لكي نجري حديثاً صريحاً أنا وأنت.
- حول ماذا؟
- في الواقع، أعلم أنّ هذه المواضيع حسّاسة للغاية، وستغفرين تدخّلي على هذا النحو في حياتك الخاصّة، لكنّ الطلاق سيسبّب تداعيات لن تفيد أحداً.
- نحن لم نبحث مسألة الطلاق بعد.
- بالضبط، لا أعتقد أنّ الوضع ميؤوس منه.

– جاك هو الذي رحل مع امرأة أخرى. كان قراراً من جانب واحد.

– تماماً. سعادة جاك هي بالضبط ما أردت مناقشته معك.

– عليك التحدّث مع شارلين في هذا الموضوع.

– أنا أتحدّث عن سعادتكما، أنت وجاك، سعادتكما التي... خسرت من شرارتها على مرّ السنين. اسمعي، أنا أفهمك. فقد عشت مع الرجل نفسه لمدّة خمسين عاماً، وأعرف تماماً كيف تكون الأمور، يمكنني أن أفهم تماماً.

... لا أكترث البتة.

– أنت تفهمين أنّه من الصعب على الأمّ أن تتحدّث في موضوع كهذا مع ابنها، بالطبع، ولذلك من الأفضل بحث هذه الأمور بين النساء.

... ربّاه، تريد التحدّث معي عن حياتي الجنسية...

– كنت أتساءل عمّا إذا حاولتِ تجديد نفسك، أو ما إذا كنت قد استشرتِ أحداً...

– مهلاً! مهلاً! ما الذي نتحدّث عنه هنا؟

– عن سعادة جاك، وسعادتك أيضاً يا حبيبتي بالتأكيد.

... أنا لست حبيبتك.

– عن أيّ نوع من السعادة تتحدّثين؟

– كما شرح لي جاك، لم يعد سعيداً كالسابق، وهذا ما دفعه إلى الرحيل. فتساءلتُ ما إذا كنت قد كففت عن...إرضاء زوجك.

... تبّاً!

من الواضح أنّني، برأيها، دفعت جاك خارج منزلنا الزوجي لأنّني لم أتفرّغ له بما فيه الكفاية، أو لم أرضه بما فيه الكفاية، أو أنّني لم «أجدّد نفسي». وتعتقد حماتي السابقة أنّ لها الحقّ في طلب كشف حساب عن خدماتي الجنسية لأنّ شرف وثروة الإمبراطورية العائلية سيتأثّران بطلاقنا. ولا شكّ أنّ «التداعيات» التي ألمحَت إليها كانت عبارة عن أرقام. فهي لا تهتمّ بسعادتنا حقّاً، بل كانت مجرّد كلمة تلفظها كما يلفظ المرء ما يعلق في حلقه.

كان بإمكاني أن ألقي في وجهها فنجاني من الماء الساخن، بما في ذلك الطبق، ولكنّها ستقاضيني حتماً بتهمة التسبب بالأذى وفقدان متعة الحياة. بالتالي ممنوع عليّ أن ألمسها جسدياً، ولا حتّى بأطراف أصابعي، لأنّها ستجد طريقة لتحويل فعلي إلى عدوان.

لذلك اتّبعتُ الطريقة الأكثر مكراً، والأكثر قسوة أيضاً. كان الأمر سهلاً للغاية، حتّى إنّني شعرتُ بشيء من عذاب الضمير بعد رحيلها. فقد هزمتها ببضع كلمات تركتُها تخمّن حقيقتها.

– حسناً، في الواقع، من المحرج أن أتحدّث معك في هذه المسألة.
– اعتبريني صديقة قديمة لا تريد سوى الخير للعائلة، عائلتك.
– الموضوع باختصار أنّ جاك أصبح، خلال السنوات الأخيرة، أكثر... أُف... أوه... تطلّباً.
– آه! تطلّباً؟
– نعم. لم أعد أتمكّن... لا أدري كيف أخبرك بذلك... تلبية...
– نزواته؟
– بالضبط، نزواته.

– ولكن لكلّ شخص نزواته يا عزيزتي، هذا طبيعي.
– ربّما، لكنّ نزوات جاك اتّخذت... شكلاً جديداً.
– ماذا تعنين؟ ألعاب؟
– امهم... أجل، نوعاً ما... ألعاب لم تعجبني بتاتاً.
– حقّاً؟ ألم تجدا طريقة للتوصّل إلى تسوية؟
– أوه... كلّا، لكن لا أعتقد أنّه يجدر بي إخبارك بذلك.
– هل الأمر بهذا السوء؟
– نعم.
– لكن أنت تخيفينني.

* * *

كنت أستمتع بإعادة سرد قصّتي، بينما جلست كلودين على حافّة مقعدها تضرب الأرض بقدمها بحماسة.

– هيّا أخبريني، ما الشيء الفظيع إلى هذا الحدّ الذي قلته لها؟
– فكّري في الأمر، ما المسألة التي تصيبها في الصميم...؟
– لا أدري؟
– حقّاً؟ أخبرتها أنّ جاك يريدني أن أرتدي زيّ رجل حتّى...
– ربّاه! هل قلتِ لها ذلك حقّاً؟
– نعم، سيدتي!
– وماذا قالت؟
– لا شيء. غطّت فمها بيدها لكتم صوت صرير، ثمّ التقطت أغراضها وخرجت مسرعة. أمّا أنا فبقيت جالسة هناك أحتسي كوب الماء الساخن بالليمون.
– ستعتقد الآن أنّ...

– ... الموزّنة المثليّة أنت من طرفها! سحقاً لها!

– أنا واثقة أنّها ستسأل جاك صحّة ذلك.

– مستحيل. هذا الموضوع لا يمكن الحديث عنه سوى «من امرأة لامرأة»، ولا يمكن أن تبحثه مع ابنها.

– هذا من سوء حظّها، تلك الشمطاء!

عندما أعلنّا، قبل بضع سنوات، أنّ ألكسندر سيُحضر صديقه إلى حفلة الميلاد العائلية، حدثت ضجّة كبيرة (كنّا نتوقّع ذلك، ولهذا السبب أبلغنا العائلة مسبقاً). لكن بما أنّ سلالة فالوا وغاريغ بكاملها لم تتضمّن سوى «أشخاص طبيعيّين»، وفقاً لبحوث الأنساب التي أجرتها بلانش – لم تتعرّض أيّ فروع من شجرة العائلة لأيّ وصمة حتّى الآن – ذُكر احتمال أن يكون «الخلل» قد أتى من طرفي. كان جاك قد سنّ أسنانه واستعدّ للدفاع عن ابنه و«كلّ أمثاله»، لكنّ تصاعُد الكلام البغيض الذي تمّ تبادله من هنا وهناك أجبرنا على مراجعة خططنا لعطلة ذلك العام. فقد اصطدمت وجهات نظرنا للعالم، ونتج عنها انفجار كبير بين الأجيال تسبّب بكثير من الأضرار الجانبية. بالنسبة إلى حماتي، كانت المثلية الجنسية مرضاً لا تزال جذوره غير معروفة، تماماً مثل الحساسية. وأمام هذا القدر من ضيق الأفق، انجرفتُ قليلاً واستخدمتُ كلمات تتناسب مع أفكاري، إذ وصفتُها أنّها «شمطاء متعصّبة ومجنونة»، من بين أشياء أُخَر. وما زالت بعض تلك الجروح متقيّحة حتّى اليوم. لم تعد علاقتنا إلى ما كانت عليه بعد ذلك، بل اتّخذت شكل تلك المزهريات التي يعاد جمع حطامها لكنّها لا تخدع أحداً، لأنّ خطوط التصدّع تبقى مرئيّة، ويبقى الهيكل بأكمله هشّاً.

لم أسعَ يوماً إلى الانتقام، لكن في ذلك اليوم، منحتني حماتي السابقة الفرصة على طبق من فضّة، فاغتنمتُها. حقّاً، لقد سبّبت لي تلك المراة استياءً كبيراً، ومجرّد تخيّلها وهي تكابد لتفهم كيف ولَدَت كائناً منحرفاً عن قانون الطبيعة منحني شعوراً رائعاً بالرضا.

بكلّ صدق، انتهى بنا المطاف أنا وجاك بالملل تماماً في السرير. فقد كنّا عالقَين في آليّة، تدفعنا إلى تكرار الأفعال نفسها بالترتيب نفسه، على الدوام. كلّا، لم ننجح حتماً في تجديد أنفسنا. وفي النهاية، اكتست حياتنا في جوهرها بطبقة من الزنجار. واقتراح أيّ شيء جديد كان سيشكّل اعترافاً بهذا الملل الذي لم يكن أيّ منّا على استعداد لتحمّل مسؤوليته. كنت سأخشى حكمه، لو تمتّعتُ بالشجاعة الكافية لاقتراح شيء جديد، تماماً كما كنت سأخشى اقتراحاته، لو أنّه تجرّأ على تقديمها. كنّا أسيرَي القوّة الطاردة المركزية لعلاقتنا التي تدفعنا إلى الانفصال ببطء.

كلّما أراد جاك ممارسة الحبّ، كان يقول لي: «انتظريني، أنا قادم!»، عندما يراني أستعدّ للنوم. أنا مملّة، لطالما كنت كذلك، وكان النوم الشيء الوحيد الذي أرغب فيه في آخر النهار. وإذا كنتُ قد بذلت جهداً لمقاومة النعاس في السنوات الأولى من زواجنا، إلّا أنّني، ومنذ وقت طويل، بتُّ أستسلم بكلّ سرور لفرصة الخلود إلى الفراش كلّما أتيحت لي. استعملت النوم كما يستعمل الآخرون الصداع النصفي. أحببت زوجي من كلّ قلبي، لكنّ جسدي كان يريد النوم، ويأمرني بذلك بقوّة، بحيث أعجز عن فعل شيء حيال ذلك. وكنت أعرف أنّ جاك ما كان ليوقظني من أجل إرضاء رغباته. وليست كلّ النساء محظوظات من هذه الناحية، هذا ما عرفتُه من ثرثرات المكتب.

بالتالي، كلّا، لم نجدّد أنفسنا إطلاقاً على صعيد الفراش، ولم نستخدم لا زيّ رجل ولا زيّ تلميذة مدرسة. تعاملنا مع رغباتنا كمسألة صحّية، تفرضها الضرورة. ومن غير المستغرب إذاً أن يكون زوجي، الذي يعاني من صعوبات إيقاعية، قد سعى في نهاية المطاف إلى البحث عن «السعادة» في مكان آخر.

لكنّ هذه المسألة لا تعني حماتي السابقة إطلاقاً. ومجرّد اعتقادها أنّ لها الحقّ في الاطّلاع على تفاصيل حياتي الجنسية أثار غضبي. هكذا، وبمجرّد خروجها من الباب، ذهبتُ وشكيت همّي لمطرقتي.

عندما هدأتُ، قرأتُ رسالة أنطوان: «أحبّك يا أمّي».

14

وأنا أقول «أجل» مرّة أخرى

– هل تعتقدين أنّ جاك سيعود؟
– لا أدري، قلت ذلك وحسب.
– أنا أطرح عليك سؤالاً جادّاً: هل تتوقّعين أن يطرق جاك بابك مجدّداً؟

كانت ترتدي سترة ذات ياقة عالية منحتها مظهراً صارماً. بيدها، تأرجح قلم الحبر مثل ميترونوم، على إيقاع اعترافاتي. ربّما لا تعجبها أقلام الحبر العادية، لم أسألها قطّ.

– دايان؟
– هذا ليس مستحيلاً، فقد حدث مرّات عديدة.
– إذاً أنت تأملين أن يعود؟
– بصراحة... أجل.
– لماذا؟
– لأنّ ذلك سيكون أسهل. أنا أفكّر في الأولاد خصوصاً.
– لكنّ أولادكما تركا المنزل.
– صحيح، لكنّ شارلوت قد تعود، فقد تركت المنزل من أجل دراستها فقط. ولا نعرف ما الذي قد يستجدّ مع الولدين الآخرَين، فالعلاقات لا تدوم طويلاً هذه الأيّام. قد يحتاجان

إلى مكان يلجآن إليه عند الحاجة.
- لكنّ جاك ليس مضطرّاً للتواجد فيه.
- سيكون عدم تواجد والدهم غريباً، فقد رأونا دائماً معاً، هذا منزلنا، لا أدري...
- هل تعتقدين أنّ الأولاد لن يأتوا إلى المنزل في غياب جاك؟
- ربّما لن يرغبوا في ذلك.
- لماذا؟
- لا أدري.
- هل انفصل والداك؟
- عندما كنت في العشرين من عمري.
- هل كنت تعيشين معهما في ذلك الوقت؟
- كلّا، كنت أعيش في سكن للطلّاب.
- وكيف سارت الأمور بينهما؟
- على نحو سيّئ.
ارتفع حاجباها.
- أخبريني عن ذلك، يا دايان.
- باع والداي المنزل، وانتقلت أمّي إلى شقّة في الطابق الثالث من مبنى قمحيّ اللون في حيّ قمحيّ اللون. أمّا والدي فعاد إلى شيربروك.
- وهل عدتِ للعيش مع أبيك أم مع أمّك بعد انتهاء دراستك الجامعية؟
- مع أمّي، لمدّة شهر، وكان الشهرَ الأكثر حزناً في حياتي.
- لماذا؟

- كان الأمر محزناً ببساطة... فذلك البيت لم يكن بيتنا، ولم يعجبني. كان بلا ذكريات، وبلا جيران، وبلا أصدقاء، وبلا أزقّة، لم يكن يشبه بيتنا على الإطلاق... عندما كنت أستيقظ ليلاً، لم أكن أعرف أين أنا. وكلّما رأيت موقف السيارات من النافذة، انتابتني رغبة في البكاء.

- ألم تشعري كذلك في سكن الطلّاب؟

- كلّا، لم يكن بيتنا، كنت أعيش مع رفيقات في السكن، وأعرف أنّه مؤقّت. أمّا البيت، فهو منزل أمّي، ولم أتمكّن من الشعور بالراحة هناك. لم تكن لديّ غرفة حتّى. كنت أنام على أريكة في غرفة المعيشة، وكان التلفاز يعمل طوال اليوم ليؤنسها. كانت أمّي سعيدة للغاية بوجودها هناك. «هذا المنزل لا يحتاج إلى كثير من العمل، والتنظيف يتطلّب مجهوداً أقلّ». أمّا بالنسبة إليّ، فكان محزناً، محزناً وحسب.

- هممم. وهل حدث أن فكّرتِ في ألّا يعود أبداً؟

كان تمريناً صعباً للغاية ما زلت أتجنّبه.

- أعلم أنّه عليّ ذلك، ولكن كلّا، لم أستطع بعد.

- ماذا ستفعلين لو عاد؟

- ربّاه... لا أعرف. سيتعيّن عليه أن يشتري لي خاتماً جديداً كبداية، خاتماً ضخماً!

- كم حجمه؟

- بحجم الدمار الذي أحدثه.

- وهل ستتمكّنين من مسامحته؟

طرحتُ على نفسي السؤال مليون مرّة. سيكون الطريق لمسامحته

طويلاً وشـاقّاً، وسـيُضطرّ فيه إلى التعويض عن عذابي. فأنا أريده أن يعانـي، وأن يلـوم نفســه، وأن يزحـف ويتوسّـل ويرجوني وينهار عند قدميّ.

- ربّما.
- أما زلت تحبّينه؟
-
- دايان؟
- أجل.

15

وأنا أفرغ غضبي بنافخات الأوراق

كان مـن المفتـرض أن تريحنـي فـرص الانتقام التـي أتاحتها لي شارلين وبلانش، إلّا أنّها ولّدت بداخلي غضباً حادّاً لم أعهده، ليس بعـد. وسـواء كان غضبـي في حالة سـبات أو وُلد فجـأة نتيجة رحيل جـاك، فالأمـر سـيّان، وكانـت لـه النتيجة نفسـها: ينتهي بـي المطاف بتحطيم شيء ما.

لطالما لامني جاك لأنّني لا أعرف كيف أسترخي، وكان محقّاً تماماً، فأنا لا أتمكّن من ذلك على الإطلاق. إنّها عادة سيّئة اكتسبتها وأنا أربّي الأولاد وأعمل بدوام كامل. وحتّى بعد مغادرتهم المنزل، وعلى الرغم من ساعات الفراغ التي هبطت عليّ كالمنّ، لم أتمكّن يومـاً مـن تغييـر وتيـرة حياتي. فقد واصلتُ تنـاول الفطور وأنا واقفة عند زاوية الطاولة، وأخذ مواعيد لدى مزيّنة الشعر بين مهام التسوّق، وتنظيف المنزل، وإنجاز الملفّات، وتنظيم الحفلات، والمساعدة في هذا وذاك. كان كلّ وقتي يتبخّر في حماسة اندفاعي لإنجاز كلّ شيء، كما لو أنّني أخشى الفراغ. هكذا، لم تكن تفارقني الدهشة كلّما ناقش زملائـي الكتـبَ التـي قرأوهـا أو الأفلام التي شـاهدوها خلال عطلة نهاية الأسـبوع.

لذلك الآن، ولكي أثبت لنفسـي أنّني قادرة على تهدئة الغضب

المحتدم بداخلي، قرّرت الاسترخاء. كنت على استعداد لفعل أيّ شيء للتمكّن من ذلك، حتّى لو تطلّب منّي الأمر العيش في منزل قذر أو تناول أطعمة مجلّدة. سأتقن فنّ عدم فعل شيء، مهما كلّفني ذلك. أساساً، فقد استعدتُ أمسيات الأربعاء.

ليلة الخميس

اضطررت لتمشيط ملفّ مردوخ بكامله لمعرفة أصل الخطأ في طلبيّة تاجر الجملة. في الظروف العاديّة، كنت سأنكبّ على العمل حتّى الرمق الأخير. لكن في تلك الليلة، قرّرت أن أطلب الدجاج الجاهز وأن أتناوله حتّى آخر قطعة بطاطس مقليّة، من دون أيّ ندم، وأنا جالسة على شرفتي الجميلة. لم أفعل شيئاً سوى التلذّذ بما كنت أضعه في فمي. وبين جرعات من شاتو مارغو، الذي كان مخبّأً في القبو المليء بزجاجات الشراب المعتّقة، كنت ألعق عن أصابعي الصلصة الدسمة والمالحة. نعم، كان جنوناً. ولم ينغّص عليّ تلك اللحظة سوى السيّد نادو، الذي قرّر جزّ أعشاب حديقته وتقليم سياجها. كان السيّد نادو متقاعداً منذ مدّة، وكان بإمكانه اختيار أيّ وقت من اليوم لإنجاز تلك المهمّة، في وقت يكون فيه بقيّة سكّان الحيّ في العمل مثلاً، لكنّه اختار «العناية بحديقته» برفقتي.

بعد أن نظّفت بإصبعي قاع العلبة - التي لولا الخجل لكنت لعقتها - جلست أمام التلفاز، واستلقيت مثل مراهقة كسولة على كرسي الباباسان، ذلك أنّني لم أقم بعد بشراء أريكة جديدة. كان الأولاد قد مرّوا بهذه المرحلة كلّ بدوره، وأنا أعرف تماماً ما

يجب عليّ فعله. أمّا بالنسبة إلى أنطوان، فلم يخرج منها أبداً.

بينما كان النبيذ يعمل سحره، استمتعت بمشاهدة فيلم تجسّس سخيف كان فيه جميع الأشرار قبيحين وجميع الأخيار جذّابين. وعلى الرغم من أنّ بنادق الأخيار كانت أصغر حجماً، إلّا أنّها تسبّبت بأضرار أكبر بكثير من أسلحة الأشرار. صغيرة وفعلها كبير.

صباح الجمعة

حرصتُ على الوصول إلى العمل متأخّرة بضع دقائق، احتراماً لقراري الجديد. كانت كلودين بانتظاري، تقفز وتصفّق بيديها بحماسة.

– اذهبي إلى مكتبك، ثمّة مفاجأة بانتظارك!

– ما المناسبة؟

– كلّا! إنّها ليست منّي!

– ممّن هي إذاً؟

– من جوزيه.

– مَن جوزي؟

– سكرتيرة جي-بي!

– جوزي؟

– اسمها الحقيقي جوزيه.

– حقّاً؟

– لديّ ملفّها.

– يعجبني اسم جوزيه أكثر.

– ومن يأبه؟ أسرعي، افتحيها!

بالكاد تسنّى لي الوقت للإحساس بالفراشات وهي تطاير في معدتي قبل أن أُخرج من الكيس حذائي الأزرق لأجده ثقيلاً جداً. كانت كلّ فردة تحتوي على زجاجة شراب، واحدة غازية والأخرى نبيذ أبيض. كانت ثمّة أيضاً بطاقة صغيرة دسستها بسرعة في جيبي.

– أهذا هو الحذاء الذي أعطيتِه لجي-بي في ذلك اليوم؟

– نعم، إنّه حذائي، حذائي القديم الجديد.

– أوه... ومملوء بالعصير!

– أنا أدعوكِ لنتناوله سوية.

– متى؟

– متى شئتِ.

– الفتاتان عندي حتّى عصر يوم الأحد.

– مساء الأحد إذاً، هذا ممتاز! سأضعهما في البرّاد.

– وهل نقرأ البطاقة الآن أم يوم الأحد؟

– أيّ بطاقة؟

بما أنّ ذلك كان جنونياً، نظراً للعمل الذي عليّ إنجازه، قرّرت أخذ إجازة في فترة ما بعد الظهيرة للاستمتاع باليوم الجميل. سأُخرج كرسيّ الباباسان إلى الشرفة، وأتكوّر فيه، وألفّ نفسي ببطّانيتي لأستفيد من أشعّة الشمس وأقرأ قليلاً وأنا أشاهد الأوراق تتساقط. كنت قد تلقّيت نحو عشرين رواية من أولادي على مرّ السنين، ولم أجد الوقت لقراءة أيّ منها. غير أنّ عقلي يحتاج إلى التمرين، وربّما أكثر من جسدي. انتهى بي الأمر بالاستسلام للنوم. وكانت رائحة العشب المقصوص حديثاً لا تزال تفوح من حديقة آل نادو.

شعرت بالحرارة التي تشعّ من بطاقة جي-بي، المدسوسة في الجيب الخلفي الأيمن لبنطال الجينز. من غير الممكن أن تحتوي على أيّ إيحاءات هامّة، بل مجرّد بعض الكلمات اللطيفة. مع ذلك، أجّلت لحظة قراءتها لكي تدوم سعادتي أكثر، وأستمتع بهذا الشعور قليلاً بعد قبل أن أقرأها. في هذا الوقت، أخرج السيّد ميشو آلة الصنفرة الكهربائية وبدأ بتشغيلها على شرفته المحبوبة. كنت أظنّ أنّه قام بتجديد طلائها بالكامل في بداية الصيف، لكن يبدو أنّني خلطتُ بين المنازل. على الأقلّ، كان الرجل يقوم بعمله في منتصف العصر في يوم عمل، ولا يمكنني أن أشتكي. أساساً، كانت الآلات الثقيلة تعمل بكامل طاقتها في العقار 5412 وحوله في آخر الشارع، بعد أن بيع مؤخّراً. لم تكن لديّ أيّ فكرة عمّا يخطّط له الملّاك الجدد، لكنّ فِرَق العمّال كانت تبدأ نشاطها عند السابعة كلّ صباح، وذلك منذ أسابيع. تاك-تاك-تاك! هكذا هدهد ضجيج الثاقب الكهربائي أسابيع غيبوبتي بعد القبلة.

قاومت نداء البطاقة في جيبي لساعة أخرى قبل فتحها. ساعة تقريباً. في الواقع، بضع دقائق.

– تبّاً!

الكتابة غير واضحة. عدت لإحضار نظّارتي من الداخل. كانت تلك المرّة الأولى التي أتلقّى فيها بطاقة من رجل غير جاك – وحتّى آخر بطاقة تلقّيتها من جاك مضى عليها زمن سحيق بحيث لم أعد أذكر محتواها – لأجد أنّ عينيّ أصبحتا مسنّتين ومتعبتين لدرجة عجزهما عن قراءتها من دون مساعدة.

استأنفت الاحتفال، وفتحت البطاقة.

إنّه يليق بك حقّاً.

وعيناك جميلتان جدّاً.

بصحّتك!

ج. ب.

مع أنّ قصّتنا لن تذهب إلى أبعد من ذلك، إلّا أنّ تلك المجاملة البسيطة، وفي تلك اللحظة بالذات، جعلت قلبي يطير فرحاً. تلاشى كلّ شيء، حتّى ضجيج آلات الصنفرة وثقب الجدران. فعيناي «جميلتان» حقّاً، وكان ذلك كافياً. شعرت أنّني أُولد من جديد، ولم يتطلّب ذلك سوى مجاملة. فكرة واحدة نغّصت عليّ تلك اللحظة: لم أستطع منع نفسي من التفكير أنّ قصّة جاك وشارلين بدأت بالطريقة نفسها ربّما. عليّ أن أرى مجدّداً هدايا جاك الأخيرة.

مساء الجمعة

البرد هو الذي أيقظني، البرد وضجيج جزّازة العشب في حديقة السيّد غوميز، الذي يقطن في المنزل المجاور إلى اليسار. غير أنّني لم أستطع أن أستاء منه لأنّه ساعدني كثيراً في نقل الأثاث الذي «أخرجتُه» من النافذة في الأشهر الماضية، من دون طرح أيّ أسئلة. كانت زوجته تراقب ما يحدث من نافذة مطبخها، هي الأخرى. ومن المحتمل أن يكونا قد عرفا قبلي أنّ زواجي على وشك الانهيار. أنا واثقة أنّني كنت سأعرف كمّاً من الأشياء المثيرة للاهتمام لو أنّني أجريت تحقيقاً صغيراً في الجوار.

عدتُ إلى الداخل لأجد بانتظاري رسالة صوتية من جاك، يطلب

فيها أن أرسل له رسالة نصّية لإعلامه بالوقت المناسب للاتّصال بي. قال إنّه لا يريدني أن أتّصل، لأسباب بديهية. لذلك، بالطبع، اتّصلت بـه. رنّ الهاتـف مـرّة، مرّتيـن، ثلاث مرّات، عشـر مرّات، إلى أن فتح الخطّ.

– دايان، أفضّل أن نتحدث في وقت مناسب لكلينا.

– آمل أنّه ما من شيء خطير؟

صدقاً، لو أنّه كسر كلتا ساقيه، ما كنت لأذرف دمعة واحدة. حتّى إنّنـي تمنّيـت أن يكـون قد أصيب على الأقـلّ بالإنفلونزا، أو بالتهاب رئوي بسيط، أو التقط إصابة فطرية سيّئة في قدميه. لا بل أفضل من ذلك، ان تكون قد نبتت له بثور، مئات البثور.

– كلّا، لا شـيء خطير، لكنّ الوقت ليس مناسـباً. هل يمكنني الاتّصال بك مرّة أخرى غداً؟

– كلّا، لن أكون هنا.

– ألن يكون هاتفك الخلوي معك؟

– أوه... بلى، ولكن لا توجد إشارة في المكان الذي سأقصده.

– آه... وهل لا تزال ثمّة أماكن بلا شبكة؟

كان منزعجاً، فهذا واضح من نبرته الساخرة.

– أخبرني ماذ تريد، وننتهي.

– لديّ ضيوف على العشاء، أفضّل الاتّصال بك مرّة أخرى.

بالطبـع، مسـاء الجمعـة، ونهاية الأسـبوع، وأصدقاء، وشـراب، ومـرح، وبعـض اللحظـات الملتهبة بعد التحليـة. تصاعدت الصفراء من معدتي وصولاً إلى فمي. من هم أولئك الضيوف على أيّ حال؟ شركاؤه، أصدقاؤنا، أولادنا؟ أصدقاء جدد في أوائل عقدهم الثالث؟

– سأتصل بك عند عودتي.

– ومتى ذلك؟

– عند عودتي.

– أفضّل تحديد موعد.

– حسناً، في الثالث والعشرين.

– الثالث والعشرون؟

– ما هو تاريخ اليوم؟

– الثالث من الشهر.

– ممتاز، في الثالث والعشرين إذاً.

– أي بعد ثلاثة أسابيع! هل ستبتعدين كلّ هذه المدّة؟

– نعم.

– أين؟

– في مكان بلا شبكة. حسناً، سأغلق الآن.

هكذا أنهيت المكالمة. كنت قد سبق وحطّمت طاولة البوفيه التي قدّمتها لنا حماتي السابقة. وإذا بدأت الآن بتحطيم الطاولة، فلن أتمكّن من استقبال «ضيوف» على العشاء. لذلك، أعدت قراءة بطاقة جي–بي لتهدئة أعصابي.

– عيناك جميلتان يا دايان، عيناك جميلتان جدّاً، وحذاؤك جميل أيضاً.

عدت للخارج لأخذ نفس عميق. فوجدت السيّد نادو يستخدم منفاخه الكهربائي لطرد ثلاث أو أربع ورقات تجرّأت على أن تحطّ في حديقته. كانت ثمّة قوانين بلدية لريّ العشب، وينبغي أن يكون ثمّة قوانين أيضاً لنفخ الأوراق. فمكنسة الحدائق أفضل عموماً، لأنّها

تتيح جمع الأوراق وإزالتها عوضاً عن دفعها إلى الشارع أو ممتلكات الجيران. انتعلت حذائي الأزرق وذهبت في نزهة على الأقدام. على الرغم من أنّني كنت أتخلّص من الأثاث الزائد منذ أشهر، إلّا أنّني بقيت أشعر بالاختناق في هذا المنزل المليء بالذكريات السعيدة التي تسبّب لي البؤس.

لم أتجوّل في الحيّ منذ وقت طويل. إذ خسرت عادة السير على الأقدام عندما كبر الأولاد، وبدأنا ننقلهم بالسيّارة في أنحاء المدينة، أنا وجاك، إلى أن تعلّموا كيفية استخدام وسائل النقل العامّ. ثم قام كلّ من الولدين بشراء سيّاراة وذهب في طريقه، باستثناء شارلوت التي رفضت رفضاً قاطعاً امتلاك محرّك ملوّث للجوّ. بالنتيجة، فقدتُ الاتّصال المباشر بالحيّ الذي أقيم فيه. لا بل عليّ الاعتراف بأمر رهيب: لم أعد أعرف كيف أمشي في الشارع من دون عربة أطفال وهدف محدّد. لم أعد أتقن التنزّه ببساطة من دون أن أقصد أيّ مكان.

عند ناصية شارع ليلا، أُغلق متجر الإسكافيّ الصغير. اقتربت لإلقاء نظرة خاطفة على الداخل، غير أنّني لم أجد سوى رفوفاً فارغة وصناديق خشبية موضوعة على طبقة سميكة من الغبار. على الباب، ما زال من الممكن قراءة جملة «نحن نشحذ الزلّاجات» على لافتة صفراء أبت الاستسلام على الرغم من الهزيمة العامّة، مثل جنديّ مخلص. هناك كنّا نصلح أحذيتنا، ونضيف ثقوباً إلى أحزمتنا عندما تزيد الراحة تزيد محيط خصرنا. حاليّاً، لم أعد أضع حزاماً، فالتنانير تخفي انحناءات جسدي على نحو أفضل. كما أنّني لم أعد أبلي أحذيتي، ومحيط خصري يشهد على ذلك.

على بعد ثلاثة مفارق، صادفتُ المتجر المهجور لنادي الفيديو.

كانت أفلام الفيديو القديمة ذات الأغلفة الباهتة لا تزال مكدّسة على الأرفف. وقع نظري على باب قسم البالغين المفتوح على مصراعيه في آخر المتجر. كنّا قد تمكّنا من إقناع الأولاد أنّهم قد يفقدون بصرهم إذا دخلوا تلك الغرفة، إلى أن تسلّل أنطوان إليها في أحد الأيام وهو يصيح واصفاً الصور الإباحية التي رآها. فما كان من ألكسندر وشارلوت إلّا أن سدّا آذانهما خشية أن يصابا بالصمم.

قبل أن تتحوّل نزهتي إلى زيارة لسراديب الذاكرة وتُفسد مزاجي الجيّد، عدت أدراجي بنعلَي حذائي الجديدَين، وكلّي أمل أن أجد فيلماً جيّداً على نتفلكس.

توقّفت أمام العقار 5412، الذي أصبح يتألّف الآن من طابقين ونصف. كانت الساعة 6:42 مساءً، غير أنّ العمل ما زال قائماً على قدم وساق. وضعت يديّ على وركيّ لأوضح أنّني لست هنا لأعرب عن إعجابي بالمكعّب الزجاجي الذي يرتفع أمامي. فاقترب منّي رجل يضع خوذة وينتعل حذاء عمّال. مثل كلّ الرجال الذين انتهى بهم الأمر باعتماد الموضة السائدة مع أنّهم يستهزئون بها، كانت لحيته كثيفة للغاية، بينما اكتست ذراعاه بأشكال غريبة. عجيب كيف يعاني الرجال الموشومون دائماً من الحرّ أكثر من غيرهم، ويرتدون قمصاناً بأكمام قصيرة في أغلب الأحيان. تدلّى من زاوية فمه عود أسنان، وراح يتمايل للأعلى والأسفل وهو يتكلّم.

– مساء الخير سيّدتي!

كانت بداية جيّدة، فقد بدا مهذّباً، كما أنّه جذّاب أيضاً.

– مساء الخير أيّها السيّد.

– هل يمكنني أن أخدمك بشيء؟

- نعم بالتأكيد، يمكنك إخباري بما تفعلونه.
- أوه... نحن نبني منزلاً.
- آه! من الجيّد أنّك أوضحت لي ذلك، ظننت أنّه حوض أسماك.
- هل تعيشين في الجوار؟
- أجل، في العقار 5420، على بعد منزلين من هنا.
- في الحيّ القديم؟
- بالضبط.
- إنّه حيّ لطيف.
- أجل في الواقع. إلى متى ستستمرّ الأعمال بعد؟
- إذا عملنا في المساء، سننتهي في غضون أربعة إلى ستّة أسابيع. يجب علينا مغادرة المكان بحلول منتصف أكتوبر على أبعد تقدير.
- في المساء، هل تقصد...
- يجيز لنا قانون المدينة العمل حتّى الساعة 7 مساءً.
- كلّ يوم؟
- كلّا، نتوقّف عند الساعة 5 يومي السبت والأحد.
- ستعملون في عطل نهاية الأسبوع أيضاً؟
- أجل! فنحن في عجلة من أمرنا، لديّ فريقان كاملان.
- ومتى تبدأ الأشغال في عطلة نهاية الأسبوع؟

حوّل نظره عنّي، ثمّ تنحنح قليلاً.

- عند الساعة السابعة.
- الساعة السابعة؟

– ليس لديّ الخيار.
– وما ذنبنا نحن! هذا حيّ سكني!
– أعلم، سيّدتي.
– وما سبب كلّ هذه العجلة؟ ماذا سيحدث إذا لم تنته الأعمال في منتصف أكتوبر؟
– لن يكون الزبون سعيداً.
– هاه! لن يكون الزبون سعيداً... وماذا عنّا نحن، جيرانه؟ هل يعقل أن يُرهق أعصابنا لأسابيع، فقط حتّى يتمكّن من الانتقال في الوقت المحدّد؟ هل ينام في الشوارع في هذه الأثناء، هذا المليونير؟
– أنا آسف سيّدتي، ولكن نحن ملزمون بتنفيذ العقد. فقد واجهنا بعض المشاكل، وتأخيرات في التسليم، وأموراً من هذا القبيل.
– بالضبط! من الطبيعي أن يستغرق الأمر وقتاً أطول من المتوقّع!
– إنّها حقوقه سيّدتي، ونحن نلتزم بالقانون.
– حقوقه، تبّاً! لقد سئمت من سماع ذلك، «هذا حقّي!». الحقوق تقترن باحترام الغير!
– لأكون صادقاً، أنا أفضّل في هذه اللحظة أن أكون في بيتي، أتناول شراباً بارداً.

أخرج عود الأسنان من فمه وهزّ كتفيه بعجز. فانتفخت الكرة الناريّة والتنّين ثلاثي الرؤوس اللذين يزيّنان ذراعه مع تحرّك العضلة. في غضون ثلاثين عاماً، سيتدلّى الوشم ويتأرجح في بقعة من الحبر

الباهـت علـى بشـرته المترهّلـة. وسـيبدو التنّين أقرب إلـى حفنة من القريدس.

– أخبـر زبونـك أنّ الحـيّ سـئم مـن ضجيـج أعمـال التجديد السـخيفة هـذه. وإذا مـا ظهـر على عتبة منزلـي حاملاً فطيرة تفّاح في اليوم الذي سـينتقل فيه، فإنّني سأسـتقبله بالمطرقة! فليذهب إلى الجحيم هو وفطيرته اللعينة!

– سأوصل له الرسالة، سيّدتي.

استدرت خمساً وأربعين درجة لأسير باتّجاه الرصيف وأعود إلى منزلي القديم الجميل الذي بني عندما كان الحيّ لا يزال مجرّد حقل. فـي ذلـك الوقـت، كان من الممكن لطاقم البناء أن يعمل طوال الليل من دون أن يشتكي أحد، باستثناء بعض الحيوانات، ربّما.

كانـت الرشّاشـات الكهربائيـة تروي العشـب الأخضر ببطء في حديقـة آل نـادو. مقـدار كبيـر من الماء والكهرباء يُهـدر للعناية برقعة صغيرة من الأرض سـتلفظ أنفاسـها قريباً تحت عدّة أقدام من الثلج والجليد. ما الجدوى من ذلك؟ لو لم تكن أسطورة سيزيف موجودة، لكنت اخترعتها من أجله فقط.

عندمـا أصبحـتُ فـي المطبـخ، انتزعت فعليّاً مكبّـرات الصوت المثبّتة على الحائط، مستعينة بعتلة، ووجّهتها إلى الخارج، من خلال النافـذة المفتوحـة. شـغّلت بعـد ذلك ألبـوم فلورانـس كاي، وعدتُ للجلوس على كرسيّ الباباسان مع كأس من الشراب لأتأمّل الأعشاب الضـارّة التـي تنمـو بلا قيود في فناء منزلي. وسـط الأعشـاب الطويلة التي كانت تتمايل بفعل النسـيم، تفتّحت بجرأة أزهار برّية صغيرة ذات أوراق متشابكة. في الحقيقة، لو كنت أعرف أنّ حديقتي غير المهذّبة

ستكون بهذا الجمال، لكنت ألغيت عقد التنسيق منذ زمن.

من سطح العقار 5412، وقف ثلاثة رجال يفرغون الألواح الخشبية وغيرها من الإمدادات، فيما لوّح لي الوسيم الذي تحدّثت إليه سابقاً. عظيم. إذا كانوا يقومون بإضافة شرفة إلى حوض السمك، فعليّ أن أودّع خصوصيّتي نهائيّاً.

صباح السبت

خرجت إلى الشرفة حاملة فنجان القهوة بالحليب من دون حليب - نسيت هذه المرّة شراءه. فاقترب السيّد نادو منّي بشيء من التردّد، بعد أن ألقى بضع نظرات على ستائر مطبخه التي راحت تتمايل كالأعشاب البحرية. كان أمراً من اثنين، إمّا أنّه أراد الاعتذار عن الضجيج الذي تسبّب به عموماً، أو أنه أتى ليشتكي من الموسيقى التي شغّلتها في الليلة الماضية حتّى الساعة التاسعة. كانت تلك المدّة التي استغرقتها في تناول زجاجة الشراب.

- صباح الخير!
- صباح الخير!
- كيف حالك سيّدة فالوا؟
- بخير، وأنت؟
- إيه، بخلاف ركبتيّ اللتين بدأتا تسبّبان لي المتاعب...
- من يراك وأنت تعمل، يعتقد أنّ أمورك الصحّية بخير.
- آه! العمل يحافظ على الشباب.
- وكيف حال زوجتك؟
- ممتازة، وتبلغك تحيّاتها.

لوّحتُ باتّجاه النوافذ عموماً، لأنّني غير متأكّدة أيّ منها يوفّر إطلالة أفضل على منزلنا.

– لأيّ سبب أنا مدينة بشرف زيارتك؟

– في الحقيقة... المسألة حسّاسة بعض الشيء...

– هل يتعلّق الأمر بالموسيقى التي شغّلتها بالأمس؟

– لا! لا، لا، كانت الموسيقى ممتعة. على أيّ حال، نحن لا نسمع شيئاً من داخل المنزل، وهذا حقّك في النهاية.

– حسناً، أنا مسرورة لسماع ذلك. فقد اعتقدت أنّني سبّبت لكما الإزعاج.

– في الواقع، الأمر يتعلّق بالعشب.

– العشب؟ لكنّ عشب حديقتك رائع! فهو كثيف لدرجة أنّ المرء يظنّه اصطناعياً.

– شكراً، هذا لطف منك. لكنّني كنت أعني... عشب حديقتك أنت.

– حديقتي؟ ها! ها! هل تقصد حقل الحشائش هذا؟

– نعم، بالضبط.

– أراه جميلاً هكذا، إذ يجعلني أشعر وكأنّني في الريف، ألا تعتقد ذلك؟

– أوه... في الواقع... كنت أنوي أن أعرض عليك جزّه، لديّ كلّ ما يلزم لذلك.

بصراحة، لم ألاحظ ذلك. في الواقع، لم يعد قادراً على إدخال سيّارته إلى المرآب من كثرة المعدّات الموضوعة هناك.

– جزّه؟

– نعم، خدمة بين جيران.
– هذا لطف منك، شكراً.
– إنّه من دواعي سروري.
– لكنّه يعجبني كما هو في الوقت الحالي.
– آه... في الواقع...
– هل يزعجك؟
– أوه... حسناً... في الحقيقة... نعم.
– ولماذا؟
– هذا بسبب الأعشاب الضارّة التي تعبر إلينا مع هبوب الرياح التي تنشر اللقاح والبذور في فناء منزلنا.
– لكن ما من أثر للأعشاب الضارّة في حديقتك!
– صحيح، هذا لأنني أكافحها بشدّة، لكن من الصعب القيام بذلك مع وجود حقل من الحشائش في الجوار. كما أنّ الأعشاب الضارّة تمدّ جذوراً في الأرض تعبر إلينا...
– يؤسفني ذلك، ولكنّها مسألة ذوق. أنت تحبّ العشب المشذّب، وأنا أحبّ الحشائش.
– نعم أفهم ذلك، لكنّ ذوقك يضرّ بذوقنا، إن فهمتِ ما أعنيه.
– أجل ربّما، ولكنّ ذوقك أنت يؤثّر على جودة حياتي.
– جودة حياتك؟
– نعم، مع آلة جزّ العشب، وآكلة الحشائش، والرشّاشات، ومنفاخ الأوراق، ناهيك عن التسمّم بالمبيدات...
– لكن ليس لديّ الخيار، بسبب الحشائش!
بدا محطّماً تماماً، كما لو أنه علم للتوّ أنّ ترامب انتُخب رئيساً.

لن أسمح له بتاتاً بجزّ حشائش حديقتي. ولا بدّ أنّ زوجته، المختبئة خلف الستارة، قد فهمت، بتعبيرها المهزوم، أنّه عاد خالي الوفاض من بعد حديثنا. أعترف أنني صعّبت الأمور عن قصد. كان بإمكاني بسهولة أن أبرم معه صفقة: يمكنك أن تجزّ عشب حديقتي إن كان هذا يروق لك، لكن ممنوع إخراج الآلات سوى بين الساعة 8 صباحاً و6 مساءً، وفي أيّام العمل. ولكان ذلك منحه مجالاً جيّداً مدّته خمسون ساعة كلّ أسبوع للعناية بسجّادته الطبيعية – كان ممنوعاً الدوس عليها كما تشير اللافتات الموزّعة على مسافة كلّ عشرة أقدام. في منتصف الطريق بين شرفتينا، استدار نحوي مجدّداً.

– المعذرة، سيّدة فالوا، هل تفكّرين في الاحتفاظ بالمنزل، أم أنّك تنوين بيعه؟

– ديلونيه! اسمي دايان ديلونيه.

عصر يوم السبت

انضمّت إليّ شارلوت في الحديقة لإعطائي درس الهرولة الثالث. لم تكفّ عن إدهاشي بصبرها ولطفها، حتّى إنّني تساءلت ما إذا كانوا قد خلطوا الأطفال في المستشفى عند ولادتها.

– سنبدّل اليوم بين المشي والجري، لكنّ فترات المشي ستكون أقصر.

– أنا سأتبعك يا حبيبتي.

لا بدّ أنّنا بدونا امرأتين كلاسيكيتين: المرأة الثرية الأكبر سنّاً ومدرّبتها الشابّة الجميلة. في الواقع، كنت ما ستصبح عليه الشابّة بعد خمسة وعشرين عاماً و15 كيلوغراماً. كان ذقني المزدوج الناشئ

مجرّد امتداد لذقنها، الذي لا يزال مشدوداً ومقاوماً للجاذبية. وجدت نفسي في هذه اللحظة، قبيحة بقدر ما كانت جميلة، الأمر الذي أراحني إلى حدّ ما.

تعرّقت دماً وماءً بعد عشرين دقيقة، قبل أن أستسلم. كان الأمر أقوى منّي، فأنا لا أحبّ المعاناة، ولم أحبّها أبداً، أيّاً يكن شكلها. كما أنّني لا أتمنّاها لأحد... تقريباً (في هذا الفصل من حياتي، كنت مثل أيّ شخص آخر، قادرة على تقبّل فكرة قدر معيّن من المعاناة للأشخاص الذين يستحقّونها). هكذا عدنا إلى المنزل بذراعين متشابكتين، متجاهلتين العرق وكلّ ما يمكن أن يُنفِر غريبتين من بعضهما.

بمجرّد دخولنا، لامتني شارلوت على جهودي الأخيرة في إعادة تصميم الديكور الداخلي.

- أمّي!
- همم؟
- أين ذهبت طاولة البوفيه؟
- طاولة البوفيه؟
- نعم، البوفيه الجميل المصنوع من خشب القيقب الذي أهدتكما إيّاه جدّتي.
- وجدته ضخماً جدّاً، وأردت التخفيف من الأثاث.
- يا إلهي! عليك أن تتوقّفي عن ذلك! لكنت أخذته.
- لكن أين كنت ستضعين هذه الطاولة في شقّتك الصغيرة تلك؟ ما كانت زميلاتك في السكن ستقبلن بها.
- أمّي...

- لقد انزعجتُ قليلاً من زيارة جدّتك في ذلك اليوم، وكانت هذه النتيجة.
- انتزعتِ مكبّرات الصوت!
- هذا لأنّني أردت الإصغاء إلى بعض الموسيقى في الخارج. فمن المستحيل الاسترخاء عندما يكون الجيران منشغلين بجزّ العشب.
- ولم تجدي وسيلة أخرى؟ هل كان من الضروريّ انتزاعها؟
- نعم.

تنهّدَت بهدوء، وكبتت رغبتها في توبيخي.

- لا تخبري أخويك بذلك.
- سيلاحظان أنّ بعض الأشياء قد فُقدت من المنزل، كما سيريان الثقوب.
- ما رأيك بتناول العشاء معاً السبت المقبل؟
- السبت... نعم، هذا يناسبني.
- يمكننا أن نذهب لقطف التفّاح بعد الظهر، ثمّ نخبز فطيرة تفّاح، وأعدّ قدراً كبيراً من الحساء.
- حساء الخضار؟
- سأعدّ النوعين.
- نعم!
- سنتظاهر أنّنا نحتفل بعيد الشكر.
- لكنّ شقيقيّ لن يأتيا لقطف التفاح، أنت تعرفينهما.
- لا بأس، يمكننا أن نملأ سلّة نحن الاثنتان، وهذا سيكون كافياً.

أعددت لنفسي أومليتا ناتورال. كان عشاء مملاً للغاية بالنسبة إلى ليلة السبت بحيث فضّلت قول الاسم بالإسبانية. وبما أنّني لم أعرف أيّ شراب أتناوله مع طبق العجّة الطبيعية، فقد فضّلت شاي الأعشاب. بعد ذلك قمت بجولة في كلّ غرف المنزل، وأنا أسير بخفّة قدر المستطاع لكي لا أزعج أيّ شيء، ولا حتّى الغبار الذي توقّفت عن إزالته. لكنّ ألواح الأرضيّة في المنازل الكندية القديمة لا تجيد الصمت، وهكذا راحت الذكريات تتصاعد من شقوقها بلا رحمة، مثل الذباب الأسود.

جاك يروح ويجيء ليلاً في أروقة المنزل وهو يهمس بالأغنيات في أذن ألكسندر، الذي يرفض الاستسلام للنوم. فيتذمّر قائلاً، «هذا الطفل سيدفعنا إلى الجنون».

جاك يحلق ذقنه في الحمّام بجوار أنطوان، الذي يكشط كريم الحلاقة عن خدّيه بملعقة بلاستيكية بينما يشرح له والده أنّ عليه الانتظار حتّى ينبت شعر ذقنه قبل أن يستخدم ماكينة الحلاقة.

أُحضر شطائر الجبن المشويّ للولدين المنشغلَين ببناء هيكل ضخم بأحجار الليغو على أرضيّة غرفتهما مع أبيهما، الذي لا يزال يرتدي البيجاما. فيوم السبت، بإمكانهما تناول العشاء أينما طاب لهما.

يكافح جاك مع رباط مطّاطي وهو يحاول جمع شعر شارلوت في تسريحة ذيل حصان. فأختبئ لأضحك خفية. وعندما تصرخ محتجّة، ألاحظ أنّ بضع خصلات أفلتت منه في أعلى رأسها.

تعصف الرياح بقوّة، ونتعانق بسعادة بينما تختلط أنفاسنا بهبّات الهواء.

يضع جاك بطّانية دافئة على كتفيّ ويقبّلني على جبيني. فأُبقي عينيّ مغمضتين لأستمتع بلمسة يده على ذراعي. سهرنا ليالٍ طويلة لرعاية الأطفال عندما أصيبوا واحداً تلو الآخر بإنفلونزا المعدة. وعندما حان دورنا، لم يتبقّ شيء نتقيّؤه.

يحتضن جاك أليكس بين ذراعيه، مغمضاً عينيه كما لو كان يصلّي. كنّا نخشى الأسوأ عندما تدحرج على الدرج مثل دمية من القماش. وما زال أليكس يخشى ركوب ألعاب الملاهي حتّى اليوم.

يفرك جاك صدغيه أمام مرآة الحمّام. كانت أعباء عمله بحجم الجيوب أسفل عينيه.

أبكي في غرفة نوم شارلوت، لأنّ وقت رحيلها عن المنزل قد حان. فيأتي جاك ويجلس على السرير بجواري، ثمّ يتنهّد ببطء، إذ كانت تلك دائماً طريقته في البكاء، قبل أن يضع يده على يدي.

أغسل ملاءات الأولاد حتّى لو لم تكن متّسخة. فأنا أريد أن تفوح منها رائحة الفانيليا إذا ما أتوا على غفلة. فيقول لي جاك، «حبّاً بالله، دايان».

دخلتُ غرفة نومنا المهجورة. كنت قد نقلت كلّ أشيائي إلى المنضدة والخزانة في غرفة الضيوف. لكنّني تهوّرت ووجدت نفسي أحدّق إلى انعكاس صورتي في المرآة الكبيرة خلف الباب. أنا امرأة في حالة يرثى لها، مزّقها الرحيل. عندما كان جاك لا يزال هنا، كانت القطب لا تزال صامدة. لكن بمجرّد رحيله هو الآخر، تحوّلتُ إلى هباء. أنا أكره نفسي جسداً وروحاً. أنا وحيدة تماماً، ولا أعرف ماذا أفعل لكي أمضي قدُماً.

«حبّاً بالله، دايان».

عصر الأحد

أتت كلودين في وقت أبكر من المتوقّع. كنت أقرأ على كرسيّي، على أنغام الحفّارات.

– قرعتُ جرس الباب، ألم تسمعيني؟

– كلّا، فالأجواء صاخبة هنا، كما لاحظتِ بالتأكيد.

– ربّاه! ألم تعد أيّام الأحد تُحترَم في الضواحي؟

– تبدين أنيقة اليوم!

كانت ترتدي ملابس سوداء أنيقة وجذّابة، مع سترة رائعة ذات لون رمادي مائل للأزرق وحذاء عالي الكعبين. وكانت قد صفّفت شعرها، وزيّنت وجهها، وتعطّرت، بحيث بدت رائعة الجمال.

– لا أعتقد أنّك تجمّلتِ من أجلي فقط.

– بل من أجلك فعلاً.

– هذا كثير.

– أنت تستحقّين ذلك.

– هل الفتاتان مع والدهما؟

– نعم! ولست آسفة للتخلّص منهما لبضعة أيّام، فقد كنت على وشك قتل إحداهما.

– ظننت أنّ الأمور تحسّنت.

– إذا استثنيتُ الاتّصال الذي تلقّيته من المدرسة بشأن آديل يوم الخميس، وتذمّر لوري كلّما طلبت منها شيئاً، فيمكنني القول إنّ الأمور تسير على خير ما يرام. أعتقد أنّ لوري وصديقها انفصلا.

– حقّاً؟

– نعم. يا لها من شرفة جميلة!

– على طراز البراري.

– لا تحتاج إلى كثير من الصيانة.

– كما أنّها أجمل، أليس كذلك؟

ألقت بنفسها على أحد الكراسي التي جفّت لحسن الحظّ من تلقاء نفسها.

– إذاً، أين الشراب؟

– ما زالت الساعة 3:30!

– إنّه الوقت المثالي لذلك.

هكذا فتحنا زجاجة الشراب الغازي وبدأنا جلسة قيل وقال عن المكتب. أمضينا ساعة نتأسّف فيها عن افتقار الشركة للتنظيم، وتوظيفها أناساً غير أكفاء، وعن السكرتيرات اللواتي يرتدين ملابس فاضحة، ومشاكل تكييف الهواء، وإغلاق مطعم شي جو، الذي نتناول عنده وجباتنا الخفيفة المفضّلة، ومرض جانين، وطرد سوزيت، وهكذا دواليك. فانتهزت كلودين الفرصة لتكشف لي بعض الأسرار حول ملفّات الموظّفين التي لا تزال قيد المعالجة في قسم الموارد البشرية. كنت بئراً عميقة، وهي تعرف ذلك. فأنا لن أكرّر على مسامع أحد ما أخبرتني به أبداً. هكذا اندهشت عندما اكتشفت أنّ مشاكل مارتا الصحّية كانت في الحقيقة واجهة لعمليّة تجميلية معقّدة: شدّ بطن كامل وتكبير لحجم الصدر. عمل مبهر بالفعل، فأنا لم ألاحظ ذلك. حتّى إنّ كلودين دوّنت رقم الجرّاح، تحسّباً.

كنّا قد بدأنا نشعر بالاسترخاء عندما باحت أخيراً بما يشغل بالها منذ وصولها.

- حسناً، أريد رؤية بطاقة جي–بي.
- أف! ليست مهمّة.
- كفى! أريني إيّاها.

حماسة كلودين الطبيعية لمسائل الحبّ منحتها قدرة على القراءة بين السطور. هكذا تبيّن لها أنّني لا أملك عينين جميلتين فحسب، بل وساقين جميلتين أيضاً – وهي مجاملة مخبّأة وراء تعليقه أنّ حذائي يليق بي – وبالتالي، فإنّه يراني جميلة من رأسي إلى أخمص قدميّ، وربّما كان مغرماً بي سرّاً، وهذا ما تكشفه كلمة «حقّاً» في عبارة «عيناك جميلتان حقّاً». كما أنّه يقترح شرب نخب «بصحّتي»، وهذه دعوة، وإن تكن غير مباشرة، لتناول كأس من الشراب معه يوماً ما. وتمّت تنحية كلّ محاولاتي لاعتبار واقعة الحذاء مجرّد نتيجة لبعض الأحداث التافهة. برأيها، إنّه القدر، قصّة مكتوبة في كتاب الحبّ، طُويت منه للتوّ الصفحة الأولى، ولا شكّ أنّ النهاية ستكون سعيدة.

- مهلاً! مهلاً! عن أيّ قدر تتحدّثين يا كلودين؟ أنت من أرسلني إليه بملفّ زائف كذريعة لأنّه الرجل الوحيد الذي كنت أرغب ربّما في تقبيله إذا: إذا لم يكن متزوّجاً، وكانت الجاذبية متبادلة، والتوقيت مناسباً، وجميع الشروط الأخرى التي لا تخطر ببالي الآن.
- قدرك أن أرسِلك إلى هناك.
- بل أنا من قلت لك إنّه الشابّ الوحيد الجذّاب في المكان.
- لكنّ قدرك أن أسألك وأن تجيبي باسمه.
- كما أنّه متزوّج.
- ومنذ متى يقف الزواج حائلاً؟ أنا واثقة أنّنا إذا كلّفنا أنفسنا

عنـاء إجـراء بعض الأبحاث، فإنّنا سنكتشـف أنّ المتزوّجين يخونـون شـركاءهم أكثر من غير المتزوّجيـن. وبإمكان مائة في المائة من النساء تأكيد ذلك.

– بالمناسبة، اتّصل بي جاك يوم الجمعة. بدا لي الأمر مهمّاً.

– لا!

– فقلت له إنّني لا أستطيع التحدّث معه قبل الثالث والعشرين من الشهر.

– ولماذا الثالث والعشرون؟

– لإزعاجه وحسب.

– أحسنت صنعاً.

– أتساءل ماذا يريد منّي.

– دايان...

– ماذا؟

– الأمر واضح، يريد الطلاق.

– حتّى إنّ هذا لم يخطر ببالي.

– الصعاليك أمثاله يريدون الزواج دائماً.

استغرقنا في جلستنا الساخرة حتّى فرغت زجاجة الشراب. فـي تلـك اللحظة، خرج السيّد نادو، وقـد أصابه الجزع من أن تكون بعض الأوراق الميتة قد بدأت تتحلّل فوق عشب حديقته اللعينة. فقام بتوصيل المنفاخ الكهربائي وشرع في العمل.

عندئذٍ، نهضتُ بهدوء شـديد، ودسـت على حشائشـي، وعشـبه الأخضر، ثمّ أمسـكت بالسـلك وسـحبته بكلّ قوّتي. فلفظت آلة بلاك أند ديكر الجديدة نفساً أخيراً قبل أن تعود إلى حالة الجماد. ومع أنّ

حركتي كانت أقلّ مسرحية، إلّا أنّها حقّقت النتيجة نفسها التي حقّقتها حركة لوري في الجنازة، إذ التوى القابس في الهواء مطلقاً موجة من الشرر، قبل أن يسقط على الأرض. هكذا، سوّيتُ تلك المسألة في أقلّ من عشر ثوان. والآن، بات بإمكاننا مواصلة الجلسة والاستمتاع بدلاً من ذلك بحفيف الحشائش المتمايلة بفعل النسيم.

كانت كلودين تمسك بطنها بكلتا يديها وهي تضحك من أعماق قلبها، بينما رمقني السيّد نادو شزراً بعينيه الماكرتين. كان هذا أقصى ما يمكنه فعله، ذلك أنّ الرجل لا يملك ذرّة من الحقد.

– إذاً، ماذا كنّا نقول؟

– أنت مجنونة!

– هذا خطأ لوري، فأنا أتأثّر بسهولة.

لم تأت الشرطة، بل واصلنا تناول الشراب، فيما دخل السيّد نادو ليحضّر مع زوجته جنازة منفاخ الأوراق. في أسوأ الأحوال، قد يعود للانتقام عبر جزّ حقل الحشائش في غيابي. وبطريقة ما، يناسبني ذلك. فالأعشاب البرّية مخبأ للحشرات.

كان مشهد السماء ساحراً، إذ ألقت شمس العصر بريقاً أحمر على كلّ ما لامسته بأشعّتها. وكان الشراب ممتعاً، والأجبان والفواكه لذيذة، والصمت رائعاً. حتّى إنّ عمّال ورشة 5412 بدأوا يجمعون عدّتهم. قامت كلودين بتوصيل هاتفها بجهاز الستريو، وغنّينا مع أنغام مادونا المألوفة بأصوات عالية. كنّا النجمات والعذارى والفتيات المادّيات في ضاحية لم يعد لها وجود.

– سبق أن رقصتُ على هذه الأغنية. فقد أخذت دروس باليه–جاز، وأردت أن أصبح راقصة محترفة مثل إيرين كارا في

فلاش دانس.

– أحببتُ هذه الأغنية كثيراً!

– أنا أعرف الرقصة عن ظهر قلب. مهلاً، شاهديني.

خلعت كلودين حذاءها، ثمّ بدأت ترقص مثل إيرين، معتبرة إيّاي أحد الحكّام، تماماً كما في الفيلم. قفزت في مكانها، رافعة قدمها ويدها، كما قفزت بضع مرّات وهي تدير رأسها، حتّى إنّها قامت بحركة صعبة ناجحة. صحيح أنّ الرقصة، بغياب المونتاج الدقيق للصور، كانت أقلّ إثارة للإعجاب من الفيلم، ولكنّ تمكّنها من الحركات كان واضحاً. ربّما أبطأ الزمن من حركتها، كما أنّها مقيّدة بملابسها الأنيقة، لكنّ السحر بالنسبة إليّ كان طاغياً.

أردت أن أحذّرها عندما بدأت تتراجع بحماسة شديدة، لكنّ الأوان كان قد فات، فقد تعثّرت وسقطت رأساً على عقب قبل أن أتمكّن من فتح فمي. استلقت كلودين على الأرض فوق فراش من الحشائش المسطّحة، ضامّة ذراعيها، وأطلقت سيلاً من الشتائم. سرعان ما أتى عدد من العمّال من الموقع للاطمئنان علينا، إذ كانوا يراقبون الحادثة من مكانهم. وكان الوسيم الموشوم بينهم، بالطبع. لكن بمجرّد إلقاء نظرة على وجه كلودين الذي يعتصر ألماً، أدركتُ أنّه سيتعيّن علينا تمضية بقيّة الليلة في غرفة انتظار مزدحمة، بدلاً من دعوة أولئك الرجال لمشاركتنا كأساً من الشراب.

– دعيني أرى، هل ساعدك هو الذي يؤلمك؟

بيديه القذرتين والمشقّقتين، رفعها برفق، كما لو كانت طفلة رضيعة، لإلقاء نظرة عن كثب. ركع هذا الجمال الوحشي بجانبها، في وضعيّة مليئة بالحنان، وبدا سحره طاغياً.

– لا يمكنني تحريكه... آخ... تباً... إنّه يؤلمني كثيراً.
– وماذا عن أصابعك؟
– يمكنني تحريكها، ولكن آآآخ... كلّا... ليس كثيراً...
– هل سقطتِ مباشرة على ذراعك؟
– أجل، اللعنة.... آآآخ...
– حسناً، أنا لا أجازف في هذه الحالة، بل أذهب فوراً لإجراء صورة شعاعية.

لم يكن بإمكاننا القيادة لا أنا ولا كلودين. فقد كانت رؤوسنا عديمة الفائدة، وكذلك أذرعنا.

– سأتصل بسيّارة أجرة.
– يمكنني اصطحابكما إلى المستشفى، فأنا ذاهب إلى المدينة على أيّ حال.
– دايان، ابقي هنا، لا تفسدي أمسيتك. فالانتظار في المستشفى سيكون طويلاً ومملّاً.
– بالضبط، طويل وممل. أنا قادمة!
– أحضري الشراب أوّلاً.
– لم يتبقَّ منه شيء.
– تبّاً!

هكذا انتهى بنا المطاف جالستين معاً على مقعد في شاحنة صغيرة مليئة بالعدّة، بجانب سامريّ طيّب تفوح منه رائحة العمل الشاقّ وتطغى على رائحة أنفاسنا. استطعتُ الآن رؤية الصورة الموشومة على ذراعه، فما اعتقدته ألسنة لهب، كان في الواقع شعر امرأة يلوح حول جسدها العاري. ومن خلال ما أمكنني رؤيته من

خلال شعر ذراعه، فقد كانت المرأة تتمتّع بجسد رياضي.

في المستشفى، أمتعنا الممرّضة بقصّة أمسيتنا، حتّى إنّنا أوردنا المقطع المتعلّق بمنفاخ الأوراق لإضافة القليل من اللون. لم تكن لديها أيّ فكرة عن هويّة إيرين كارا، لكنّها تمكّنت من تصوّر المشهد تماماً. غير أنّها تساءلت وحسب لماذا لم أرقص أنا، بحلّتي القطنية.

– أنا أعاني من خلل إيقاعيّ، لا أجيد الرقص.

– آه.

عند سماع ذلك، لم تعلّق كثيراً.

– إذاً، فقد لويتِ كاحلك.

– كلّا، بل كانت سقطة! سقطة مؤذية!

– آه، سقطة. عن أيّ ارتفاع تقريباً؟

– ما هو ارتفاع شرفتك؟

– ربّما ثلاث أو أربع أقدام.

– وما نوع السطح؟

– سطح الانطلاق أم سطح الهبوط؟

– الهبوط.

– حشيش...

– حشيش؟

– أجل، لحسن الحظّ!

– هل سقطتِ عن الدرابزين؟

– ما من درابزين.

– هذا مؤسف.

– بالفعل.

- اذهبا للجلوس، وسينادونك قريباً.

بعد ساعة، أخذت الممرّضة المؤشرات الحيوية لكلودين، قبل أن تثبّت ذراعها بجبيرة. بعد ذلك أُرسِلنا للانضمام إلى كتيبة المرضى والجرحى في غرفة الانتظار، وجميعنا نكافح الألم والملل بمسلسلات صامتة ومجلّات قديمة.

دخلت امرأة على نقّالة وهي تصرخ. كان جسدها مثبّتاً بالأربطة ورأسها يستدير بعنف يميناً ويساراً، مثل رشّاش مياه يتأرجح بأقصى سرعته. (أنا أعرف الكثير عن رشّاشات المياه بفضل السيّد نادو). لم يكن واضحاً ما إذا كان ألمها خارجياً أم داخلياً. تنهّد الجميع في غرفة الانتظار، فقد كانت حالتها أولويّة. حقّاً، الألم يجعل الإنسان أنانياً.

- أهي نوبة جنون؟
- قد يكون مجرّد ألم شديد في المعدة.
- قرحة.
- التهاب.
- حصى كلى.

شاركتنا المرأة الجالسة على المقعد المجاور حديثنا.

- ربّما شاهدت صديقها يطعن أطفالها حتّى الموت.

لم نستطع أن نضيف شيئاً. فقد أذهلتنا الفكرة وزرعت فينا خوفاً لا يوصف يشلّ اللسان والدماغ. ألقيتُ نظرة باتّجاهها لأرى ما الذي تعاني منه، لكن كان من المستحيل معرفة ذلك، كما هو الحال مع جميع من هم في غرفة الانتظار. فاقتربتُ تلقائيّاً من كلودين.

بعد ذلك، بعد ذلك بكثير، بعد ذوبان آخر ذرّة من الشراب

الأبيض في مجرى دمنا، بدأت كلودين تتحدّث وهي تنظر أمامها، كما لو أنّ مخاوف الانتظار دفعتها إلى الإدلاء ببعض الاعترافات الحميمة.

– أنا أرتدي دائماً ملابس أنيقة عندما أرى فيليب. وبما أنّنا كنّا ننوي التحدّث عن آديل اليوم، فقد علمت أنّه سيتسنّى له الوقت للنظر إليّ.

– هل أنت جادّة؟

– أجل.

بدأت الدموع تُغرق عينَي تلك المرأة الجميلة والقويّة.

– كلودين، تباً...

– أعلم أنّك ستفهمينني، مع الأسف.

كانت لا تزال تتمسّك بالأمل، مثلي تماماً. امرأتان مثيرتان للشفقة تستعيدان رشدهما في مستشفى قديم متهالك. كان علينا الخروج من هناك.

– إذاً، فقد مرّ وقت طويل منذ أن قبّلت شخصاً ما، أنت أيضاً.

– أُف...

بدأت تضحك وتبكي بشكل هيستيري، وتركَت دموعها تغسل ما تبقّى من الماسكارا.

– حسناً، أعطني اسم رجل أنت على استعداد لتقبيله، حالاً حالاً، من دون تفكير.

– أيّ طبيب يظهر أمامي.

– رجل أم امرأة؟

– لا يهمّ.

- كنت تمارسين الغوص والباليه–جاز في الوقت نفسه؟
- والتزلّج على الجليد، والجمباز، والرسم، والعزف على الكمان، إلخ.
- وما عدتِ تمارسين أياً من ذلك؟
- كلّا.
- لمَ لا؟
- لم أتقن أياً منها، كان يجدر بي قراءة هايدغر.

16

وأنا أسوّي حساباتي... بالقهوة

كانت سكرتيرة جي-بي مليئة بالنشاط والحماسة في بداية الأسبوع.

– هل يمكنني مساعدتك؟

– كلّا، أتيت فقط لإلقاء التحيّة. سأعود في وقت لاحق.

– إنّه في تورنتو حتّى يوم الأربعاء.

– آه! حسناً، سأمرّ مجدّداً يوم الخميس.

– حين يتّصل بي مساء لبحث أعمال النهار، سأخبره بمجيئك. بخصوص ماذا؟

هذا ليس من شأنك، أيّتها الفضولية.

– بخصوص إلقاء التحيّة، هذا كلّ شيء.

– ربّما تفضّلين إذاً إرسال رسالة؟

لن أخبرك إن فعلت.

– سأفكّر في الأمر.

– أخبريني إذا كان بإمكاني المساعدة.

الإصبع الوسطى.

– شكراً.

كنت أفكّر بمدى كرهي لهذه المرأة عندما بدأ هاتفي يهتزّ.

كان التحرّي الخاصّ الذي عيّنته منذ بضعة أسابيع يرغب في رؤيتي لتسليمي مستندات المرحلة الأولى من العمليّة. عندما التقينا للمرّة الأولى، اقترح العمل على فترات من ثمانية عشر شهراً في كلّ مرّة من أجل استباق الأخبار السيّئة وتجنّب القفز مباشرة في «المجرور». كان يحبّ استخدام الاستعارات المنطوية على القذارة ويشتم باستمرار. فهذا أمر لا مفرّ منه على الأرجح عندما يقضي المرء حياته في نبش حماقات الآخرين.

اتّفقنا على اللقاء في مقهى كافيه، وهو مكان لطيف يقع بالقرب من المكتب، ويمتاز بجودة قهوته، كما يشير الاسم. فقد كان من السهل عليّ أن أقصد هذا المكان في وقت الاستراحة بحجّة إنجاز عمل عاجل. وبما أنّني أدين له بالدفعة الثانية التي اتّفقنا عليها لهذه المرحلة الأولى (بالإضافة إلى مبلغ لاستلام المستندات الورقية)، فقد وافق بسرعة على الحضور.

وصل هنري ديريش عند الساعة 10:15 تماماً. أظنّ أنّه كان يختبئ بعيداً عن الأنظار حتّى حلول الموعد المحدّد، حفاظاً على سمعته كشخص محترف وموثوق. التزم بموعده بدقّة في اجتماعنا الأوّل أيضاً، وأتى مبتسماً ومسترخياً، ومختلفاً تمام الاختلاف عن الصورة النمطية للتحرّي الخاصّ. فهو لم يكن يشبه على الإطلاق المُخبِر المتهوّر بالمعطف الطويل البيج المجعّد، بل كان أقرب إلى شابّ مهووس بالكمبيوتر قادر على اختراق أيّ نظام معلوماتي. أتى في ذلك اليوم بشعر أملس مسرّح بعناية، لكنّه نسي تنظيف زوايا عينيه خلف نظّارته السميكة. وبعدسات بمقاس 10X، لم يكن مظهره جذّاباً.

كنت آمل أن يسلّمني ملفاً يحتوي على ورقتين أو ثلاث تؤكّد بحروف كبيرة أنّ جاك بريء ولا يلام على شيء. بصراحة، ونظراً لعلاقته بشارلين، كنت أتوقّع أن يكشف لي بعض الحقائق القاسية التي، وإن كانت لن تفاجئني حقاً، إلّا أنّها ستؤلمني بشدّة. لكن ما حدث في حياة الواقع أنّ التحرّي سلّمني مظروفاً يحتوي على وثائق سميكة لدرجة أنّني كدت أن أسقطها.

– لا يمكن أن تكون هذه المستندات لي.

– ألستِ دايان ديلونيه؟

– بلى.

– التقينا في 29 أغسطس لمناقشة التحرّيات التي طلبتِها، أليس كذلك؟ زوجك السابق يدعى جاك فالوا، شريك في شركة بريكستون وفالوا وشركاؤهم.

– صحيح.

– هذه المستندات لك إذاً. وهذه فاتورة بالرسوم المستحقّة التي يتعيّن تسويتها، بما في ذلك تكاليف الطباعة. ستجدين تفاصيل الوقت والأبحاث التي أجريت في بداية المستند.

– لكنّني لا أفهم، لماذا هو سميك جدّاً؟

– إنّها في الغالب رسائل البريد الإلكتروني.

– رسائل البريد الإلكتروني؟

– أجل، فقد طبعتها بالكامل.

– رسائل حول ماذا؟

– سأدعك تقرأينها بنفسك، عندما تجدين الوقت مناسباً.

كان المغلّف القابع بيننا يحتوي على سجلّ لمحادثات جاك مع

آخرين، وعلى الأرجح نساء. إذا ما فتحتُه الآن، فإنّ أصواتهم ستنخر رأسي مثل أظافر على سبّورة، وتمزّق إرباً الثمانية عشر شهراً الأخيرة من زواجي. ولم تكن تلك سوى الدفعة الأولى، الطعنة الأولى، لكنّها تعني موتاً شبه مؤكّد. تعاقبت في رأسي رحلات العمل، والمؤتمرات، وجولات الغولف، والاجتماعات المتأخّرة، في دوّامة من الصور المسبّبة للدوار. ولا شكّ أنّ الأكاذيب والمكائد اليومية الصغيرة تلوّث هذه الصفحات التي لن أجد الجرأة لقراءتها.

تمكّنت من إخراج دفتر شيكاتي بشكل آلي وكتابة مبلغ بالأرقام والحروف، ومن ثمّ توقيع اسمي، دايان ديلونيه. ولم أرغب في أخذ إيصال.

– بالنسبة إلى المرحلة الثانية، يمكننا العمل على فترات زمنية أطول... سيّدة ديلونيه؟

–

– سيّدتي؟

– نعم... أنا... كلّا. سأعاود الاتّصال بك.

– أنا أفهم. خذي بعض الوقت للتفكير في كلّ شيء، أنت تعرفين كيفيّة الوصول إليّ.

– نعم شكراً لك.

نهض، وخطا خطوة، ثمّ عاد إليّ.

– آه... لا أعرف ما إذا كان كلامي سيساعد، لكنّني رأيت ما هو أسوأ بكثير.

– كلّا، هذا لا يساعد.

– أنا آسف.

رحل من دون إضافة كلمة أخرى، وتركني وحدي مع قارورة سمّ تكفي لتدمير حياتي، أو على الأقلّ، ذاك ما توهّمته. فقد وضع بين يديّ كدسة من الأوراق المرتّبة بعناية، بارتفاع بوصة، من شأنها أن تلقي ضوءاً ساطعاً على أحداث الأشهر الثمانية عشر الماضية، وتخرجني من الظلام. وقد لا أتعافى أبداً.

كان وقت الاستراحة قد انقضى منذ مدّة عندما جاء النادل يسألني عمّا إذا كنت أرغب في شيء آخر. حاولت الابتسام، لكن لا شكّ أنّني بدوت مثيرة للشفقة، لأنّه اكتفى بالنظر إلى الأسفل ومسح طاولة أخرى من دون أن يلحّ عليّ. ربّما اعتقد أنّ التحرّي عشيقي، وأنّه انفصل عنّي للتوّ.

أرسلت رسالة نصّية إلى سكرتيرة القسم الذي أعمل فيه لأخبرها أنّي مضطرّة للتأخّر وسأعود في أقرب وقت ممكن. كانت هذه المرّة الأولى التي أطلب فيها أن تغطّي عليّ، ولم تسألني عن السبب.

– كلّ شيء على ما يرام، خذي وقتك.

تناولت جرعة من القهوة الباردة، وسرحت بنظري من طاولة إلى أخرى. على إحدى الطاولات في الخلف، بجوار شجرة طبيعية تنمو هناك – لم أفهم كيف على أيّ حال – رأيت السيّد دوترون، مدير قسم الصادرات. كنّا نادراً ما نراه في مكاتبنا لأنّ عمله يتطلّب منه السفر باستمرار لإبرام الصفقات التجارية. منذ أن بدأتُ العمل في الشركة، تضاعفت المبيعات ثلاث مرّات بفضل العلاقات التي أقامتها في مختلف أرجاء الكوكب، غير أنّ مرتّباتنا بقيت على حالها. واقتصرت معظم الاتّصالات التي أجريناها مع الإدارة على الخطابات المملّة، التي نُضطرّ لسماعها خلال لقاءات الإفطار الهادفة إلى مساعدتنا

للحفاظ على تصنيف الأيزو الخاصّ بنا، من بين أمور أخرى. وخلال هذه المناسبات الفصلية المؤلمة، كنت أقتل الوقت بالتهام المعجّنات لإلهاء نفسي عن العبارات الجوفاء لمديرينا التنفيذيين ذوي الجيوب الممتلئة.

كان السيّد دوترون يتحدّث بحماسة إلى شابّة جميلة – جميلة جدّاً وشابّة جدّاً، في الواقع – عرفتُ من تكون في النهاية. إنّها واحدة من متدرّبتين جديدتين جاءتا إلى لقاء الإفطار الأخير. ومع أنّني نسيت القسم الذي تعمل فيه، إلّا أنّني تذكّرت اسمها، غابرييل، لأنّه الاسم الذي كنت أودّ أن أطلقه على شارلوت لو سمح لي جاك بذلك. كانت الفتاة المسكينة مضطرّة بلا شكّ لسماع السلسلة الطويلة من «المآثر» التجارية المعتاد على روايتها دائماً، وذلك باستخدام مجموعة من الاستعارات ذات الذوق المريب. فقد كان العملاء بالنسبة إليه أشخاصاً يتعيّن عليه «إغراؤهم»، و«سحرهم»، و«امتصاصهم» – «حبّاً بالله، إنّها مجرّد كلمات!» – وقيادتهم على الطريق الورديّ، ودفعهم إلى الاقتراب من الفعل نفسه، وصولاً إلى إتمام الصفقة. وهكذا يتحقّق رضى الطرفان، بتبادل السوائل – «ها! ها! سوائل، سيولة...». لكن ما دام الضرر لا يتعدّى الكلام، حتّى لو وجدتُه مثيراً للشفقة، فإنّه يبقى غير مؤذٍ. أمّا أن يحاول استخدام سحره على شابّة ضعيفة، وهو في موقع سلطة مهنية، فإنّه يصبح أكثر إثارة للقلق.

واصلتُ مراقبتهما لأخذ فكرة أفضل عمّا يجري. كانت غابرييل تومئ برأسها، موافقة على كلّ ما يقول، وتلفّ بعصبيّة خصلة شعر على إصبعها وهي تنظر تكراراً إلى هاتفها، وتعبث بأظافرها، وشفتيها، وكفّ يدها اليسرى، وزاوية الطاولة. باختصار، من الواضح أنّها

غيـر مرتاحـة. أردت أن أمـدّ لها يـد العون وأقول، «تعالي، يا حبيبتي، فلنخـرج مـن هنـا». كانت كلّ ذرّة أمومة بداخلي تصرخ للتدخّل. فلو رأيت شارلوت في موقف كهذا، لاقتلعتُ عينَي الرجل.

كانت تلك الأفكار تدور في رأسي عندما رأيت يد ذاك المنحرف تغطّي يدهـا البيضـاء مثل سـحابة مظلمة. ونظراً للطريقة التي شـدّت بها ذراعها، بدا واضحاً أنّها تريد الإفلات من قبضته. عندما استشعر أنّها قد تنجح في ذلك بالفعل، وضع يده الأخرى على يدها، مجبراً إيّاها على النظر إليه. فما كان منّي إلّا أن نهضت فعلاً. «اتركها حالاً! لا تلمسها أيّها العجوز الأحمق. أنت في سنّ جدّها! لا تحاول، أنت لا تخيفنـي بنقـودك ومحاميك القذرين. لقد صوّرتُ كلّ شـيء، أيّها النذل، لقد قُضي عليك! هل سمعت عن وسائل التواصل الاجتماعي؟ لـو كنـت مكانـك، لقلقت حقّاً، لأنّه عندما يراك الناس على حقيقتك، سـيدركون أنّـك فاسـد حتّـى العظم. ثمّـة آلاف الصحفييـن الراغبين فـي فضـح جـرذ مثلـك، فهكذا تباع الصحف هـذه الأيّام، مع أنّ هذا محـزن. أنـا أكيـدة أنّك أمضيت الأعوام الثلاثيـن الماضية في فعل ما تشـاء... لكن اسـمعني جيّداً، من الآن فصاعداً، هكذا ستسير الأمور: لن تلمس هذه الفتاة مجدّداً، أو أيّ فتاة أخرى، فهذا ليس من حقّك. وإذا سمعت أن تجاوزت حدودك، فسوف أطيّر رأسك، وهذه ليست مجرّد استعارة. لذلك ستخرج من هنا، وتخبر جميع رفاقك الصغار ذوي الأصابع القذرة أنّ الأيّام التي كان فيها العمل حانة مفتوحة قد ولّت. مفهوم، ولّت!!».

كنت أطرق بسبّابتي على الطاولة إلى أن آلمتني. مع كلّ مقطع لفظـي ضربـة إصبـع، علامة تعجب، ضربة إصبـع. ولم أتوقّف حتّى

عندما انكسر ظفري.

– سيّدتي؟

اخرس! أنا أتكلّم!

– المعذرة سيّدتي؟

– أوه!

عندما نهضت، كنتُ قد قلبت مقعدي إلى الخلف، وانسكبت محتويات فنجان القهوة لترسم خطّاً متعرّجاً على الطاولة قبل أن تهبط على الأرض. كان الناس من حولي يفعلون واحداً من شيئين: إمّا التحديق إليّ، أو محاولة عدم التحديق إليّ. انفجر صمّام أمان في مكان ما في عقلي، وربّما تمتمت بشيء ما، من الصعب معرفة ذلك. على أيّ حال، بدوت كعادتي، مجنونة.

كان المدير قد سحب يديه عن الطاولة. نظر إليّ، من دون أن يراني، أنا الموظّفة المجهولة. فأرخيتُ كفّي قليلاً، ثمّ خرجت. هذا أمر آخر ألوم نفسي عليه، جُبْني.

عدت إلى المكتب، لأجد لين تنتظرني بفارغ الصبر.

– اتّصل قسم المحاسبة مجدّداً بشأن ملفّ مردوخ، وبدا الأمر مهمّاً.

– آه، نعم، سأهتمّ بذلك. شكراً.

– استلمنا لوحة الألوان للمكاتب الجديدة، تعالي لإلقاء نظرة. إن سألتني عن رأيي، أعتقد أنّ البيج مائل إلى اللون الوردي، واللون العنّابي داكن للغاية.

اخترتُ اللون الأصفر المخضرّ كلون روث الإوزّ، وهو أقبح لون على الإطلاق، رغبة منّي في الانتقام من مكتبي. لا شكّ أنّه

عندما تقترح الإدارة أفكاراً قبيحة بهذا الشكل، يكون لديها أصدقاء في مجال المفروشات يسعون للتخلّص من الأثاث الذي لم يتمّ بيعه، أصدقاء يسلّمون فواتير ضخمة لقاء خدمات لا تستحقّ.

دخلتُ مكتبي ورميت بنفسي على المقعد. استولى تعب الأعصاب على جسدي وشلّ ساقيّ فجأة. فشعرت أنّ مغلّف العار بات يزن أطناناً بين يديّ المرتعشتين. وبدأت أكره التحرّي الذي جمعه وهو ينقّب في حياتي وحياة زوجي، وحماقاته التي لم يفلح في إخفائها. كان يفترض به أن يُعيد إليّ كرامتي ببضع جمل مختصرة، وحسنة الصياغة في تقرير مطمئن. لكنّه راح عوضاً عن ذلك يفتّش في أمور لم أعد أريد معرفتها. ضغطتُ على الظرف بكلّ قوّتي، وقمت بقياسه: بوصة واحدة. فتحته لألمس الورق. كان بسماكة قياسية، بدون غطاء كرتوني. بوصة من الألم على ورق عادي معاد تدويره جزئياً. عدتُ ودفعت المستند إلى داخل المغلّف.

كانت كلودين تلازم المنزل بجبيرتها الجديدة الجميلة. لم تكن إصابتها ستمنعها من العمل، لكنّها أخذت استراحة قصيرة لتتعافى من انفعالاتها. اتّصلت بها للاطمئنان عليها وأخبرتها أنّني دمّرت كلّ ما تبقّى لي من حياتي خلال استراحة لتناول القهوة. ماذا أفعل، قد أكون امرأة مملّة، لكنّني عمليّة.

17

وأنا أتأمّل المغلّف وأتناول فطيرة تفّاح

عندمـا وصلـتُ إلى المنزل، تعمّدت ترك المغلّف في السـيّارة. فقـد أردت التفكيـر فـي مـا سـيحدث إذا فتحته. كنـت بحاجة إلى أن أتلمّس طريقي في الهاوية قبل أن ألقي بنفسي فيها.

كان الليـل قـد انتصف تقريباً عندمـا خرجت من المنزل بالمئزر لإحضـاره، خشـية أن يقـع بيـن يدَي لـصّ ويبدأ بعـرض حياتي على وسـائل التواصل الاجتماعي، لا سيّما وأنّه لا فكرة لديّ عن محتويات ذلـك المغلّـف اللعيـن. عندمـا خرجـت، رأيـت الزوجيـن نـادو فـي مطبخهما، المضاء كالنهار، يأكلان، متأخّرين ستّ ساعات عن الوقت الطبيعي لتناول الطعام. على الرغم من البرد وملابسي غير المناسبة، بقيت واقفة هناك أتأمّلهما وهما يقطّعان طعامهما بالشوكة والسكّين. زوجان عاديّان يأكلان بشكل طبيعي في مشهد غريب للغاية. شعرتُ بالرغبة في إلقاء نظرة عن كثب، وكان لديّ عذر مثالي.

فتح لي السيّد نادو الباب.

– مساء الخير!

– مساء الخير.

– أتيت للاعتذار على ما فعلتُه بمنفاخ الأوراق، سأشـتري لك واحداً آخر بالطبع.

- لا حاجة إلى ذلك، فقد أصلحته وعاد يعمل كما لو كان جديداً.
- آه، هذا جيّد! مع ذلك، أنا آسفة على سلوكي البربري، فقدت أعصابي في تلك اللحظة...

ظهرت زوجته خلفه وهي تمسك بياقة سترتها، كما تفعل النساء في سنّ معيّنة خشية الإصابة بالبرد.

- لا بأس، نحن نعلم أنّك عانيت من المتاعب مؤخّراً، فما تمرّين به ليس ممتعاً، نحن نتفهّم.
- هذا لطف كبير منك.
- اعذريه هو أيضاً، فمن شأنه أن يكون مزعجاً جدّاً لكثرة هوسه بالعشب، إنّه مرض حقيقيّ. من جهتي، كنت لأفعل مثلك تماماً، سيّدة فالوا... أوه! أنا آسفة، لا بدّ أنّك عدت لاستخدام اسمك قبل الزواج.
- أنا لم أستخدم مطلقاً اسم أسرة زوجي. شهرتي ديلونيه، لكن لا مشكلة.
- ما رأيك بتناول قطعة من فطيرة التفّاح؟ لقد أخرجتها للتوّ من الفرن.

هكذا وجدت نفسي في مطبخ الزوجين نادو، عند الساعة 12:13 بعد منتصف الليل، في مئزر النوم، أتحدّث عن الطقس وأتناول فطيرة التفّاح. شعرت أنّني في مشهد من فيلم سريالي لديفيد لينش. ولو شرعت قطّتهما في الكلام، لما فوجئت.

- هل نسيت شيئاً مهمّاً في سيّارتك؟
- نعم، بعض الأوراق.

– في مغلّف بنّي؟ ها ها! أنا آسفة.

– لا لا، هو لا يحتوي على المال، بل على ملفّ سرّي للغاية.

– من الأفضل عدم المخاطرة مع اللصوص، لا سيّما إذا كان الأمر في غاية السرّية.

– هل أستطيع أن أطرح سؤالاً فضولياً بعض الشيء؟

– تفضّلي.

– هل تأكلان دائماً في هذا الوقت المتأخّر؟

تبادلا نظرة محرجة، كما لو أنّني طرحت سؤالاً حميمياً حقّاً، ما إذا كانا ما زالا يتشاركان السرير، مثلاً.

– نعم، نفعل ذلك منذ مدّة. بدأنا بذلك تدريجيّاً بعد تقاعدنا.

– لم نلاحظ حقّاً في البداية.

– بما أنّنا لم نعد مضطرّين للاستيقاظ باكراً، أصبحنا نؤخّر موعد الطعام يوماً بعد يوم.

– ثمّ بدأنا نؤخّر موعد النوم. فتسجيلمع إمكانية تسجيل البرامج التلفزيونية، أصبحنا نشاهد كلّ شيء تقريباً.

– هل تشاهدان مسلسلات أمريكية؟

– نعم بالتأكيد! نحن نتابع لعبة العروش هذه الأيّام.

– ونمضي الوقت في التساؤل عمّا سيحدث في الحلقة التالية.

– هكذا انقلبت أيّامنا ليالياً، والعكس بالعكس.

– أصبحتما تعيشان حياة المراهقين أخيراً؟

– ربّما، فنحن لم ننجب أولاداً قطّ.

– كما أنّنا كنّا نعمل في مراهقتنا.

نظرا إلى أيديهما، ومن ثمّ إلى الأرض، ثمّ عادت نظرتهما إلى

الطاولة، كما لو أنّ أفكارهما تحتاج إلى رسم علامة الصليب قبل أن يتمّ التعبير عنها.

– اضطررت إلى استئصال رحمي في العام الذي تزوّجنا فيه.

– أوه! أنا آسفة.

– لا بأس، مضى على ذلك وقت طويل.

بالنظر إلى الطريقة التي خرجت بها الكلمات، بدا لي أنّها قيلت مرّات عديدة، بحيث فقدَت معناها.

– أنا آسفة لمروري بملابس النوم، هذا ليس لائقاً، لكنّني كنت في السرير عندما تذكّرت... المغلّف.

– لا داعي للقلق، فملابسنا اليومية ليست أنيقة أيضاً.

عندئذٍ، تذكّرت أنّ لدى الزوجين نادو عادة غريبة تتمثّل في ارتداء الملابس نفسها بحسب أيام الأسبوع، وكان من السهل توقّع جدولهم. كان ألكسندر هو الذي لفت انتباهي لذلك بعد فترة وجيزة من انتقالهما إلى هذا المنزل قبل نحو خمسة عشر عاماً (فقد باعا منزلهما في المدينة واستخدما المال لشراء منزل هادئ يتقاعدان فيه في الضواحي). هذه الليلة، كانا يرتديان ملابس يوم الاثنين: سروال رمادي وقميص كحلي، هما الاثنان. كانت القمصان والسراويل دائماً من اللون نفسه، ولكن بأشكال مختلفة. ربّما وجدا هذا التدبير عمليّاً للغسيل، ولكنّه ليس كذلك من ناحية الذوق. بالإضافة إلى ذلك، لم يكن مقاس ملابسهما متناسباً. فإمّا أنّهما اكتسبا وزناً من دون أن يدركا ذلك، أو أنّ ملابسهما انكمشت خلال التجفيف. لكن في مشهد غير مألوف، يناقش فيه الجيران الذين تصالحوا حديثاً حادثة فقدان رحم في منتصف الليل، حول فطيرة تفّاح، لا أهمّية حقّاً للملابس.

– في الواقع، ثمّة سبب آخر لمجيئي. فقد أردت أن أعرف ما إذا كنت لا تزال راغباً في جزّ عشب حديقتي. سيساعدني ذلك كثيراً، لكنّني سأدفع بالطبع.

– مستحيل! سيكون ذلك من دواعي سروري! فنحن جيران.

لم يكن ذلك صحيحاً. فقد كنت مصمّمة على التمسّك بموقفي المدافع عن الحشائش البرّية، لكنّ هذه الفطيرة التي تشاركناها في جوّ من الوحدة العميقة جعلت عنادي يتلاشى. وعلى الرغم من أنّني أكره هذه الكلمة، لكنّني أعتقد أنّها مناسبة هنا، فقد أشفقتُ عليهما. فالملل المسيطر على حياتهما يُثقل حركتهما وصوتيهما. كان كلّ شيء حولهما باهتاً ورمادياً، من القطّ الخزفي الصغير، إلى اللوحة المعلّقة على جدار قمحيّ اللون، والتي تصوّر شجرة بتولا في سهل كئيب. بعد بضع سنوات من الآن، سيجدهما شخص ما محنّطَين في مطبخهما، بملابس متطابقة تلاشت ألوانها تماماً. وأنا التي سبّبتُ لهما كلّ هذه المتاعب من أجل العشب!

في برد الليل القارس الذي كان ينتظرني في الخارج عندما غادرتُ منزلهما، شعرت أنّني حيّة على نحو غريب. حتّى إنّني توقّفت للحظة وسط حشائشي، وأغمضت عينيّ لأتخيّل نفسي في مكان وزمان آخرَين، وسط البراري. أخذت الحرارة التي احتفظت بها ملابسي تزول تدريجيّاً، جزيئة تلو الأخرى. ولو بقيت ساكنة، من دون أن أقاوم الريح، لتحلّلتُ ربّما إلى أن تحوّلت عظامي إلى مسحوق ثلجي وتناثرت على الأرض. لكان من الجيّد الاختفاء بهذه الطريقة. لكان ذلك سهلاً بقدر صعوبة العثور عليّ، لأنّني سأكون موجودة ومعدومة في آن.

خلال الأيام القليلة التالية، أخفيت المغلّف في أماكن مختلفة، وتخيّلت أنني سأكفّ عن التفكير فيه إذا واصلت دفنه عميقاً في تجاويف منزلي. بعد أن جرّبت رفوف الخزائن، وأرضها، وآلة تجفيف الملابس، وأسفل المراتب، والمكتبات، والإضبارات (بحسب المنطق الذي يفيد أنّ الغابة أفضل الأماكن لإخفاء ورقة شجر)، انتهى بي المطاف بالعثور على المكان المثالي، وربّما المثالي للغاية، إذ قرّرت الاستفادة من الفجوة التي صنعتُها «عن غير قصد» في جدار غرفة المعيشة عندما حطّمتُ الأريكة. لففت المغلّف لإدخاله في الفتحة. وعندما عبرَها، انفرد مجدّداً، قبل أن يسقط على مسافة بضعة أقدام في الأسفل داخل الحائط. سيكون من المستحيل بالنسبة إليّ استعادته من دون تحطيم الحائط، وصولاً إلى الأرضيّة. وبما أنّ الأولاد قادمون يوم السبت، ليس الوقت مناسباً لبدء أعمال التخريب.

* * *

عاد جي-بي إلى المكتب يوم الخميس، كما كان متوقّعاً. فنهضت جوزيه-جوزي لاستقبالي.

- مرحباً دايان!
- مرحباً جوزيه!

ظهرت تجعيدة انزعاج كبيرة بين عينيها المكحّلتين بكثافة. لم تكن تحبّ اسمها الحقيقي، كان ذلك واضحاً. ابتسمتُ بشكل طبيعي تماماً متظاهرة بالبراءة، فأنا أيضاً أجيد التطفّل.

- هل عاد جان بول؟
- نعم، لكنّه يتحدّث على الهاتف في الوقت الحالي. هل ترغبين في المرور لاحقاً، أم تفضّلين في الانتظار؟

– كلّا، شكراً.

غير أنّ جي–بي الوسيم ظهر عند الباب بينما كنت أستدير عائدة.

– أهلاً! هل أتيتِ لرؤيتي؟

– فقط إذا كنتَ متفرّغاً لدقيقتين.

– جوزي، هلّا استلمتِ الرسائل عنّي خلال الدقائق القادمة؟

– بالتأكيد.

– شكراً.

بمجرّد أن جلستُ في مكتبه، بدا لي أنّه كان من الافضل أن أرسل له رسالة.

– شكراً لك على الشراب. حقّاً، لم يكن ثمّة داعٍ لذلك.

– ما كان يجدر بي ذلك؟

– تماماً، الأمر لا يستحقّ.

– كان ذلك من دواعي سروري، حقّاً. لم أكن أعرف أنّك تحبّين هذا النوع من الشراب.

– آه، بلى، أحبّه كثيراً. تناولته مع كلودين.

– كلودين...؟

– التي تعمل في قسم الموارد البشرية، كلودين بولان.

– آه، تذكّرتها. فتاة لطيفة.

– بالضبط! لكن انتهى بنا المطاف في المستشفى، بعد الزجاجتين...

– ماذا؟ بسبب الثمالة؟

– لا لا، نعم، قليلاً ربّما، لكنّها قصّة طويلة... هل تعرف فلاش دانس؟

- تعنين... كما في أغنية *What a Feeling*؟
- هل تعرف تلك الأغنية؟
- بالتأكيد!
- لكن هذا فيلم فتيات!
- بالضبط، كنت أحبّ الفتيات كثيراً في ذلك الوقت، ولذلك أحببتُ الفيلم.
- أنت شابّ ذكيّ.
- لكن لماذا قصدتما المستشفى؟
- سقطت كلودين وكسرت ذراعها.
-

أمال رأسه 45 درجة ورفع راحتيه إلى الأعلى كما لو أنّه يسأل «هل تمطر؟».

- هل تذكر رقصة الفتاة التي تقفز هنا وهناك؟
- نعم طبعاً! الفتاة التي يُصَبّ عليها دلوٌ من الماء قبل أن تبدأ بالرقص وهي ممسكة بعمود...
- آه نعم، لكنّني أعني الجزء الذي يدور في صالة الألعاب الرياضية، مع الحكّام.
- نعم، نعم، أتذكّر ذلك. الفتاة ترقص أمام الحكّام وهي تتصبّب عرقاً...
- بالضبط! هل تذكر الجزء الذي تقوم فيه بتلك الركلات الصغيرة؟
- نعم...
- حسناً، تخيّل ذلك على شرفة بدون درابزين.

وضع رأسه بين يديه، قبل أن يميل إلى الخلف وينفجر ضاحكاً. يتجوّل الهواء في جسد هذا الرجل بحرّية هائلة. تخيّلته جالساً مع أصدقائه، يتناولون الشراب، ويلعبون الورق أو يشاهدون مباراة هوكي. ذاك النوع المحبّ للمرح، الذي تصادفه بعد الظهيرة، والذي لا يبدو أنّه يلاحظ الفتيات وهنّ يلتهمنه بنظراتهنّ. بينما كان يضحك ملء شدقيه، رحت أحدّق إلى شفتيه الورديتين، إلى أن تخيّلت نفسي على وشك تقبيله. اقتربت منه برفق، وتلامست شفتانا في اللحظة التي مالت فيها رؤوسنا في اتّجاهين متعاكسَين...

- دايان؟
- أوه... نعم؟
- هل أنت بخير؟
- نعم، نعم، آسفة، أنا متعبة قليلاً لأنّنا عدنا من المستشفى في ساعة متأخّرة.
- اسمعي، أنا آسف بشأن ما حدث مع كلودين.
- لا، هذا ما يحدث عندما تتصرّف كالمراهقين. سنضحك على ذلك قريباً.
- أفترض ذلك.
- تعال ووقّع على جبيرتها عندما تعود، فهذه المرّة الأولى لها على الإطلاق، وهي متحمّسة للغاية. لكن لا تقل لها إنّني أخبرتك.
- لا تقلقي، لن أفعل.

نهض لمرافقتي إلى الباب، بكلّ تهذيب. عندما مدّ ذراعه اليمنى إلى الباب، وضع ذراعه اليسرى بشكل طبيعي على كتفي، ولثانية

طويلة وجميلة، أحاطني بجسده. لم يكن يستخدم أيّ عطر. رغبت في تلك اللحظة أن يتوقّف الزمن حتّى أتمكّن من البقاء على هذه الحال لمدّة أطول، إلى حدّ أنّني وقفت في مكاني.

– شكراً على البطاقة.

– كانت مجاملة صادقة، أردتك أن تعرفي ذلك.

تسارعت انفاسي، وشعرت أنّني سأحتاج إلى كيس ورقي إذا لم أخرج من هناك قريباً.

– إلى اللقاء.

– إلى اللقاء يا دايان.

عندما وصلت إلى الطابق الرابع، ألقيت نظرة سريعة على الممرّ: لا أحد. فخلعت حذائي، وذهبت جرياً إلى مكتبي، حتّى إنّني قطعتُ المسافة ذهاباً وإياباً عدّة مرّات. فقد بدأت أفهم ما عنته كلودين عندما تحدّثَت عن منصّة القفز.

– لن تصدّقيني.

– هل أوقعت نفسك في مزيد من المشاكل؟

– كلّا، بل هي أخبار جيّدة!

– تكلّمي لنرى.

– ذهبت لرؤية جي–بي، كما طلبتِ منّي. شكرته على الشراب، وعلى البطاقة...

– أنت لم تخبريه عن أمسيتنا، أليس كذلك؟

– كلّا، لم أخبره بكلّ ما حدث، بل قلت فقط إنّنا اضطررنا للذهاب إلى المستشفى. على أيّ حال، عندما يرى جبيرتك...

– لأيّ سبب؟

– حسناً... بسبب...

– كلّا، ليس بسبب...

– لأنّك تعثّرت.

– خلال ماذا؟

– أوه... الرقص.

– دايان! سيسخر منّي الجميع!

– لكنّ كلّا، لن يعرف أحد.

– هل أنت جادّة؟ سينتشر الخبر بالتأكيد!

– وماذا في ذلك؟ الأمر ليس خطيراً...

– ليس بالنسبة إليك!

– هل أحزنتك؟

– كنت أخطّط للقول إنّني سقطت من على سلّم وأنا أنظّف مزاريب السطح أو شيئاً من هذا القبيل.

– لكنّها قصّة عادية جدّاً.

– هذا أفضل من إخبارهم أنّني دققتُ عنقي وأنا أتخيّل أنّني في فلاش دانس.

– كلّا! على أيّ حال، طلبتُ من جي-بي عدم قول شيء.

– لا يهمّ، تابعي قصّتك.

– لم يحدث شيء، لكنّه أوصلني إلى الباب وكادت ذراعه تلامس ذراعي...

– و؟

– أحسست بحرارة، شعرت بشيء مثل... الدغدغة.

– أهذا هو الخبر؟

- نعم، إنّه تافه قليلاً.
- تقصدين بالدغدغة شيئاً مثل «الإثارة»؟
- قد تكون هذه مبالغة، لكن نعم، نوعاً ما.
- وماذا عنه؟
- ماذا عنه؟
- هل بدا عليه الشعور بالدغدغة؟
- بالتأكيد لا! كان ذلك في رأسي فقط.
- مع ذلك، لا تستخفّي بقوّة الطاقة العاطفية، لا بدّ أنّه شعر بشيء ما.
- تخيّلتُ فقط أنّني أقبّله، لكنّني لم أقترب منه!
- ربّما، لكنّه شعر بشيء ما حتماً.
- لا تقولي ذلك، سأشعر بالإحراج عندما أراه.
- دايان، منذ اللحظة التي ذهبتِ فيها لرؤيته حاملة ملفّاً زائفاً، من المؤكّد أنّه فهم وجود شيء ما، ما لم يكن أكبر أحمق في العالم.
- هل تعتقدين ذلك؟
- كم حبيباً كان لديك قبل جاك؟
- لا أعرف.
- أجيبي العمّة كلودين بأصابعك.
-
- واحد؟ هل تمزحين معي؟
- بالإضافة إلى شخص خرجت معه لفترة وجيزة، أي واحد ونصف.

– حسناً، منصقة القفز الصغيرة تفيدك حقّاً، واصلي التركيز علـى القبلـة الفرنسـية. أنت على حـقّ، إنّها أخبار جيّدة. ثمّة شيء ما يحدث.

18

ونحن نعتبر بعض الأشياء مثاليّة عندما تكون شبه كاملة وحسب

كما توقّعت شارلوت، ذهبنا نحن الاثنتان فقط إلى بستان التفّاح ومن ثمّ إلى المطبخ. واستفدنا من غياب الآخرين لإعادة ترتيب الأثاث واللوحات، من أجل إخفاء الثقوب والأضرار التي تسبّبتُ بها خلال نوبات غضبي. وتطلّبت منّا بعض الحلول قدراً كبيراً من الخيال.

– هل سيأتي دومينيك لتناول العشاء؟
– لا أعدري، قد يتأخّر، لكنّه سيأتي لاحقاً بالتأكيد.
– وكيف تسير أموركما؟
– ليست سيئة.
– ليست سيئة فقط؟
– حسناً، اكتشفت أنّه كان يرى فتاة أخرى في الخريف الماضي، وقد آلمني ذلك حقّاً.
– لكنكما كنتما منفصلَين.
– كنّا قد انفصلنا للتوّ.
– ربّما كان يحاول نسيانك؟
– مع فتاة مجنونة؟

– شارلوت، العشيقات السابقات مجنونات دائماً، فالأمور أسهل بهذه الطريقة.

– لا، لا، إنّها مجنونة حقّاً.

كنت أنا المجنونة في قصّة شارلين.

– بالنسبة إلى الفجوة في جدار غرفة المعيشة، ما رأيك بإخفائها بالخزانة؟

وصل ألكسندر وجوستين في تمام الساعة السادسة مساءً، مع باقة من الأزهار وزجاجة شراب تمّ اختيارها بعناية لتتناسب مع نكهة الحساء، نباتياً كان أم لا. كانا قد حلقا ذقنيهما وارتديا ملابس أنيقة تتّسم بالذوق كالعادة. عندما احتضنتهما، اشتممت رائحة عطريهما اللذين كانا عبارة عن مزيج لطيف من التوابل ولحاء الشجر. وكعادتهما، ارتديا قميصَين رائعَين ملوّنَين، بعيدَين كلّ البعد عن موضة الهيبستر. وكلّما دخلا غرفة ما، كانت ظلال الضوء تُصبغ بألوانهما. كان ألكسندر نسخة طبق الأصل عن أبيه، وكان يزداد وسامة وهو يكتسب بعضاً من أجمل سمات جاك. حبّ حياتي لن يتركني تماماً.

كما كان متوقّعاً، وصل أنطوان ومليكة متأخّرَين، وهما يتصبّبان عرقاً. وجد ابني في تلك الفتاة النسخة الأنثوية عن نفسه، وكانت مثله تماماً تعيش في بُعد آخر ينقضي فيه الوقت بشكل أسرع. كانا دائماً في عجلة من أمرهما، على الرغم من أنهما لا يملكان لا طفلاً ولا حيواناً أليفاً ولا نبتة. يصلان دائماً لاهثَين، ويعتذران، ولا يكون الخطأ خطأهما أبداً. يرتديان ملابس كما يفعل الأشخاص الذين يتركون كلّ شيء حتّى اللحظة الأخيرة، من دون أيّ تنظيم. وتبدأ كلّ جمل أنطوان بعبارة لم يكن لديّ وقت، لكن... غالباً ما تساءلت كيف يمكنني

إخبارهما أنّ بعض القمصان تحتاج ببساطة إلى الكيّ. لكن بما أنّني لم أجد طريقة مهذّبة ولبقة لقول ذلك، قرّرت أن أغضّ النظر. رغم كلّ ذلك، تمكّنا من إنهاء دراستهما والعثور على وظيفة والاحتفاظ بها. وسيتمكّنان بالطريقة نفسها على ما أعتقد من إنجاب الأطفال وتربيتهم. ومثل أيّ جدّة طيّبة ومعاصرة، كنت مستعدّة لتقديم يد العون، حتّى إنّني أفكّر في البدء بالحياكة.

على الرغم من أنّ فرحة وجودهم جميعاً من حولي كادت أن تنسيني تعاستي، إلّا أنّ كلّ حركة من حركاتهم المليئة بالاهتمام ذكّرتني بها ولم تنجح في إخفاء رغبتهم في إبهاجي ومواساتي. علاوة على ذلك، لم يعلّق أحد منهم على الأثاث المفقود أو المنقول من مكانه، على الرغم من أنّ خزانة المدخل احتلّت مكان أريكتنا الراحلة في وسط الصالة، متحدّية بوضوح كلّ حسّ بالذوق. كانوا يقدّمون لي الماء والشراب والمقبّلات، كأنّني أصبحت عاجزة عن المشي، ويعطونني منديلاً نظيفاً كلّما اتّسخت أصابعي. وأنا واثقة أنّهم كانوا سيرافقونني إلى الحمّام بكلّ سرور لو طلبتُ ذلك. فقد كنت الضحية، كنت الأمَ المهجورة في منزل الأسرة، تلك التي تُركت بمفردها. شعرتُ بوزن نظراتهم كما لو كانت أثقالاً حاولتُ دفعها بالابتسامات والحكايات المضحكة لأظهر لهم أنّني بخير. وقد استمتعوا كثيراً بقصّتَي منفاخ الأوراق والذراع المكسورة.

كنّا نستعدّ للجلوس إلى الطاولة عندما وصل دومينيك. لم أفهم قطّ ما الذي يعجب شارلوت فيه. صحيح أنّه لطيف ومخلص، لكنّه رخو قليلاً، كما لو أنّ عموده الفقري مكوّن من المطّاط. هذا الشابّ يملك الوقت بلا شكّ. فيقول «مهلاً» لكلّ من يتحدّث أو يتنقّل بسرعة

زائدة بنظره، ويسير كما لو أنّه يحاول إبطاء وتيرة العالم، الأمر الذي ينتج عنه عموماً تأثير عكسي عليّ: إذ يسبّب لي التوتّر. لكن بما أنّ ذوق شارلوت لا يعنيني، فأنا أكتفي بدعم علاقتها المتقلّبة.

دومينيك أيضاً مدافع شرس عن حقوق الحيوان. فهو يعمل على الخطوط الأمامية، ويتجوّل في المنطقة بشاحنته الصغيرة لجمع الحيوانات التي يتمّ الإبلاغ عنها، من حمام، وكلاب، وثعابين، وليمور، ورتيلاء، وغيرها. وعندما تتاح له الفرصة، ينتقد قسوة وهمجية الجنس البشري. في الواقع، بعض قصصه مقنعة جدّاً ويمكن أن تسبّب الغثيان. أعترف أنّه يتمتّع بسحر كمنقذ.

شعرت بشيء من القلق عندما رأيته يدخل حاملاً قفصاً بيده. فماذا لو أحضر معه حيواناً سامّاً، أو سحلية بدون ذيل، أو هامستر أعمى بدون فراء، أيّ نوع من الحيوانات التي تعرّضت للأذى وتحتاج إلى المساعدة.

– أهلاً دومينيك.

– مرحباً ديدي!

لم أضطرّ أبداً لأن أطلب منه رفع الكلفة بيننا. فقد ناداني باسم «ديدي» منذ لقائنا الثاني.

– ماذا جلبتَ لنا اليوم؟

– مهلاً يا أمّي، مهلاً! دعيني أشرح لك أوّلاً.

هُرعت شارلوت نحونا، وأمسكت بالقفص، ثمّ وضعته عند قدميها محاولة إخفاء الباب السلكي، لكي لا نرى ما يوجد بداخله. شعرتُ حقّاً بالخوف، لكنّها أصرّت على أن نستمع إليها قبل أن ننظر.

لم نفاجأ عندما بدأت تروي لنا قصّة هرّ صدمته سيّارة، واعتقد

أصحابـه أنّـه مـات، لكنّه عاد إلى الحيـاة في كيس القمامة الذي ألقي فيـه. مـزّق القـطّ الكيس، وهرع عائداً إلى أصحابه، لكنّ هؤلاء خافوا على حياتهم. فقد شـاهدوا فيلم سـتيفن كينغ، مقبرة الحيوانات (*Pet Sematary*)، واعتقـدوا أنّ الهـرّ نـوع مـن الزومبـي الذي عاد من بين الأمـوات لقتلهـم. فاتّصلـوا بالملجـأ لإرسـال أشـخاص لأخـذ الهرّ وقتله، لأنّه كان يرفض مغادرة شرفتهم بعد أن أصيب بجروح بليغة. ذهب دومينيك لأخذه، ووعد بإعطائه حقنة (كانت كذبة لكي يتمكّن أصحابه من النوم في تلك الليلة)، ثمّ عاد به إلى الملجأ. فوافق الطبيب البيطري المناوب على معالجته، وأعطاه حياة ثانية، أو مجموعة ثانية من سبع أرواح، ذلك أنّ العلم لم يتّخذ قراراً بعد في هذا الشأن.

– لقـد شُـفي الهـرّ الآن، وهـو ذكـر صغيـر جميـل لـم يتجاوز العـام مـن العمـر. تمّ ختانه، وعلاجه مـن الديدان، وإعطاؤه اللقاحات اللازمة. كما أنّه لطيف للغاية ومحبّ، وناعم...

– يا سلام هرّ!

– نريد رؤيته، نريد رؤيته!

– أخرجيه!

لا يمكننـي الإنـكار أنّ شـارلوت فتاة ذكيـة. فهي تدرك جيّداً أنّ الطريقة الوحيدة التي يمكنها فيها أن تفرض عليّ تبنّي هرّ هي بإعطائي إيّـاه أمـام الجميـع، فـي لحظـة لا يمكننـي فيها أن أغضـب أو أحاول الاحتجاج من دون أن أتعرّض لوابل من الحجج المنطقية المضادّة. كما أنّ فوائد العلاج بالحيوانات الأليفة معروفة جيّداً.

فتحت شارلوت الباب بلطف، فخرج الهرّ منه، وبدا خائفاً قليلاً من كلّ الوجوه التي تحدّق إلى القفص. لم أدرك على الفور الخطب

الذي يعاني منه، لأنّ فراءه الرمادي والأسود حجب حركته إلى حدّ ما.

– مهلاً! ليس لديه سوى ثلاث قوائم!

– أوه، أيّها الصغير المسكين!

– ماذا؟

– همم...

لم يكفها أن أحضرت لي هرّاً، بل كان بثلاث قوائم. كان التشوّه الذي يعاني منه مثيراً للحنان والاشمئزاز على السواء. ولو أنّني وضعته في كيس قمامة معتقدة أنّه مات، لما كنت سأرغب في رؤيته يخرج منه. قام ببضع خطوات خارج القفص، ثمّ توقّف، وأراح النصف المتبقّي من مؤخّرته على السجادة، مثل قطعة خزف مكسورة.

– أوه! كم هو لطيف!

– يا إلهي، يا لجمال هذا الصغير!

– لكنّه مثير للاشمئزاز بعض الشيء.

– أنطوان!

– أجد هذا غريباً.

– سترى، إنّه لطيف للغاية.

ابتسمت لي شارلوت، ثمّ تمتمت قائلة: «لا تقلقي، سأعيده معي». غير أنّها أشاحت بنظرها فوراً عندما سألتها عن رأي زميلاتها في السكن.

في الواقع، أنا لا أعاني من حساسية تجاه القطط أو الكلاب أو أيّ شيء آخر، بل يصعب عليّ احتمال نافخات الأوراق وحسب. لم نحضر يوماً حيوانات أليفة إلى المنزل عندما كان الأولا صغاراً، لأنّ جاك شعر أنّها ستعقّد حياتنا بلا داعٍ. فهو يكره الوبر الذي يلتصق

بالأقمشة، وينزلق في الطعام، ويتجمع في كتل صغيرة تحت الأثاث. فلم أصرّ على ذلك. وحتّى مجيء شارلوت، نسيت تماماً أنّني كنت أحبّ القطط.

لم يطأ ستيف – نعم، هذا هو اسمه، من دون مزاح – بقوائمه الثلاثة الأرض طوال السهرة. ولو أنّه خسر كلّ أطرافه، لما غيّر ذلك شيئاً. فقد تناوب الجميع على حمله، وتحوّل العشاء ببطء إلى ليلة من الحكايات عن القطط؟ فبفضل فيسبوك، كان الجميع يعرفون، أو يتلقّون، آلاف القصص عن القطط. من أخبار القطط الصغيرة التي تملك شكل قلب بين أعينها، إلى تلك التي تلد في صناديق القمامة، والقطط الغبية التي تعلق تحت أغطية السيّارات أو في أنابيب العادم، إلى تلك الخارقة التي تنقذ طفلاً أو امرأة أو كلباً... وعندما روت لنا مليكة كيف قلتلت جدّة صديقتها قطّتين صغيرتين وهي تهبط الدرج – لأنّ القطط الصغيرة كانت تحبّ النوم على سجّادة الدرج المؤدّي إلى القبو – ضحكتُ حتّى انهمرت دموعي على الرغم من الحادثة المأساوية والتعابير المرعوبة التي ارتسمت على وجه شارلوت، طبيبة المستقبل البيطرية، الحسّاسة والناجحة.

بطبيعة الحال، تحوّل الحديث بعد ذلك إلى حياة كلّ منهم، بما فيها من أفراح وأتراح. كان قد مضى وقت طويل منذ أن شعرت بالفرح حقّاً. أحسست أنّ الهواء الذي أتنشّقه وصل إلى أعماق رئتيّ، إلى تلك الزاوية التي لم يبلغها منذ أشهر. سيكون ذلك جيّداً للركض.

عندما كان أولادي صغاراً، كنت أتعجّب من كيفيّة بقائهم على قيد الحياة حتّى نهاية كلّ يوم. فقد كان من الممكن أن يتعرّضوا للصدم بسيّارة أو الخطف أو الإصابات، لكن لا، كانت دعواتي

تُستجاب، ويعودون إليّ كلّ يوم سالمين، باستثناء خدش هنا أو هناك. والآن بعد أن خرجوا عن سيطرتي، اقترن هذا الخوف العميق بنوع من الامتنان، فقد عرفت أنني محظوظة للغاية وأنا أشاهدهم يكبرون. وبعد خمسة وعشرين عاماً، حين سنجتمع حول هذه الطاولة نفسها، ستستمرّ قصص حياتنا الصغيرة بتغذية فولكلورنا العائلي الذي سيكتسب أصواتاً جديدة مع كلّ ارتباط جديد، أو انفصال محتوم. لم يسبق لي أن شعرت بهذا التأثر على مائدتي. حسناً، في عالم مثالي، لن يكون ثمّة هواتف محمولة، لكنّ ميزة عيوبنا أنّها تساعدنا على تقدير حسنات الباقي على نحو أفضل.

لم نتحدّث عن جاك ولا عن تداعيات انشقاقه عن نواتنا. فقد يصبح تنظيم الأعياد والمناسبات الخاصّة والزيارات مربكاً، لكنّنا سنعبر هذا الجسر عندما نصل إليه. في الوقت الحاليّ، لم نكن مستعدّين للإخلال بالتوازن الهشّ في حياتنا الجديدة. كان الأولاد يعانون هم أيضاً، بالطبع، وسيحتاجون إلى الوقت لتعلّم كيفيّة تكوين أرشيف جديد من الذكريات، وحبّ كلّ منّا في لوحات منفصلة. ولملء غياب جاك عن عشائنا في تلك الليلة، استبدلت طبقه بالخبز، والزبدة، وإناء الأزهار، وزجاجات الشراب، وإبريق الماء. واستعضت بذلك عن المساحة التي خسرتها عندما تخلّصت من بوفيه والدته. كان كلّ شيء مثاليّاً.

عندما حان وقت المغادرة، عانقني ألكسندر وجوستين معاً بقوّة من دون أن يقولا شيئاً، فكدت أبكي من التأثّر. وأكّد لي أنطوان أنّه سيأتي ليعتني بالفناء بمجرّد أن يجد الوقت لذلك – لم أخبره شيئاً عن السيّد نادو، بل أردته أن يعتقد أنّني أعوّل عليه – بينما اعتمدت

شارلوت الحيلة الكلاسيكية.

– هل يمكنني أن أترك الهرّ عندك قليلاً، فقط ريثما أتحدّث مع الفتيات؟

– يبدو لي...

– هذا لأنّني اضطررت لأخذه على الفور، لأنّهم يريدون عرضه للتبنّي، أنت تفهمين...

– بالطبع، أفهم، اتركيه هنا حتّى تنظّمي الأمور.

– شكراً يا أمي! أشكرك حقّاً! أنت رائعة!

عندما كانت طفلة، اعتادت على إحضار جميع أنواع الحيوانات التي قد يكون بعضها مزعجاً أو نتناً، منها ما تعثر عليه في الشارع – كحمامة، أو فأر جريح «لطيف جدّاً»، أو سنجاب سقط من جحره، إلخ. – ومنها ما يعطيها إيّاه الأصدقاء – كلب، أو هرّ، أو سحليّة، أو نمس، إلخ. وكنّا نضطرّ لخداعها للتخلّص من تلك المخلوقات، الأمر الذي سبّب لها الحزن دائماً. لذلك فإنّ قرارها بأن تصبح طبيبة بيطرية لم يفاجئ أحداً.

– لدى دومينيك طعام وصندوق رمل في الشاحنة.

– حسناً، يبدو أنّكما خطّطتما لكلّ شيء!

– إذا كنت غير قادرة أو غير راغبة في ذلك، لا بأس، سأرتّب الأمر.

– كيف؟

– أوه...

– لا بأس يا حبيبتي، فالمسألة مؤقّتة، كما قلتِ.

– طبعاً، طبعاً، سآخذه بمجرّد أن تعطيني الفتيات الضوء

الأخضر.

– هل يستطيع صعود الدرج؟

– نعم. يستغرق منه الأمر بعض الوقت، لكنّه قادر على ذلك، فهو يتنقّل مثل هرّ عادي.

– هل يستعمل أيّ أدوية؟

– كلّا، لقد شفي تماماً. راقبيه مع ذلك، لكنّ كلّ شيء على ما يرام.

– هل سيبول في أرجاء المنزل؟

– كلّا، إنّه مدرّب على استخدام صندوق الرمل.

– وما هي كمّية الطعام التي يجب أن أعطيه إيّاها؟

– ثمّة مكيال في الحقيبة، أعطه واحداً في الصباح وآخر في المساء.

– وماذا إن لم أعد في المساء؟

– أوه! هل لديك ما تخبرينا به؟

أضاء وجهها، وجمعت يديها الصغيرتين كأنّها في صلاة. كانت تودّ حقّاً أن أتمسك بطوق نجاة، لكنّني لا أستطيع إخبارها أنّني شعرت بالحرارة عندما اقترب منّي جي-بي ليفتح لي الباب، وإلاّ ستشفق عليّ. وبالتأكيد لم أرغب في إخبارها كم كنت واثقة أنّه لن تكون لديّ حياة عاطفية مجدّداً.

– أنا أخرج أحياناً لتناول العشاء مع كلودين.

– آه! لا داعي للقلق، يكفي أن تضاعفي له الكمّية في الصباح.

– وهل يمكنه الخروج؟

– كلّا، ليس بعد، فما زال ينقصه لقاح.

– على أيّ حال، لن يستطيع تدبّر أمره في الخارج.

– بل على العكس، إنّه ذكيّ للغاية.

تركوا مطبخي يتلألأ من شدّة النظافة، كما لو كنت أتوقّع زيارة مشترين محتملين. أعترف أنّ تعاطف أولادي مع وضعي كضحيّة له مزاياه.

لحق بي الهرّ ستيف إلى الطابق العلوي، واستلقى على سجّادة الحمّام الناعمة بينما كنت أزيل مساحيق التجميل عن وجهي، ثمّ اندسّ معي في السرير، واستلقى على وسادتي وهو يخرخر. نظرت عن كثب إلى الندبة التي خلّفتها قائمته المبتورة بينما كان يلعق جبهتي. وأدركت في اللحظة التي التصق فيها بعنقي أنّ كلّ هذا ليس سوى فخّ وقعتُ فيه بكلّ سذاجة.

– هل يعجبك اسم ستيف؟

–

– هذا ليس اسماً يليق بهرّ يا ستيف.

–

– سنجرّب شيئاً آخر.

استغرق الأمر منّي ثلاثة أيّام للعثور على الاسم المثالي. ثلاثة أيّام، أُغلقت خلالها المصيدة عليّ ببطء، وبتّ أتطلّع للعودة إلى المنزل للقاء هرّي الأعرج.

– رفيق الدرب، لأنّك تلحق بي كظلّي. ما رأيك؟

–

– لا بأس، هذا اسمك من الآن فصاعداً.

–

– اسم مركّب أيضاً، كم أنت محظوظ.

وهكذا بدأتُ أكلّم الحيوانات.

– إذاً؟

– كلّا، لم أفتحه بعد.

– هل أنت جادّة؟ هاتيه وافتحيه حالاً.

– لا أستطيع، فقد خبّأته في الحائط.

– وكيف ذلك؟

– طويته ثمّ أقحمته في ثقب جدار الصالة.

– اذهبي وأخرجيه!

– لا أستطيع، فالثقب على ارتفاع نحو ثلاثة أقدام، والمغلّف سقط في الأسفل.

– ولا يمكنك الوصول إليه حتّى لو أدخلتِ ذراعك؟

– كلّا، سيكون عليّ توسيع الثقب نحو الأسفل.

– وسّعيه إذاً. على أيّ حال، سيتعيّن عليك إصلاح هذا الجزء من الجدار.

– لا أستطيع.

– لمَ لا؟

– لأنّ الخزانة الكبيرة تخبّئ الثقب.

– ادفعيها جانباً.

– لا أستطيع فعل ذلك بمفردي. فهي تزن طنّاً.

– وكيف وصلَت إلى هناك؟

– ساعدتني شارلوت ليلة أمس.

- حقّاً، أنت حالة ميئوس منها.
- أنا لست جاهزة بعد، لست قويّة بما فيه الكفاية.
- حسناً، سنغلق هذا الملفّ في الوقت الحاليّ. هل اتّصلت بجاك؟
- كلّا، قلت له إنّني سأتصل في الثالث والعشرين من الشهر.
- لكن ألا تشعرين بالفضول؟
- حول ماذا؟ حول الطلاق؟
- ربّما كان السبب مختلفاً.
- إذا كان ينوي العودة، فإنّني سأعرف.
- أوه...طبعاً.

لو أخبرتها أنّني ما زلت أتمسّك بآمالي السخيفة بعودته، لجاءت وحطّمت الحائط بجبيرتها.

- أياً يكن ما سيقوله، فمن المحتّم أنّه سيزعجني.
- أنت محقّة، لا داعي للعجلة. إلى اللقاء غداً.
- هل ستعودين إلى العمل؟
- لا شكّ أنّ الملفّات تراكمت على مكتبي منذ الأسبوع الماضي. أفضّل العودة بينما لا يزال بإمكاني التعويض عن غيابي. بالإضافة إلى ذلك، تمّ استدعائي لحضور اجتماع مهمّ.

19

وأنا أكتشف أنّ الهاوية لا قرار لها أحياناً

عندما استقبلتني جوهان، سكرتيرة القسم الذي أعمل فيه، صباح اليوم التالي، رأيت تجاعيد عمودية عميقة تخطّ منتصف جبهتها. لطالما أعجبتني هندسة وجه تلك المرأة.

– اتّصل بك شخص ما عدّة مرّات. بدا الأمر مهمّاً، لكنّني لم أرغب في إعطاء رقم هاتفك الخلوي.

– ألم يظهر الاسم؟

– كلّا، اتّصال من رقم مجهول.

– رجل أم امرأة؟

– امرأة.

– امرأة؟ هل تعرّفتِ على الصوت؟

– كلّا.

– شابّة أم مسنّة؟

– أُفٍ! يصعب القول، ربّما في سنّ متوسّطة. قالت إنّها ستعاود الاتّصال.

ثمّة حفنة لا بأس بها من النساء اللواتي يكرهنني حاليّاً. ألقيت نظرة خاطفة على الهاتف قمحيّ اللون في مكتبي البنّي، الذي سيصبح قريباً عنّابياً – لم يتمّ اعتماد لون روث الإوزّ، لأنّه لم يحصل سوى

على صوت واحد. بناء على نصيحة كلودين، حاولت أن أبقى هادئة من خلال التفكير في شيء إيجابي. فتخيلت نفسي وأنا أتصالح مع جيراني حول قطعة من فطيرة التفّاح. كما فكّرت في ذراع جي-بي، وفي أمسية العشاء الناجحة، وفي هرّي الصغير.

عندما رنّ الهاتف، انتزعت السمّاعة بقوّة، لدرجة أنّ القاعدة حلّقت من فوق مكتبي، الأمر الذي اضطرّني إلى الانحناء فوق ملفّاتي لكي لا ينقطع الاتّصال مع تمدّد السلك بأقصى طوله.

– نعم! دايان ديلونيه تتحدّث!

– مرحباً.

– مرحباً!

– يجب أن نتكلّم.

– من معي... ؟

– هل يمكننا اللقاء وجهاً لوجه؟

– أوه... نعم، متى؟

– في أسرع وقت ممكن.

– في الحال؟

– نعم، بإمكاني ذلك.

– أنا بانتظارك في مكتبي.

– أفضّل اللقاء في مكان آخر.

– في مكان آخر؟ سيكون ذلك صعباً بالنسبة إليّ.

– يمكننا أن نلتقي لاحقاً، بعد دوام العمل، إذا كانت تفضّلين ذلك.

– كلّا، سأتدبّر أمري. ثمّة مقهى صغير يدعى كافيه، على

بولفارد رينيه ليفيسك، بجوار مكتبي.

– هذا يناسبني.

– يمكنني لقاؤك هناك في غضون عشر أو خمس عشرة دقيقة.

– ممتاز.

أغلقت المرأة ذات السنّ غير المحدّد الخطّ من دون أن تكلّف نفسها عناء إخباري من تكون أو كيف ستتعرّف على بعضنا البعض. كانت تعرف اسمي، أمّا الباقي فستدبّر أمره على ما أعتقد.

– جوهان، استلمي رسائلي من فضلك. لديّ موعد مع المرأة المجهولة.

– تلك التي اتّصلت في الصباح؟

– نعم.

– ألم تخبرك باسمها؟

– كلّا.

– وأين اللقاء؟

– في المقهى المجاور. إذا لم أعد بعد نصف ساعة، أرسلي الشرطة.

– هل تعتقدين أنّها خطيرة؟

– بالطبع لا، كنت أمزح! فالساعة 9:15، ونحن نجتمع في مقهى مليء بالناس.

مع ذلك، شعرت بشيء من الخوف وأنا ذاهبة للقاء المرأة الغامضة. وتكوّن لديّ إحساس رهيب أنّه على الرغم من كلّ الحيل التي قمتُ بها لتجنّب المغلّف، فقد كان على وشك أن يُفتح من تلقاء نفسه.

كانت كلوديـن فـي اجتماع، غير أنّي أرسـلت لها رسـالة نصّية لإخبارهـا أنّـي ذاهبـة لرؤيـة امـرأة قد تكـون قاتلة متسلسـلة. هكذا، سـيكون ثمّـة شـخص آخـر فـي حالة تأهّب إذا لم أخـرج من المقهى على قيد الحياة. بدأت أرى نفسي في حوض استحمام، وقد خسرت إحدى كليتَيّ.

بمجـرّد وصولـي إلـى المقهى، وقع نظري علـى المرأة المعنيّة. كانـت تجلـس بهـدوء، مسـتقيمة الظهـر، مـن دون أن تحرّك سـاكناً، ويداها مضمومتان أمامها. على عكس بقيّة رواد المطعم، لم تكن تنقر بعصبيـة علـى هاتفهـا أو على جهاز الكمبيوتر. أفترض أنّ اسـم دايان ديلونيه واضح على سحنتي. فقد أشارت إلى المقعد الفارغ المقابل لها من دون أن تمدّ يدها لمصافحتي. بدا سلوكها الفاتر مطمئناً، فهي لـم تكـن تتطلّـع إلى إرضائي. لم تأت لتعتـذر عن إغواء زوجي بينما كنـت أركّـز علـى حياتـي الهادئة السـعيدة، بل علـى العكس من ذلك تماماً: فهذه المرأة غاضبة منّي.

أطلقَت تنهيدة عميقة وهي تجلس، ولاحت على شفتيها ابتسامة عابـرة بـدت مـن خـلال الخطوط الدقيقـة التي ظهرت حـول عينيها. كانـت امـرأة جميلـة للغاية، كأنّها كيت وينسـلت، لكن من جيل آخر. ولا شكّ في أنّها مسنّة بالنسبة إلى ذوق جاك الجديد.

– أنا أدعى ماري.

امراة جميلة ذات اسم جميل. بعض الناس يولدون هكذا.

– دايان ديلونيه.

– أعرف.

– هل نعرف بعضنا؟

– نعم، بشكل غير مباشر.

كانت القنبلة على وشك الانفجار، فقد شعرتُ بوجود شيء مزعج بيننا. إذا توقفَت عند هذا الحدّ، فقد لا تنهار حياتي. أمّا إذا استمرَّت، فإنّها ستقضي عليّ ببضع كلمات قاتلة.

– نحن ننتعل حذاءَين متشابهَين.

مدّت ساقَيها من تحت الطاولة لتريني حذاءها الأزرق الجميل.

– يا إلهي! أنت زوجة جي–بي؟

ارتعشت شفتها، واغرورقت عيناها.

– نعم.

ابتسمتُ ابتسامة عريضة، أمّا هي فبدت على وشك الانهيار.

– ماذا يجري؟

– تلقّيتُ مكالمة.

– ممّن؟

– من شخص مجهول.

– أوه! كما في الأفلام.

–

– إيه؟

– تلقّيت مكالمة من شخص ما... قال لي... قال لي أمراً عنك وعن جان بول.

– ماذا؟

ساورني شكّ عابر، نصف ثانية من الذعر. قصّتي مع جي–بي، إذا جازت تسميتها قصّة، لم تحدث إلّا ضمن سلسلة من الأنابيب الجيلاتينية التي تكوّن دماغي، بداخل جمجمة محكمة الإغلاق.

– وماذا قال لك هذا الشخص بالضبط؟

– إنّه أهداك حذاء مشابهاً.

– لا، لا! بل اشتريتُه عبر الإنترنت...

– مع شراب وبطاقة.

وضعت يديها على فمها، كما لو أنّها تجشّأت عن غير قصد. كانت المعاناة تحرق معدتها.

– حسناً يا ماري، فلنقم بتصويب المسألة. أنت تنتعلين أحذية بمقاس 8.

–

– مثلي تماماً.

–

– وعندما سألني جان بول من أين اشتريت حذائي، لأنّه أعجبه، خلعت الحذاء، وأعطيته إيّاه، وفررت هاربة... هاه هاه... كانت تلك حماقة منّي... هاه هاه... ثمّ خرجت من المكتب بجواربي... هاه هاه...

فقدتُ أعصابي، ورحت أضحك بجنون. حدّقت إليّ كيت وينسلت كما لو كنت مختلّة. كلّ النساء مجنونات يا ماري، كلّهنّ. كلّ منّا مجنونة بالنسبة إلى أحدهم.

– بعد ذلك، أعاد الحذاء إليّ في كيس هدية كبير مع زجاجة شراب في كلّ فردة، من باب الشكر. وطلب لك الحذاء نفسه! كان هذا سهلاً بوجود العلامة التجارية ورقم الطراز.

– سمعت أنّكما التقيتما عدّة مرّات.

– من قال لك ذلك يا ماري؟ هل يمكننا رفع الكلفة؟ أما زلنا

نتحدّث عن المتّصل المجهول؟

– هذا ليس مهمّاً...

– لا بل على العكس، هذا مهمّ للغاية، لأنّ الشخص الذي أخبرك بذلك حاقد عليّ لسبب أو لآخر، وهو يسعى إلى إيقاعي في المشاكل للانتقام منّي. فبعض الناس يحبّون ذلك، وإن يكن هذا السلوك محزناً. أعتقد أنّني أعرف من اتّصل بك.

– ربّما ولكن...

– أنا لم أر جان بول قطّ خارج المكتب طوال حياتي، ولم يحدث شيء بيننا، ولن يحدث شيء على الإطلاق، أقسم بذلك على حياة أولادي. حتّى إنّني لست متأكّدة من أنّنا تصافحنا يوماً. انظري إليّ يا ماري، أنا في الثامنة والأربعين من عمري، وقريباً سأبلغ التاسعة والأربعين، وقد انهار زواجي أمام عينيّ بعد ارتباط دام خمسة وعشرين عاماً. حين لا أكون منهارة جدّاً، أحطّم منزلي بالمطرقة، بين جرعتين من الشراب، مثل مجنونة حقيقية. فهل تعتقدين حقّاً أنّ زوجك قد يقع في حبّ امرأة مثلي؟

– ... لا أعلم...

– هل تعتقدين حقّاً أنّ زوجك قد يرغب في عناق امرأة مثلي؟

هذه المرّة تركَت كلّ شيء لتنظر إليّ نظرة فاحصة. انتقل نظرها من منحنى أنفي الروماني الملتوي، وتوغّل في تجاعيد وجنتَيّ العميقة، وصولاً إلى ذقني المترهّلة. ابتسمتُ عندما عاد نظرها إلى عينيّ، المحاطتين بهالتين أرجوانيتين لم يعد من الممكن إصلاحهما.

تمنّيت في تلك اللحظة ألّا تجيبَني أبداً.

- كلّا.
- بالطبع، هاه هاه...
- هاه هاه... هاه هاه...

داهمنا الضحك، وحرّرَنا من تلك المحادثة الثقيلة في صباح يوم اثنين. ولأنّ شرّ البلية ما يضحك، ذرفتُ بضع قطرات من الدموع التي يسهل الخلط بينها وبين ما لم تكن عليه. كانت دموعها تخفي شيئاً آخر أيضاً، شكلاً من أشكال الخلاص. الآن، وبعد أن ضحكَت، استطعتُ أن أرى بوضوح كم كانت مشرقة.

- هل سبق أن شككت بزوجك قبل هذا الاتّصال؟
- كلّا، مطلقاً.
- حسناً، لا تفعلي الآن إذاً. فالرجل الذي يبذل كلّ هذا الجهد لشراء حذاء إيطالي باهظ الثمن هو حتماً مغرم.
- صحيح...
- هل سبق لك أن عملت في مبنى مكاتب كبير مليء بالموظّفين المقيّدين إلى مكاتبهم طوال اليوم؟
- كلّا، أنا أعلّم في المدرسة الابتدائية.
- رائع! وبطلة أيضاً!

ودّعنا بعضنا بمصافحة صادقة. كنت في عجلة من أمري للعودة إلى المكتب وتسوية بعض الحسابات.

- هل من رسائل لي يا جوهان؟
- إذاً؟ من كانت؟
- حقّاً، لا يمكنني إخبارك، لكنّني أقسم أنّ المسألة ليست

مهمّة. دعينا نقول إنّه مجرّد سوء تفاهم.

– حسناً، هذا جيّد، فقد انتابني القلق. لم تصلك أيّ رسائل، لكنّ هذا ليس معتاداً في الصباح، لا أدري ماذا يجري.

– ممتاز، أنا ذاهبة لرؤية جوزيه وسأعود على الفور.

– جوزيه؟

– جوزي.

– آه؟

– اسمها الحقيقي جوزيه.

– حقّاً؟

– نعم، سيّدتي.

– هذا مضحك، يعجبني اسم جوزيه أكثر.

نزلتُ السلّم إلى الطابق الرابع. فقد كان عليّ أن أهدأ، وأسيطر على أعصابي. ولدى التفكير في الأمر، أعتقد أنّه كان يجدر بي النزول إلى الطابق تحت الأرضيّ والصعود مجدّداً ببطء شديد.

كالعادة، استقبلتني جوزيه بابتسامة زائفة قبل أن تسألني، بلطفها الزائف كزيف أظافرها، ما إذا كان بإمكانها المساعدة. كانت ترتدي سترة بيضاء رائعة بلون قشر البيض.

– بالتأكيد، يمكنك مساعدتي. هل جان بول هنا؟

– كلّا، إنّه في اجتماع مع المدراء التنفيذيين. لا ينبغي أن يتأخّر، هل تريدين... ؟

صفعتُ مكتبها براحة يدي، بحيث ارتجّ كلّ ما عليه. فقفز الراعي الخزفيّ الصغير، وأفلتت كلّ الأقلام من الكوب الذي يُفترض أن يبدو مصنوعاً من الكريستال. بما أنّ فنجان قهوتها بقي صامداً، وضعتُ

إصبعي فيه لأتحقّق من درجة حرارته - فاتر، ممتازا - فحملتُ الفنجان من أذنه، وألقيت بمحتوياته عليها، مصوّبة على الستَرة البيضاء. تعاونَ معي النسيج تماماً، وامتصّ جزءاً كبيراً من السائل، بينما انسكب الباقي حولها، وتناثرت القطرات في كلّ مكان.

- أووه!
- آآآآآآه! أنت مجنونة!

بدأت تمسح طيّات السترة بيد محمومة، لكنّ أنسجة المناديل تفتّتت عندما لامست النسيج المبلّل. اقتربتُ منها وأنا أصرّ على أسناني، مصوّبة إصبعي إلى أنفها المكسوّ بمسحوق التجميل.

- في المرّة القادمة التي تتجرّئين فيها على نشر الشائعات القذرة، تجسّسي على نحو أفضل!
- لا يمكنك الإفلات هكذا! سترين!
- حقّاً؟ هل تريدينني أن أخبر جي-بي أنّك اتّصلتِ بزوجته وطعنتِه في ظهره؟
- خسيسة!
- آمل أن تكون سيرتك الذاتية محدّثة، أيّتها الحقيرة.

وبهذه الكلمات المعسولة، عدت إلى الطابق الخامس وأنا أصفر لحناً لجو داسين. كان هذا اليوم يتّخذ منحىً مسلّياً. لم يحن وقت الاستراحة بعد، ومع ذلك عشت قدراً من الانفعالات التي ما كنت لأعيشها في عام كامل في الماضي. تلك هي الناحية الإيجابية في كوني مملّة: أكثر الأمور تفاهة تصبح مغامرة مثيرة.

تركت لي كلودين ثلاث رسائل نصّية عاجلة تطلب منّي فيها القدوم لرؤيتها في أسرع وقت ممكن. كان اجتماعها الكبير قد انتهى

للتوّ، فذهبتُ جرياً إلى مكتبها ودخلت بشكل مفاجئ.

– مرحباً! كيف حال ذراعك هذا الصباح؟

– لا بأس.

– جيّد! اسمعي، لن تصدّقي، اتّصلت جوزيه بزوجة جي–بي وأخبرتها أنّنا على علاقة غرامية. علاقة غرامية! يا ليت! تلك الخسيسة – نعتتني للتوّ بالخسيسة، ولذلك يحقّ لي استعمال هذه الكلمة – تلك الخسيسة فتحت كيس الحذاء قبل إحضاره إلى مكتبي، واعتقدَت أنّ جي–بي اشتراه لي! كانت تتجسّس علينا، تلك المتطفّلة! كلّما ذهبتُ لرؤيته، تتخيّل أنّنا نرى بعضنا في السرّ! لا بدّ أنّها معتوهة لتختلق قصصاً من هذا القبيل! وهل تعرفين كيف وصلني الخبر؟ اسمعي، اتّصلت بي زوجة جي–بي شخصيّاً هذا الصباح، وطلبَت أن نلتقي، لكنّني لم أكن أعرف هويّتها إلى أن وصلت إلى المقهى. خفت كثيراً، حتّى إنّني طلبت من جوهان الاتّصال بالشرطة إذا لم أعد. فقد كان من الممكن أن يكون الأمر خطيراً، لكوني لا أعرف بمن سألتقي، ألا توافقين؟ ألم تصلك رسالتي؟

– بلى، بلى.

– بدا لي أنّه من الأفضل إخبار شخصين بالأمر. على أيّ حال، بمجرّد وصولي إلى هناك، تعرّفت عليها بسهولة، فقد كنّا نملك الحذاء نفسه! أدركتُ على الفور أنّها زوجة جي–بي. المسكينة، ليتك رأيت وجهها، كانت محطّمة، أؤكّد لك ذلك، مدمّرة تماماً... هل أنت بخير؟

– أجل، أجل.

– لذلك وضّحت الأمور على الفور، ثمّ سألتها عمّا إذا كانت تعتقد حقّاً أنّ زوجها قد يقيم علاقة معي... لكن لا، أجابت بالنفي، وكان من المهين نوعاً ما أن تعتقد أنّني قبيحة، ولكن لا أهمّية لذلك، قمنا بتصويب الأمور فوراً. آه، ليتك رأيتِها! أقسم أنّها صورة طبق الأصل عن كيت وينسلت، بعينيها الجميلتين البرّاقتين... حقّاً، هل أنت بخير؟

بدت لي شاحبة على نحو غير معهود.

– ماذا يجري؟

كان التاريخ يعيد نفسه. فمنذ الساعة التاسعة صباحاً، هذه المرأة الثانية التي أطرح عليها السؤال نفسه بقلق بالغ.

– كلودين؟

عرفت أنّ المسألة خطيرة عندما نهضت وأتت لتجلس بجانبي، على كرسيّ الشكاوى الثاني الأقلّ استخداماً. فجأة، عجزتُ عن التنفّس، وشعرت أنّها على وشك إخباري أنّها مصابة بالسرطان، أو ربّما أسوأ.

– حسناً، تكلّمي، أنت تخيفينني.

– دايان...

– انطقي!

– إنّهم يعيدون الهيكلة.

– من؟ ماذا؟ هل خسرتِ وظيفتك؟

– كلّا...

– حمداً لله! لقد أخفتني.

–

– ماذا؟ أنا؟

أومأت برأسها ببطء، كما لو كانت تفرمل الصدمة الناجمة عن الخبر.

– أنا؟

– ثلث الموظّفين. سيقومون بنقل جميع المناصب الإدارية إلى تورونتو.

– ثلث الموظّفين؟ هذا عدد كبير!

– نعم، كثير من الأرواح ستُسحق...

– وأنت من يُعلن النبأ؟

– طلبوا منّي مقابلة شخصين في كلّ مرّة، لتسريح الجميع خلال أسبوع بدلاً من أسبوعين.

– هل أنت جادّة؟

– قلت لهم أن يذهبوا إلى الجحيم.

– لا يفاجئني ذلك.

– نعم، يمكنني أن أفلت من العقاب لأنّهم بحاجة إليّ للقيام بعملهم القذر. وأكّدوا لي أنّه لا داعي للقلق، لأنّ لديهم فريقاً من علماء النفس المستعدّين للمساعدة. الأمر أشبه بخطّ التجميع: أعلن لهم أنّهم خسروا وظائفهم، فيقومون بجمع أشيائهم، ثمّ يتوجّهون إلى المستشار النفسي.

بدأت أجواء نهاية العالم تكتسح حياتي. لطالما اعتقدت أنّها ستحدث إثر موجة تسونامي عملاقة، أو كرة ناريّة، أو شيء هائل جدّاً. لكنّها تندفع نحوي في أبسط أشكالها، عبر سلسلة من الكلمات

القاتلة التي تجعلني أرغب في التقيّؤ: إعادة هيكلة إدارية.

- سأحظى الآن بوقت لا بأس به من الفراغ.

- ستنالين مكافأة نهاية خدمة لمدّة ستّة أشهر.

- ممتاز.

- دايان، لا أدري ماذا أقول...

- لا شيء يقال، أنا لا أحسدك على موقفك.

- يا إلهي، كم أكره عملي أحياناً.

- اسمعي، أعتقد أنّني سأعود إلى المنزل على الفور، فأنا متعبة. هل يمكنك أن تطلبي من شخص ما جمع أشيائي؟ سيتدبّرون أمرهم مع الملفّات. ملفّ مردوخ تفوح منه رائحة الاحتيال.

- سأهتمّ بالأمر، سأطلب من إميل وضع أشيائك في صناديق.

بدأت تبكي عندما عانقتني، لكنّني لم أستطع أن أذرف دمعة واحدة، فقد كنت مصدومة تماماً.

- سنرى بعضنا البعض يا كلودين.

- أعرف، ولكن... يبدو لي أنّ المصاعب لا تفارقك هذه الأيّام.

- وأنت أيضاً.

عندما خرجتُ من مكتبها، شعرت أنّني أطفو بلا وزن على الأرضيّة الإسمنتية المصقولة، كما لو كنت ثمرة يقطين تمّ تفريغها جيّداً، بانتظار نحتها. ولو امتلكت القوّة، لجريت لمرّة أخيرة حافية، لكنّني لم أستطع مدّ ذراعَيّ إلى حذائي وخلعه.

حملتُ حقيبتي ومفاتيحي ومعطفي، وخرجت من دون أن

أضيف شيئاً. أعتقد أنّ أولئك الذين مررت بهم ألقوا عليّ التحيّة، لكنّني كنت بعيدة أساساً، كالمخدّرة.

بما أنّه لم يعد لديّ شيء مهمّ لفعله على الإطلاق، تنزّهت بسيّارتي عبر الطرقات السريعة، والمنعطفات، والشوارع غير المألوفة، كمن يأكل رقائق البطاطس وهو يشاهد التلفاز، بشرود. ولولا الحاجة الملحّة للتبوّل، لما توقّفت مطلقاً.

عندما حاولت العودة إلى ألترامار، محطّة الوقود التي مررت بها قبل بضع دقائق، والمزوّدة بأضواء النيون وإعلانات الشراب الرخيص، تهت في سلسلة من الشوارع المرقّمة التي لا تقود إلى أيّ مكان. امتدّت الحقول الصفراء في كلّ اتّجاه، كما لو أنّها خرجَت من حقبة أخرى. لم أكن أدري مطلقاً أنّ هذه المساحات لا تزال موجودة بالقرب من المدينة. توقّفت بالقرب من الطريق المرصوف بالحصى المحاذي للطريق السريع، ثمّ فتحت البابين من جانب الراكب لأريح نفسي. أمامي، لوّحت نباتات الذرة بأوراقها الهشّة. رفعتُ تنّورتي، وأنزلت جواربي، وجلست القرفصاء، بينما راح النسيم الجليدي يلفح بشرتي. حاولت من دون جدوى الحفاظ على حذائي الأزرق الجميل، الذي أصبح الآن ثميناً بقدر خاتم الزفاف القديم. لكن على الرغم من احتياطاتي، ارتطمت قطرات صغيرة محاطة بالبخار بالأرض، وارتدّت إلى الأعلى، لتحطّ على الجلد الساخن لحذائي، مخلّفة بقعاً داكنة عليه. لم أكن قد فعلت ذلك منذ رحلتي الأخيرة مع جاك إلى جبال الألب السويسرية. في تلك الأيّام، كنت لا أزال مرنة، وقادرة تماماً على إبعاد ساقَيّ عن الرذاذ. جفّفت نفسي بوشاحي وتركته هناك، فوق السائل الذي امتصّته بسرعة التربة شبه المتجمّدة.

وما إن جلست على مقعدي في السيّارة، حتّى خلعت حذائي وألقيته ليهوي في الجرف. فقد طالت قصّتنا كثيراً، وأصبح مرتبطاً على نحو دائم بنهاية زواجي وملوّثاً بالبول. والهوّة تناسبه تماماً.

باستثناء كوخ مبنيّ على نحو غير متقن من ألواح الخشب، والقابع في وسط الحقل، لم يكن ثمّة شيء حولي، سوى عصافير تتنقّل على أسلاك الكهرباء، وغربان تصيح، وربّما قطّة بثلاث قوائم في مكان ما. فشعرت أنّ هذه المساحات الخالية تحكي قصّة حياتي، وأنّ الفصل السائد مرآة لروحي.

كان رمز الرسائل النصّية في هاتفي يحمل الرقم 8، ممّا يشير إلى أنّ كلودين قلقة. عليّ أن أطمئنها حالاً، قبل أن تتّصل بالجيش، وبالشرطة، وبعائلتي بأكملها. هكذا عدت إلى السيّارة، غير راغبة في أن يشعر أولادي بمزيد من الشفقة عليّ، أو أن يشعر جاك أنّه مضطرّ لإنقاذي من أعماق اليأس.

– أنا أتنزّه بالسيّارة. أحتاج إلى التفكير. كلّ شيء على مايرام.

– اتّصلي بي، علينا التحدّث.

– اتّفقنا، قريباً.

– كلّا، بل حالاً.

– بعد قليل.

كنت مثل بهلوان يمشي على حبل مشدود، ويركّز على الحفاظ على توازنه. وإذا تحدّثت إليها الآن، فقد أسقط.

لم يتمّ تصميم جوارب النايلون لارتدائها بدون حذاء. هكذا، خطّت أخاديد الدوّاسات باطن قدميّ مثل شفرات المبشرة. ومع الخدر الذي بدأ يسري فيهما، لم أكن قادرة على الصمود طويلاً. على

أيّ حـال، كان مقيـاس الوقود يشـير، وعلى الرغـم من كلّ الصعاب، أنّ وضعي على وشك أن يزداد سوءاً إذا ما لـم أخرج سريعاً من هذه الأرض المهجورة. بمجرّد عودتي إلى العالم المتحضّر، سأتمكّن من شـراء حذاء جديد من أيّ متجر يبيع ملابس وأحذية بأبخس الأثمان صنعها أشخاص تقاضوا عليها أبخس الأجور.

على بعد كيلومترين، جلس رجل عجوز على شرفة بيت أخضر صغير. كان يرتدي معطفاً مبطّناً من الغاباردين، على الطراز الكندي، وقبّعة من فراء السمّور، يتدلّى ذيلها أسـفل رقبته. من حسـن حظّي أنّ دانيـال بـون هـو الذي يتولّى الحراسـة. اقتربت من جانب الطريق، وخفضت النافذة.

– مرحباً!

–

– مرحباً!!

– آه! مرحباً!

– هلّا أخبرتني كيف أعود إلى الطريق السريع؟

– عفواً؟

– الطريق السريع، من أيّ اتّجاه؟

– إيه؟

أخرجت رأسي قدر الإمكان من النافذة لاختزال المسـافة بيننا.

– هل يمكنك أن تدلّني كيف أعود إلى الطريق السريع؟

وضع يده على أذنه، من دون أن يتوقّف عن التأرجح – نشـاط غريب في يوم بارد كهذا. بالتأكيد، لم يكن من اللائق مواصلة الصراخ من دون الخروج من السيّارة، لكن ليس من اللائق أيضاً أن يسـتمرّ

في التأرجح على هذا النحو. استسلمت وترجّلت من السيّارة، ثمّ جريت وصولاً إلى الدرجات الأمامية المؤدّية إلى الشرفة. فاخترق البرد والحصى جلد قدمَيّ الرقيق. مجرّد فكرة الدوس على أرض الريف القذرة، المليئة على الأرجح بقذارة الحيوانات، كانت ستسبّب الغثيان لجاك.

– مرحباً! أنا آسفة لإزعاجك.

– أهلاً أهلاً!

– أهلاً! أنا تائهة قليلاً، هلّا أخبرتني كيف أعود إلى الطريق السريع؟

– نعم؟

– أنا أبحث عن الطريق السريع.

– من أين أتيت؟

من أين أتيت؟ سؤال سريالي. فعليّاً، كنت أقف أمامه مباشرة، وهذا بالتالي سؤال غريب. أمّا ذهنيّاً، فلم تكن لديّ أيّ فكرة سوى أنّني عالقة في شبكة من الأفكار السوداء.

– أليس لديك حذاء؟

– أوه! كان لديّ واحد، لكنّني رميته في الوادي منذ قليل.

شعرت أنّه لن يعلّق، حتّى إنّه لم يرفّ له جفن.

– ادخلي يا صغيرتي المسكينة، ستمرضين إذا بقيتِ واقفة هناك بهذا الشكل.

عندما رأيته يكافح للنهوض والسير إلى الباب، قدّرت أنّه يتجاوز المائة عام. بدت لي كلّ مفاصله صدئة، بما في ذلك عنقه، إذ كان يمشي مثل نموذج روبوت من الجيل الأوّل. هكذا تصبح

أجساد بعض الأشخاص.

في الداخل، كانت رائحة الزبدة المحترقة تفوح في الغرفة الوحيدة في الطابق الأوّل. ومن الموقد الذي يحتلّ وسط الغرفة، تصاعد البخار من قدر صغير قديم. كانت الخضروات تغلي بداخله على الأرجح في فقاعات الماء. انتشرت على الجدران صور، بعضها قديم جدّاً وبعضها الآخر أحدث. وكانت جميع الإطارات منحرفة، كما لو أنّ الأرض اهتزّت للتوّ. دخل الرجل بقامته القصيرة – كنتُ أطول منه إلى حدّ لا بأس به – من دون أن يخلع نعليه، قبل أن يتوجّه إلى صندوق خشبي كبير في آخر الغرفة.

– سأعطيك جوارب صوفية. لديّ منها ما يكفي جيشاً، ولا أحد يستخدمها هنا.

– لكن لا، لا أريد أن تعطيني شيئاً.

– منذ وفاة زوجتي، لم أعد أخلع حذائي في المنزل.

كشفت ضحكته عن قناع ملفت من التجاعيد، فضلاً عن صفّ من الأسنان المسودّة التي لم تعد تفيده على الأرجح سوى في تناول الأطعمة الليّنة. وهذا مؤسف، لأنّ في هذه المنطقة الكثير من الذرة الطازجة على الأرجح.

– كما أنّني لا أستقبل كثيراً من الزوّار.

– لكن حقّاً، لا يمكنني أن أقبل...

– ما اللون الذي ترتدينه؟

– أيّ لون؟

– لقد حاكت زوجتي جوارب من كلّ الألوان، لتناسب كلّ ملابسها.

– آه! ملابسي سوداء.

– سوداء؟ هل أنت ذاهبة إلى جنازة؟

– آه... كلّا، لكنّني أحبّ الأسوَد.

– ماذا؟

– كلّا، أنا أحبّ الأسود!!

كان يقرأ الكلام على شفتيّ، فحاولت تحريكهما بطريقة مبالغ فيها.

– آه، جيّد. سألت لأنّنا نقترب من موسم البرد، فحاصد الأرواح ينظّف قبل حلول الشتاء. إذاً سأعطيك هذه، لكن تعالي وابحثي عن غيرها إذا لم يناسبك المقاس. لا شكّ أنّ قدميك كبيرتان نظراً لطول قامتك.

أعطاني فردتين مختلفين، واحدة خضراء وبيضاء والأخرى بنّية، محاكتين بقطب «متماسكة لتدوم طويلاً»، كما كانت تقول جدّتي. كانتا تمتازان بصلابة الخيوط الاصطناعية. فشعرت بموجة من الحنين.

– شكراً جزيلاً، لقد أنقذت حياتي. فقد عشت يوماً عصيباً.

– ماذا؟

– شكراً! لقد كان يومي عصيباً.

– حسناً، عندي لك خبر سارّ.

– حقّاً؟

– الحساء جاهز.

– أوه!

– لا شكّ أنّك جائعة بعد أن ضللت طريقك.

إطلاقاً، لكنّني لم أرغب في إفساد الخبر السارّ الوحيد لذلك

اليوم. ذهب إلى المطبخ، وعاد حاملاً وعائين خشبيَين ومغرفة، كما في حكايات الأطفال. لم أجرؤ على السؤال، لكنّني واثقة أنّه نحتها بيديه من جذع شجرة.

– اقتربي من الموقد لكي تشعري بالدفء.

أطعته، مع أنّه لم يعد لديَ ما أخشى عليه. كان الرجل المسكين، شبه الأعمى وشبه الأصمّ، يتنقّل كالسلحفاة. وحتّى وأنا بجواربي من الصوف الصناعي، كنت أستطيع أن أسبقه سيراً. بيد أكثر ثباتاً ممّا توقّعت، صبّ الحساء من دون النظر إلى القدر، معتمداً على الرائحة والحرارة... والعادة على ما أظنّ.

– ماذا وضعت في حسائك؟

غير أنّه لم يسمعني.

– تفضّلي يا صغيرتي.

مدّ لي وعاءً، وجلس بجانبي على كرسيّ مواجه للموقد. قلت في نفسي «خضروات موسمية»، عندما رأيت قطعة من الجزر الأبيض تطفو على السطح، و«حيوانات برّية صغيرة تمّ اصطيادها بالأفخاخ»، عندما لمحت شيئاً بدا كاللحم.

– هل تعيش بمفردك منذ مدّة طويلة؟

– ماذا؟!!

– هل تعيش وحدك؟!!

– أنا كبير عليك أيّتها السيّدة الصغيرة. هاه!

– هه هه...

– أنا أمزح، لستِ صغيرة.

– آه!

– أنا أعيش بمفردي، لكنّ مارييت تأتي في المساء.

– كلّ يوم؟

– لكي تكسب الثواب، فلديها بعض الخطايا التي تحتاج إلى المغفرة.

– شأنها شأن جميع الناس.

– إنّها شقيقتي، تبلغ من العمر اثنين وثمانين ربيعاً، عجيبة من عجائب الطبيعة، لن تصدّقي كم هي قويّة.

– وكم عمرك أنت؟

– إيه؟

– كم عمرك؟!!

– يقولون أربعة وتسعين... لكن أعتقد أنّهم يبالغون.

إذا كان ما «يقولونه» صحيحاً، فقد شهد الكساد العظيم، والحرب العالمية الثانية، وإلفيس، والتلفاز الأول، وسقوط جدار برلين، وعَلَم كيبيك، وكمّاً هائلاً من الأمور التي نحتفي باختراعها أو نستاء منه، بما في ذلك منفاخ الأوراق. وكم دفن من أحبّائه؟ مع ذلك، ما زال صامداً، يجلس هناك بهدوء، يتناول حساءه كأيّ رجل آخر، من الوعاء مباشرة، ويدفع بأصابعه الخضروات التي تتدلّى من شفتيه إلى داخل فمه. فما كان منّي إلّا أن حذوت حذوه. كان هذا المزيج من المرق والخضروات المطهوّة جيّداً يتراوح بين الحساء اليخنة، لكنّه لذيذ للغاية. وإذا كان يحتوي على لحم سنجاب، فقد تمّ طهيه جيّداً. الغريب أنّ مصائبي بدت أخفّ وزناً في هذا المنزل، كما لو أنّها بقيت في الخارج، تنتظرني مثل قطيع من الذئاب الجائعة. كلّ ما كان يثقل كاهلي، ويضيّق الخناق عليّ منذ لحظات، بدا فجأة ضئيل الأهمّية.

كنت أشرب الحساء، منتعلة جوارب قديمة غير متطابقة.

- لقد خسرتُ وظيفتي للتوّ.
- هل لديك أولاد؟
- نعم، لكنّهم كبروا جميعاً، ولديهم حياتهم الخاصّة. ابنتي الصغرى هي الوحيدة التي ما زالت تتابع دراستها.
- لا أولاد؟

ابتسمتُ ورفعت ثلاثة أصابع.

- هل هم في صحّة جيّدة؟
- نعم، بصحّة ممتازة!!
- حسناً، ما دام الأولاد بصحّة جيّدة...
- أنتَ على حقّ... لقد خسرتُ وظيفتي اليوم!!

أخرج من كمّه منديلاً من القماش، ومسح به فمه وعينيه ثمّ نفخ أنفه. تساءلت ما إذا كانت ماريت تغسله بين الحين والآخر، إذ بدا لونه مقلقاً بعض الشيء.

- ستجدين وظيفة غيرها. هل أنت مريضة؟
- كلّا!!
- ما دمتِ بصحّة جيّدة...
- لكنّ الوظائف تحتاج إلى شهادات اليوم!!
- عودي إلى المدرسة، فأنت ما زلت شابّة. وماذا عن زوجك، أما زال يعمل؟
- زوجي رحل.
- إيه؟
- زوجي رحل!!

– إلى أين رحل؟

– بعيداً... بعيداً بعيداً...

رفعت ذراعي، وحرّكت أصابعي على شكل أمواج للإشارة إلى المسافة.

– هل مات؟

– كلّا. إنّه بخير، لا بل بألف خير.

هكذا، تناولنا حساءنا بشرود، حتّى فرغ الوعاء.

– للعودة إلى الطريق السريع، قودي سيّارتك وصولاً إلى التقاطع مع الطريق 7، ثمّ انعطفي يميناً وتابعي الطريق حتّى النهاية. هناك، اسلكي الطريق الذي يمرّ أمام الكنيسة، وتقدّمي حتّى تري الإشارة الخضراء. لا تزال الكنيسة موجودة، لكنّها لم تعد كنيسة.

– هذا مؤسف!!

– كلّا، بل أحسنوا فعلاً! أنا لم أستطع يوماً احتمال الكهنة... انظري إلى ذلك المقعد هناك، ذهبتُ وأحضرته عندما أزالوا الكنيسة. أنا أستحقّ صفّاً كاملاً مقابل كلّ الأموال التي أعطيتهم إيّاها على مرّ السنين.

ما كان ليزعجني البقاء قليلاً بعد، فأنا على يقين من أنّ لديه كمّاً هائلاً من القصص ليرويها لي. كان من الممكن أن يستغرق الأمر ساعات، لا بل أيّاماً، فقط بالنظر إلى جميع الصور المعلّقة في الإطارات.

– شكراً لك على كلّ شيء!!

– ضيعي هنا مجدّداً، فأنا لا أخرج كثيراً.

– هل لديك أولاد؟!!

– نعم.

– هل يأتون لرؤيتك؟!!

حرّك أصابعه على شكل أمواج.

– سأعيد لك الجوارب!!

– لا، لا، اعتبريها هدية من ماريت، كان سيسعدها ذلك، فأنا أملك صندوقاً كاملاً منها.

ألقيت نظرة على قدميّ. كنت قد مدّدت إحدى الفردتين لإدخال قدمي فيها، فيما كانت الأخرى كبيرة المقاس لدرجة أنّني خشيت أن أضيعها مع كلّ خطوة. كانت الألوان رهيبة، والموادّ خشنة وغير مريحة. مع ذلك، فقد مضت عهود منذ أن أثّرت بي هديّة بهذا الشكل.

لم أدرك أنّنا لم نتعرّف على بعضنا إلّا بعدما أصبحت في السيّارة. لكن هل لذلك أهمّية حقّاً؟ لم تكن أسماؤنا لتخبرنا شيئاً إضافيّاً عن بعضنا البعض، بخلاف تفضيلات أهالينا لأصوات معيّنة على غيرها.

غادرتُ منزل آديلارد – فقد كان هذا الاسم يناسبه جدّاً – وأنا مرتاحة، كما لو أنّني أخذت قيلولة. عندما وصلت إلى الكنيسة، توقّفت جانباً للاتّصال بكلودين.

– هذه أنا!

– تباً! هل أنت بخير؟ أين أنت؟

– هممم، أنا في الريف، انتظري قليلاً، ثمّة لافتة... كلّا، ما من اسم هنا. على أيّ حال، أنا على وشك الوصول إلى الطريق السريع.

- ماذا تفعلين؟
- قدت سيّارتي لمدّة، وضللت الطريق، ثمّ تناولت الغداء مع رجل يبلغ من العمر أربعة وتسعين عاماً...
- هل فتحتِ فيسبوك؟
- ما علاقة ذلك؟
- متى كانت آخر مرّة؟
- ماذا تعنين؟
- متى كانت آخر مرّة فتحتِ فيها فيسبوك؟
- آه، هل أنت جادّة حقّاً بسؤالك؟ أنا لم أفتحه منذ قنبلة الربيع. لماذا تسألين؟
- تبّاً...
- حسناً، ماذا يجري؟
- اللعنة...
- كلودين...
- اتّصلي بجاك.
- لم يحن الثالث والعشرون من الشهر بعد.
- اتّصلي به على أيّ حال.
- كلّا! أخبريني حالاً!
- أفّ...
- انطقي!
- الحقيرة حامل.

في ردّ فعل لا معنى له، نظرت إلى الخلف لتقييم إمكانيّة العودة إلى الوراء، واستعادة الدقائق الأخيرة، والعودة إلى شرنقة آديلارد

المريحـة، المعلّقـة فـي الزمـان والمكان. لكنّني كنـت في قصّتي مثل ثيلما ولويز عندما أدركتا أنهما وصلتا إلى نقطة اللاعودة: محتوم عليّ أن أقفز وأواجه الموسيقى، سواء كنت أتمتّع بالإيقاع أم لا. لو بقيت عند آديلارد، لواصلتُ شرب الحساء وأنا أشاهد الإوزّ يأتي ويذهب حتّى يتخلّى عنّي جسدي. لكن، وأنا موصولة إلى هاتف ذكيّ يمكن إيجادي عبره حتّى لو كنت ضائعة في مجاهل الأرياف لتنكيد حياتي، لم تكن لديّ أيّ فرصة. لم يعد لدينا سوى الضحك.

– هل يمكن إرضاع طفل بثدي مزيّف؟

– أوه... أتعلمين، لم أفكّر في ذلك بتاتاً.

– انسي الأمر، أنا واثقة أنّه بالإمكان نزعهما ومن ثمّ إعادتهما.

– ربّما يمكن استبدال السيليكون بأكياس الحليب.

– مع لهايتين.

– لقد نشرت الحمقاء صورة لبطنها على فيسبوك.

– وهل أنتما صديقتان على فيسبوك؟

– كلّ الناس أصدقاء على كلّ أنواع وسائل التواصل الاجتماعي. أنت واحدة من ثلاثة أو أربعة أشخاص في أمريكا الشمالية ليسوا كذلك.

– لقد نسيت.

– هل أنت على طريق العودة؟

– نعم.

– كيف تشعرين؟ تبدين هادئة.

– أنا بخير.

في الحقيقة، كان رأسي ينبض بشدّة لدرجة أنّني اضطررت إلى

إغماض عينيّ للتركيز. نظرت إلى الطريق السريع الممتدّ أمامي. كان بإمكاني القيادة إلى أقصى الشمال، وترك سيّارتي على قارعة طريق منسيّ، والسير إلى أقرب بحيرة بلا اسم لاستكشاف أعماقها. هناك، أدفن نفسي بين الضفادع، في القاع الموحل، حتّى انقضاء الشتاء.

– سيحظى أولادي بأخ أو أخت...

– أو كليهما، فالتوائم منتشرة هذه الأيّام كالوباء.

– أسرة أولادي تكبر، من دوني. كما لو أنّ أحدهم ضغط على زرّ التوقّف، لكنّني الوحيدة التي توقّفت بالفعل. أنا جامدة في المشهد، بينما يواصل الجميع التقدّم.

– أنت لست متوقّفة يا دايان، بل تسلكين طريقاً مختلفاً.

– كان من المفترض أن أسلك وإيّاهم الطريق نفسه.

– أعرف.

– يبدو الأمر كما لو كنّا نسير جميعنا في الغابة، ثمّ قال لهم جاك: «هيّا، هيّا، تعالوا من هنا قبل أن ترانا والدتكم». والآن، بقيت في الغابة بمفردي...

– أعرف.

– فيليب لم يذهب لتأسيس عائلة أخرى.

– كلّا، لكنّ أطفالي يختبئون في الغابة كلّ أسبوعين. وعندما يكونون معي، أمضي الأسبوع في البحث عنهم، مع أنّهم أمامي.

–

– دايان، لديك الحقّ في أن تغضبي، لكن لا ترتكبي الحماقات.

– عليّ التوقّف للتزوّد بالوقود، لكنّني أرتدي جوارب صوفية.

– هاه... جوارب صوفية؟

– إنّها قصة طويلة.

– هل ستتصلين بي عند وصولك؟

– نعم، بالتأكيد.

– لن ترتكبي الحماقات، أليس كذلك؟

– لقد تركت مطرقتي في المنزل.

– أنا أحبّك، أيّتها المجنونة.

ملأتُ خزّان الوقود، ثمّ ابتلعت فنجان قهوة سيّئ الطعم، وتوجّهتُ مباشرة إلى المنزل. فأنا لم أعرف ماذا أفعل غير ذلك.

ركنت السيّارة في المدخل، ثمّ أطفأت المحرّك، وبقيت جالسة خلف عجلة القيادة. تركت ألمي يتصاعد ببطء، مثل مدّ أنتجته ببطء حركة النجوم. تركته يأتي، فأنا لم أعد أقوى على الهرب منه. أخيراً فتحت فمي، وحرّرت أنيني ونحيبي وصراخي. تشبّثت بالمقود، بحيث تحوّل جسدي بأكمله إلى مكبّر للصوت، وبكيت بكلّ ما أوتيت من قوّة، لا بل وأكثر. بكيت كما يبكي المرء تحت التعذيب، في محاولة يائسة لقتل الأذى الداخلي. وما إن فرغت رئتاي من الهواء، حتّى أخذت نفساً عميقاً وبدأت من جديد، محاولةً بلوغ نقطة أبعد، وأعلى، وأقوى. أردت أن يتحطّم الزجاج الأماميّ، وأن تنفجر السيّارة. وعندما شعرت أنّ حبالي الصوتية بدأت تتعب، ضاعفتُ جهودي، عازمة على شدّها حتّى تنفجر. كان غضبي يغذّي غضبي، وألمي اللامحدود يسيل في عنقي في مجارٍ صغيرة. في نهاية المطاف، ستخرج أحشائي من جسدي مثل حبل من النقانق. سأطهّر نفسي إلى

ألّا يتبقّى منّي شيء سوى الجلد.. إلى أن أموت.

كنت أندفع مسرعة على طريق موت عنيف من خلال استنزاف الذات عندما شعرت بيدٍ تُطبق على ذراعي.

– دايان! دايان!

كان الوسيم الموشوم العامل في الورشة المجاورة منحنياً بجانبي، وقد خفض رأسه ليتمكّن من النظر إليّ.

– حسناً، لا بأس، لا بأس...

رحتُ ألهث طلباً للهواء كما لو كنت أجري في سباق ماراتون. كان وجهي مغطّى بشتّى أنواع السوائل التي تُنتجها فتحات الجسم في حالة الذعر. وأدركت من حركة عينيّ وفمي مدى انتفاخ وجهي. كانت أوردة صدغَيّ تنبض على إيقاع قلبي المحطّم.

– هل يؤلمك شيء؟

لوّحتُ بيدي يميناً ويساراً. فباستثناء ألم حلقي ورأسي، وخدر قدمَيّ، لم يكن ثمّة شيء للإبلاغ عنه.

– هل تريدين الذهاب إلى المستشفى؟

– لا.

– إلى العيادة؟

– لا.

– هل تريدين منّي الاتّصال بأحد؟

– لا.

– هل تعتقدين أنك قادرة على الخروج من السيّارة؟

– لا.

– حسناً، سأهتمّ بالأمر. تريدين منديلاً؟

يبدو الأمر أسوأ ممّا ظننت.

– نعم.

– مناديل من فضلك! لا داعي للإسعاف! مناديل وحسب!!!

هُرعَت السيّدة نادو حاملة فوطة مبلّلة وعلبة مناديل، بينما أمسكت بيدها الخالية ياقة سترتها. ذكّرتني بوالدتي، التي توفّيت منذ مدّة طويلة جدّاً لدرجة أنّني لم أعد معتادة على التفكير فيها في الأوقات العصيبة. همستُ «أمّي» بصوت منخفض، لأشعر بتأثير هذه الكلمة القديمة على لساني. ففاجأتني رغبتي في البكاء مثل نبع ماء حارّ، من أعماق ثلاثينيّاتي البعيدة. عندئذٍ، نفخت أنفي بقوّة لكي أدفن رغبتي في البكاء. أمّي.

على الرغم من حالة وجهي الرهيبة، اقترب منّي الشابّ الموشوم بضع سنتمترات، بحيث استطعت أن أشعر بحرارة جسده. لم أنتبه في الواقع أنّني متجمّدة تماماً.

– هل ترغبين في دخول المنزل؟

ألقيت نظرة على منزلي من فوق رأسه، لكي أقيّم اقتراحه. كان بيتي خلفه، على بعد سنوات ضوئية منّي.

– نعم.

– حسناً، تمسّكي بي، سأحملك إلى الداخل.

– لكن لا...

– لكن بلى، لا يمكنك البقاء هنا.

قبل أن أتمكّن من إضافة أيّ شيء، أدخل ذراعه الفولاذية تحت ساقيّ لحملي. ولحسن الحظّ، لم أبلّل نفسي. في اليوم الذي انهرتُ فيه تماماً، دخلت منزلي مثل عروس جديدة.

– جوارب جميلة.

وضعني على أريكة في الصالة وركع أمامي. ولو لم يذكّرني ذلك بعرض جاك الكلاسيكي للزواج، لوجدت سلوكه لطيفاً.

– لا شكّ أنّك تودّين الاتّصال بشخص ما.

– ليس الآن.

– لا أعتقد أنّ عليك البقاء بمفردك.

– أنا متعبة، متعبة للغاية...

– الأخبار السيّئة متعبة.

– أجل.

– حسناً، عليّ العودة إلى الورشة، لكنّني لست بعيداً. إذا احتجتِ شيئاً، لوّحي لي.

– ما عليّ سوى الصراخ.

تراجعت شفتاه في ضحكة صغيرة، قبل أن ينحني أكثر ويحتضنني، مثل صديقة قديمة. شدّ ذراعيه حولي بقوّة ولفترة طويلة، إلى أن أغمضتُ عينيّ أخيراً ووضعت رأسي على كتفه، في استسلام مريح. بين ذراعيه الضخمتين، انكمشَت مآسيّ فجأة، واستقرّت شظايا روحي المحطّمة واحدة تلو الأخرى في ثنايا عنقه، في كومة من الألم، إلى أن تشرّب جسدي دفأه وهدوءه ولطفه.

لولا تلك المرأة ذات الشعر الملتهب التي تراقب من تحت سترته، لربّما كنّا تعانقنا. خدشني خدّه الشائك بلطف قبل أن يبتعد، وكادت شفاهنا تتلامس. أخذت كلّ ما قدّمه.

بعد رحيله، خرج رفيق دربي من مخبئه وأتى للالتصاق بعنقي. عضّ على أقراطي، قبل أن يغرق مجدّداً في نوم عميق تخلّلته

التشنجّات العصبية. فغفوت معه بامتنان بعد آلاف المداعبات العلاجية.

* * *

فتحت عينيّ، لأجد كلودين أمامي حاملة طبقاً كبيراً من السوشي، وعلى وجهها ابتسامة الأيام الحزينة.

- هيّا، سنحتفل بحياتك الجديدة. أحضرت معي زجاجة كبيرة من الحلول المؤقّتة.

-

- أعرف أنّك لا ترغبين في ذلك، لكنّه سيفيدك. لا تتحرّكي، سأهتمّ بكلّ شيء!

- كلودين؟

- نعم يا حبيبتي؟

- لقد خسرتُ منصّة القفز الصغيرة.

- بففف...

20

وأنا أتأمّل نفسي في المرآة

تأخّرت مصفّفة شعري هذا اليوم. جلست على أريكتها من طراز لويس السادس عشر وتظاهرت، كالعادة، أنّني أبحث عن قصّة جديدة ولون جديد في إحدى مجلّات الموضة المنتشرة عشوائيّاً على طاولة القهوة. مهما تكن القرارات الجريئة التي أتّخذها في هذه اللحظات التي تسبق رؤية المقصّ، فإنّها تختفي دائماً في الثانية التي أجلس فيها على كرسيّ سابرينا. فادّعائي باعتماد «الموضة السائدة» ينهار أمام طبيعتي المملّة، التي تتجلّى حتّى في اختياري لتصفيفة شعري.

– إذاً، ماذا سنفعل اليوم؟

– كالمعتاد!

كانت الزبونة التي انتهت سابرينا للتوّ من تصفيف شعرها، والمسؤولة عن التأخير، تعبّر عن إعجابها بالظلال الوردية التي ظهرت على السنتمترات الأخيرة من شعرها بعد عمليّات تبييض وتلوين متعدّدة.

– هذا بالضبط ما أردت! كم يعجبني! ستشعر صديقاتي بالغيرة حتماً! ستمرّ أمّي لتدفع لك لاحقاً.

على مسافة أبعد في الخلف، كانت ثمّة امرأة مستديرة كالطابة

تستشير إيف، مصفّفة الشعر الأخرى.

– أنا أرغب في بعض التغيير، فقد سئمت من شعري. هل تعتقدين أنّ وجهي سيبدو أكثر طولاً إذا أضفنا بضع خصلات ملوّنة على الجانبين؟

– طول شعرك لا يناسب ذلك. يمكننا اللعب قليلاً بقصّة الشعر للحصول على التأثير الذي تريدينه.

– لكن ماذا لو أضفنا القليل من اللون الأحمر هنا، في الأعلى؟ ألن يضفي شيئاً من الإشراق؟

لقد تمكّنت هذه المرأة من إقناع نفسها، عن طريق الإيحاء الذاتي، أنّ الخصل الملوّنة ستجعلها تبدو أقلّ وزناً. تعيش الطبيعة البشرية بالأمل – إنّها واحدة من أعظم مواهبنا. نحن نتغذّى على الأوهام التي تساعدنا على الهرب، ولو للحظة، من قسوة الواقع.

– بلى، سيبدو جميلاً. لكن علينا أوّلاً إزالة اللون للحصول على الدرجة المناسبة.

– هل هذا ضروري؟

– إذا كنت تريدين لوناً أحمر جميلاً، فما من خيار آخر.

– حسناً، افعلي ما ترينه مناسباً!

ضحكت بسعادة، متحمّسة للتحوّل المنتظر، معتمدة على تبييض بضع خصلات لتعزيز مظهرها ومعنويّاتها. راحت أصابعها الصغيرة الممتلئة ترقص ببهجة في الهواء.

رأيت نفسي في المرآة الكبيرة على الجدار المقابل. أنا، بجذور شعري الرمادية، ووضعيّة المرأة المسنّة. كنت هناك من أجل الوهم، تماماً كالأخريات.

– أهلاً دايان.

– مرحباً.

– إذاً، ماذا سنفعل اليوم؟

– أريد إعادة شعري إلى لونه الطبيعي.

– هل تجدين هذا اللون داكناً؟

– كلّا، أريد لون شعري الطبيعي.

– لا أفهم.

– رمادي.

– هل أنت جادّة؟

– نعم.

نظرت إليّ في المرآة، وهي تحاول معرفة ما يجري. أستطيع أن أفهمها. إذ تحاول معظم النساء إخفاء سنّهنّ، وليس إظهاره للعيان بكلّ وضوح. لكنّها لم تُلقِ عليّ محاضرة. فسابرينا لا تطرح الكثير من الأسئلة، بل تقوم بعملها بسرعة وإتقان، من دون أن تخبرني قصّة حياتها.

– سأصنع لك خصلاً رمادية، وسأحاول أن أجعلها أقرب ما يكون إلى لون شعرك الطبيعي. بهذه الطريقة سيظهر اللون الرمادي تدريجيّاً. وسنجدّد لون الخصل كلّ شهرين أو ثلاثة. وفي غضون عامين، ستصبح رماديّة بالكامل.

– أفضّل أن أقصّه على الفور.

– كيف؟

– قصّة قصيرة بطول الذقن. بهذه الطريقة، سيصبح شعري رمادياً بشكل أسرع، أليس كذلك؟

- سيبدو رائعاً، لكنّني عديني أنّك لن تندمي على ذلك.

أدارت الكرسيّ ونظرت إلى عيني مباشرة رافعة حاجبيها.

- أعدك.

- منذ بضعة أشهر، أتت زبونة وطلبت قصّ شعرها قصيراً، على طراز شعر جينيفر لاورنس.

- لا أعرفها من تكون.

- لا يهمّ. كان شعر الفتاة يبلغ منتصف ظهرها، وأرادت أن تقصّه قصيراً.

- أوه!

- نفّذتُ طلبها، وبدا شعرها رائعاً، وكذلك كان رأي كلّ من في الصالون، حتّى إنّنا التقطنا لها صوراً قبل أن تغادر. لكنها عادت بعد أسبوع، وراحت تصرخ في وجهي!

- معقول؟

- يبدو أنّها ندمَت، وقالت إنّها كانت تشعر بالإحباط في اليوم الذي أتت فيه وأنّه كان يجدر بي أن أمنعها.

- مسكينة أنت.

- أنا لا أبيع بضاعة يمكنني ردّها ولا يمكنني إعادة إلصاق الشعر المقصوص.

- وماذ فعلتِ؟

- طلبتُ منها أن تجلس وتهدأ، ثمّ أريتها كيف تصفّف شعرها بواسطة مستحضرات تصفيف الشعر وما إلى ذلك. ويبدو أنّ المسكينة لم تكن تملك أيّ فكرة عن ذلك، إذ كان شعرها مسطّحاً تماماً، وبدا مريعاً. فأريتها كيف يمكنها تصفيفه

بطريقة أفضل وأعطيتها علبة من الهلام.

– هذا لطف منك.

– ثمّ طلبت منها أن تترك لي مواعيد دورتها الشهرية من أجل المرّات القادمة.

– أفّ... لا تقلقي بشأني، أنا واثقة ممّا أريد.

– حسناً، فلنبدأ إذاً.

بعد ساعتين ونصف، التقطت أوّل صورة شخصية لي مع سابرينا، التي أوضحت لي كيف أحمّل الصورة على فيسبوك. وجد الجميع صورتي رائعة، وانهالت عليّ الإعجابات والقلوب والتعليقات الإيجابية من كلّ مكان. هكذا، لن يفاجأ أحد عندما يراني. يمكن للأقارب والمعارف مناقشة مظهري الجديد خلف ظهري وتكهّن حالتي الذهنية. هذه ميزة وسائل التواصل الاجتماعي، سواء كانت المسألة انفصالاً أو طفلاً أو قصّة شعر، فإنّ الصدمة الأوّلية تحدث عبر الشاشات.

– هل تعرفين وكيل عقارات جيّداً؟ شخصاً موثوقاً وطيّباً؟

أشارت إلى كومة من بطاقات العمل الموضوعة بجوار الصندوق.

– إنّه صديق لي، في غاية الاحتراف واللياقة، وليس من نوع وكلاء العقارات المراوغين.

– شكراً. هل أقول له إنّني من طرفك؟

– بالتأكيد، فهو صديق أخي.

– التقيت بأحدهم في الأسبوع الماضي، لكنّه كان فظيعاً. مجرّد رائحته لا تطاق.

– سترين، هذا الرجل جوهرة حقيقية. تبّاً، كم تليق بك هذه

القصّة. لا أعرف لماذا لم نفكّر فيها من قبل!

تفعل مصفّفة شعري من الخارج ما تفعله معالجتي النفسية من الداخل: تساعدني على أن أجد نفسي جميلة.

عندما وصلت والدة الفتاة ذات الخصل الوردية، فوجئَت بعض الشيء.

– كيف؟ أيّ لون؟

– صبغنا شعرها بتدرّج جميل باللون... أما كنت تعلمين؟

– أخبريني أنّك تمزحين.

– يا إلهي!



– أيّ لون؟

– الوردي.

– تدرّج اللون الوردي؟

– هذه الموضة السائدة اليوم.

– وما هي تكلفة الموضة السائدة اليوم؟

– اجلسي أوّلاً.

– لا لا لا، كم؟

– كان علينا تبييضه مرّتين، وصبغه على ثلاث مراحل...

–

– مائتان وخمسة وأربعون دولاراً...

– ماذا؟!! يا إلهي! هل يعمل دماغ هذه الفتاة حقّاً؟! تظنّ أنّني أقطف المال عن الشجر! ما كنتُ لأنفق على نفسي هذا المبلغ أبداً!

كانت المرأة التي أراها في المرآة ذات خصل رمادية دفعت ثمنها

من مكافأة نهاية الخدمة. وقد جعلتها تبدو في سنّها، خلافاً للموضة السائدة.

مع ذلك، فقد بدت سعيدة.

* * *

كنت أنتظر وصوله بفارغ الصبر. مهما قيل بشأن عدم الحكم على الكتاب من غلافه، أعتقد أنّ الغلاف يمنح فكرة جيّدة عمّا يحتويه الكتاب في الداخل.

وصل في الوقت المحدّد، دقيقاً كتحرّي خاصّ، في سيّارة سوبارو أَوت باك جوانبها ملوّثة بالوحل. لاحظتُ عن غير قصد أنّ عجلاته تفتقر إلى إطار فولاذي (أخبرني أنطوان ذات مرّة أنّ الرجل لا يقود مطلقاً سيّارة بلا إطلارات فولاذية، ذلك أنّ الرجال يعتبرون سيّاراتهم امتداداً لأنفسهم). كان يرتدي بنطال جينز داكناً وقميص بولو كحلية، بلا سترة ولا حذاء رسمي. بدا مسترخياً بمظهره غير الرسمي، على نحو زائد بالنسبة إلى ذوقي، حتّى إنّ ملابسي بدت مبالغاً فيها مقارنة به. بدا أيضاً أصغر ممّا توقّعت، ربّما في أواخر العقد الثالث من عمره. كان كثّ الحاجبين، ولو ترك شعره ينمو، لأحاط برأسه بكثافة مثل تاج راهب.

– مرحباً! سيّدة ديلونيه؟

– ستيفان؟

– نعم.

– هل يمكننا استخدام أسمائنا الأولى؟

جلسنا في الخارج، على كراسٍ جفّفتها بعناية. فقد كنت بحاجة إلى التعرّف على الشخص الذي أتعامل معه قبل السماح له بإلقاء

نظرة احترافية على داخل منزلي. كنت قد فعلت الشيء نفسه أيضاً مع طبيب أسناني.

أخرج كدسة أوراق وقلم رصاص HB، من النوع الذي كنت أشتريه للأولاد في المدرسة. كان الوكيل الذي التقيت به في الأسبوع الماضي قد أرهقني بالعروض التقديمية الرقمية وبرامج الجولات ثلاثية الأبعاد قبل أن نتّفق حتّى على العمل معاً. وكان يجدر بي أن أتخلّص منه منذ المرّة الأولى التي خاطبني فيها بتكلذف زائد. أمّا هذا الرجل، بأسنانه غير المبيّضة ووجهه الذي يشبه وجه طالب، فقد أعجبني كثيراً. نظر إلى عينيّ بتعبير جدّي.

– هل يمكنني أن أطرح عليك سؤالاً شخصياً؟

– كلّا.

قمع ضحكة محرجة. سنكتفي بالأساسيّات، ولا داعي للخوض في التفاصيل.

– لا مشكلة، اعذريني.

– أريد بيع منزلي لأنني أرغب في الانتقال. هذا كلّ ما في الأمر.

لا بدّ أنّني بدوت غبيّة، لكنّني لم أهتمّ. لم تكن لديّ أيّ رغبة في إخباره عن مشاكلي الزوجية، لا هو ولا أيّ شخص آخر. وإذا أراد المشترون معرفة سبب بيعي للمنزل، فيمكنه أن يجيبهم بما قلته له للتوّ، والذي كان صادقاً في النهاية: أنا أرغب في الانتقال. أمّا دوافعي فلا تخصّ أحداً.

– ممتاز، هل أنت في عجلة من أمرك للبيع سيّدة ديلونيه؟

– دايان.

– عفواً. هل أنت في عجلة من أمرك للبيع، دايان؟
– يعتمد الأمر على ما تعنيه بذلك.
– هل ثمّة تاريخ مثالي لذلك؟
– لا أريد أن أكون هنا في الميلاد.

في أسوأ كوابيسي، أتخيّل نفسي جالسة بمفردي على رأس مائدة طويلـة للغايـة، وخالية، أحدّق إلـى ديك رومي بحجم الجمل، غارقاً في عصارته، ولا مؤنس لي سوى التلفاز الشغّال على نحو متواصل.

– حسناً، يمكنني أن أعرض عليك ثلاثة خيارات: (أ) لديّ كلّ الوقت، (ب) أريد أن أبيع، ولكن بالسعر الذي أريد، و(ج)، وهو سيناريو هجومي: أريد أن أخرج من هنا بأيّ ثمن.
– وكيف يعمل السيناريو الهجومي؟
– لـديّ فريـق يأتـي لتوضيب المنزل، ثمّ نعـرض المنزل للبيع بسـعر أدنى من سـعر السوق لتلقّي العروض، وربّما لإطلاق حرب مزايدة، وأعرض على الوكيل الآخر حسماً جيّداً. في هذه الحالة، يمكن إنهاء المسألة في غضون أسبوع.
– وما دوري هنا؟
– لستِ مسؤولة عن أيّ شيء، بخلاف التفكير في الانتقال.
– يعجبني ذلك.
– أتخيّل أنّك بدأت بالفعل بالبحث عن منازل أخرى؟
– كلّا، هذه خطوتي الأولى. أعطتني سابرينا اسمك يوم أمس.
– تسريحتك جميلة بالمناسبة.
– شكراً لك.
– يمكنني أن أجد لك شيئاً بسرعة.

– أنا لا أعرف حقاً ما الذي أبحث عنه.

– سننشئ ملفاً شخصياً لك كمشترية، بالمواصفات التي تعرفينها أساساً، كعدد الغرف، والمنطقة التي تريدين السكن فيها، والسعر...

– في المدينة.

– في المدينة؟

– في مونكالم، ثمة منازل جميلة معروضة للبيع...

– في ليموالو.

– ليموالو؟ هي في الغالب شقق...

– هذا صحيح، شقّة...

بعد أسبوع من اللمسات الطفيفة التي شملت إصلاح الثقوب في الجدران وإضافة درابزين للشرفة، أصبح منزلي في حالة ممتازة. اكتفيت بالإشراف على العمل المنجز في الصالة للتأكّد من أنّ الظرف اللعين سيبقى سجين الجدار ولن يعثر عليه أحد بالصدفة. سيتحلّل بين طبقتين من الجبس، ويختنق في مستنقع أسراره. فهذا الجدار لن يُهدم إلّا مع المنزل، في آخر الزمان، بفعل الموجة الهائلة التي سيسبّبها ذوبان الأنهار الجليدية أو في سعير الجحيم. على أيّ حال، سيكون ذلك بعد موتي.

وصل فريق التوضيب المسؤول عن إبراز جمال المنزل. مع أنّني لست خبيرة في هذا النوع من الأعمال، لكنني أشكّ حقاً في أن يساعد وعاء من النباتات الاصطناعية المعلّقة فوق طاولة المطبخ في إقناع أيّ كان بشراء منزلي، أو أيّ منزل آخر. عندما رأيتهم يدخلون حاملين سلّة من الفاكهة البلاستيكية وزنبقاً اصطناعياً، اعتبرتُها إشارة

للمغادرة، لكن ليس قبل تقديم اقتراح صغير.

- ماذا لو صنعنا بعض الفطائر من أجل الزيارة المفتوحة؟

-

- رائحة الخبز الطازج...

-

- انسوا الأمر، كانت مجرّد فكرة.

نجح الخيار الهجومي إلى حدّ كبير. ففي الأسبوع التالي، أعلن ستيفان أنّنا تلقّينا ثلاثة عروض. ومع الفطائر، لكنّا حصلنا على ستّة.

- متى تريدين استلام العروض؟
- لا أعتقد أنّ أعصابي تحتمل ذلك.
- سأستلمها عنك ثمّ أعرضها عليك لاحقاً.
- إلّا إذا...

لم تعجب فكرتي ستيفان، لكنّني لم أرغب في التعامل مع النظرات المتوسّلة للوكلاء الذين سيحاولون إقناعي أنّ وكيلهم «يحتاج» إلى منزلي وكم أنّه «منتَج رائع». هكذا، اختبأت في غرفة المؤونة، جالسة على كرسيّ مريح لكي لا أحدث أيّ ضوضاء.

وصلت الوكيلة الأولى متأخّرة: المأخذ الأوّل.

- مرحباً عزيزي ستيفان، كيف حالك؟ أنت تزداد وسامة! اسمع، لديّ عرض لا يصدّق، ستطير به فرحاً. انتظر فقط حتّى أخبرك عنه. لكنّ عميلتك غريبة الأطوار حقّاً. هل ظنّت أنّني سأعضّها؟ (المأخذ الثاني). على أيّ حال، عملائي متحمّسون جدّاً، فقد أحبّوا المنزل كثيراً، مع أنّني لم أفهم السبب (المأخذ الثالث)، فأنا، أجد هذه المنطقة كئيبة حقّاً،

(أخرجي من منزلي!)

وما إلى ذلك من الهراء. كانت تكرّر عبارة عزيزي ستيفان كلّ جملتين، كما لو أنّها تربط بها حديثها المفكّك الذي تراوح من الاعتبارات التقنية للبيع إلى المعلومات غير المرغوب فيها حول حياتها الشخصية. فلم تكد تنقضي عشر دقائق عصيبة، حتّى عرفنا كلّ شي عن انفصالها الأخير. كما أنّها وضعت لولباً للتوّ.

دخلت العميلة الثانية بهدوء كالفئران، وتحدّثت بصوت منخفض. لم أفهم شيئاً ممّا قالته، وعندما حاولتُ الاقتراب من ثقب الباب، ارتطمتُ ببعض مرطبانات الطماطم الموضوعة على الأرض.

– ثمّة شيء ما يتحرّك هناك.

– كلّا، إنّها أنابيب التصريف.

– لكن يبدو كأنّه حيوان صغير.

– المنزل قديم والخشب يتمدّد مع الحرارة...

– أتمنّى أن تخبرنا في حال وجود آفات في المنزل.

– أؤكّد لك يا كارول أنّ المنزل بحالة ممتازة.

– مع ذلك، هلّا فتحنا الباب للتأكّد؟

– أوه، ها قد وصل برتراند! إذاً متى يريد عملاؤك الانتقال؟

كان برتراند يرتدي قبقاباً أو شيئاً من هذا القبيل، ذلك أنّني استطعت أن أشعر بوجوده ووزنه ورائحته. تخيّلت بشرته السمراء، وشعره المصبوغ، وساعته الضخمة.

– مرحباً ستيف! مرّت عهود منذ أن أبرمنا صفقة!

– نعم، تفضّل بالجلوس.

– لديّ عرض رائع يا ستيف! سأقدّم لك سعراً جيّداً.

– أنا أسمعك.

– أنا متأكّد من أنّنا سنتفق.

– تريد عميلتي التفكير في العروض براحتها.

– اسمع يا عزيزي، سأعرض عليك سعراً رائعاً، وزبائني ينتظرون الردّ، ما عليك سوى وضع الرقم النهائي.

– ماذا ينتظرون؟

– ها! ستيف...

– لا أفهم.

– حقّاً؟

– كلّا؟

– أنا واثق أنّك تفهمني، ولكن سأشرح لك على أيّ حال.

– هذا ليس ضرورياً يا برتراند، أنا لا ألعب هنا. قل ما عندك؟

– أنا لا أتحدّث عن طرحي بل عن طرحك أنت، وما تطلبه سندفعه.

– لا تبدأ بذلك، لديك ثلاث دقائق.

– أنا لا أحتاج سوى إلى عشر ثوان. أعطني الرقم، وينتهي الأمر.

– أنت تعرف أنّه يمكنني الإبلاغ عنك بسبب ذلك.

– مهلاً يا ستيف، إهدأ...

– بقيت لديك ثلاثون ثانية.

كتب رقماً قبل أن يغادر غاضباً. فهو لم يكن يحبّ الالتزام بقواعد اللعبة، شأنه شأن كثيرين غيره. والتحقيق في الوساطات العقارية لن يكشف أكثر ممّا يفعله أيّ تحقيق آخر: البعض يفوز

بالغشّ. بات الصدق الحقيقيّ أكثر ندرة مع الزمن. والأنظمة القائمة أشبه بجسم الإنسان، غير كاملة وعمليّة.

في النهاية، قبلتُ بعرض الوكيلة التي لم يعجبها منزلي، على عكس زبائنها؛ خير ذا بشرّ ذا. الأهمّ أنّها كانت أسرة من أربعة أطفال. هكذا، ستمتلئ جميع الغرف، بما في ذلك الطابق السفلي، بالألعاب، والضحك، والدموع، والأسرار، والأحلام، والأحداث الصغيرة. وكما رغبنا منذ خمسة وعشرين عاماً، كانوا يريدون العيش هنا مدى الحياة. كرهت نفسي على الضحكة الصغيرة الساخرة التي أفلتت من فمي. على غراري أنا، كان هذا المنزل القديم يلعق جراحه، وامتلاؤه بدم جديد لن يضرّه إطلاقاً. وربّما كان تخيّله وهو ينبض بالحياة الطريقة الوحيدة لأنسلخ عنه.

أتى الأولاد لأخذ الأثاث الذي يحتاجون إليه أو يرغبون في الاحتفاظ به. قاموا بحزم تذكارات الطفولة لتزيين حياتهم أو أقبيتهم بها. خطّطت لكي يأتوا جميعاً في وقت واحد، في اليوم الذي سأنتقل فيه، لكي أشعر أنّنا سنغيّر منزلنا جميعنا معاً. وهذا ما منعني في تلك اللحظة، من الانهيار. ذرفتُ بضع دموع فقط عندما أخبرني ألكسندر أنّه يحتفظ بذكرياته في رأسه، وليس في المنزل. من النادر لي أن أراه متأثّراً هكذا، ابني الحسّاس. سواء شئنا أم أبينا، فإنّ تاريخ عائلتنا سينقسم من الآن فصاعداً إلى ما قبل وما بعد. فاحتضنتُ ابني البكر الحبيب بين ذراعيّ، وهدهدته ونحن واقفَين. كان هذا كلّ ما يمكنني فعله من أجلنا، فالكلمات المطمئنة التي كانت تخرج من فمي بشكل طبيعي طوال حياتي باتت الآن بعيدة المنال. كنت مغمورة بالألم وعاجزة عن مدّ يدي لإخراجنا من جوفه.

عدت في اليوم التالي، وحدي، وبكيت مطوّلاً أمام منزلي الكندي القديم والجميل. كانت الحياة التي أسستها لنفسي تفقد مراسيها الأخيرة. رحل أحبائي، جميع أحبائي، ليؤسسوا لأنفسهم حياة جديدة، من دوني. كانوا يكتبون قصصاً في أماكن لم تعد تعنيني. شعرت أنني ضائعة ومتروكة، مثل جريح تحتّم على رفاقه تركه لمصيره لكي ينجوا بحياتهم.

أنا بحاجة إلى قصّة جديدة وحياة جديدة. باختصار، انا بحاجة إلى ولادة جديدة.

تركت لي شارلوت رفيق الدرب.

* * *

عندما رأت معالجتي النفسية تسريحتي الجديدة، أدركَت على الفور أننا نلتقي للمرّة الأخيرة. من المفارقات، أنني قرّرت التوقّف عن العلاج بمجرّد أن فهمت دورها بشكل أفضل. دخلتُ إلى مكتبها كما لو أنني ذاهبة إلى الجلوس على كرسيّ الاعتراف، معتقدة أنني من خلال التوبة – سواء بدفع عشور الكنيسة أو رسوم الساعة، الأمر سيان – فإنني سأحرّر نفسي من ظلماتي من خلال سكبها في امرأة أخرى. وأحببت الاعتقاد أنها ستلجأ إلى اليوغا لكي تتخلّص من فائض الأسرار، بالطريقة نفسها التي يستخدم بها الكهنة الخمر المقدّس لتخليص أنفسهم من الخطايا التي يتحمّلونها باسم الربّ. لكنّني أسأت الفهم، فتلك المرأة لم تكن مستوعباً، بل مرآةً. بفضلها، استطعت أن أرى، من خلال ظلّين مشوّشين، المرأة التي ما زلت قادرة على أن أكونها. بالطبع، لم تكن تلك خطّتي عندما تزوّجت. لكنّني تعلّمت، منذ ذلك الحين، أنّ استحالة معرفة ما تخبّئه لنا الحياة

واحـدة مـن أجمـل صفاتها. فما من أحد يصعد على متن سـفينة وهو يعتقد أنّها قد تغرق. مع ذلك، فإنّ السفن تغرق أحياناً. وقاع المحيط ملـيء بالحطـام الذي تأكله النباتـات والحيوانات البحرية ببطء. على الرغـم مـن ذلـك، فإنّ أعداد السـفن والقوارب الشـراعية التي تمخر عباب البحر تزداد كلّ يوم. وهذا طبيعيّ، فالبحر جميل جدّاً. وكذلك هو الحبّ، يستحقّ المجازفة.

– لطالمـا حمانـي جـاك. فقـد خرج مـن السـيّارة ذات مرّة في منتصـف الشـتاء حاملاً عصـاً معدنية للدفاع عنّي ضدّ أحمق قطعـت عليـه الطريق بسـيارتي، وهجم علـيّ غاضباً، ربّاه... ساعدني على تجاوز الفترة العصيبة التي توفّيت فيها والدتي، وكنت خلالها منهارة بالكامل... أعانني خلال «حَملنا» كما كان يقـول... لـم يكـن يريدني أن أعانـي البتّة، ولم يترك أيّ شخص يؤذيني... غير أنّني أعيش الآن أكبر حسرة في حياتي، أعاني كما لم أتخيّل يوماً، لكنّه لا يفعل شيئاً، يراقبني أنزف من دون أن يحرّك ساكناً، علماً أنّه هو من غرز السـكّين... تخيّلتُ طوال الوقت أنّه سـيعود، وسـيحتضنني ويخبرني أنّه أخطأ في حقّي...

– والآن؟

– لن يعود.

– هل يخيفك ذلك؟

– لم أشعر بهذا الرعب طوال حياتي.

21

وأنا أحيك، وأمشي، وأرقص

– من أنت؟

– اسمي دايان، وأنت، ما اسمك؟

– سيمون.

– وأين تسكن يا سيمون؟

– في بيتي.

نظر إليّ بعينيه الكبيرتين الماكرتين، وأشار بإصبعه إلى آخر الطريق.

– هل أنت وحدك؟

– أين الأقزام؟

– أيّ أقزام؟

– الأقزام الذين كانوا هنا!

– هل أضعتَ أقزاماً؟

– كلّا!

– كم عمرك يا سيمون؟

– خمسة أعوام ونصف.

– هل تذهب إلى الحضانة؟

– نعم.

– هل يعلم والداك أنّك هنا؟

– سيمون!!

أتت إلينا فتاة طويلة القامة وهي تركض. كان شعرها يتطاير في الهواء وقبضتاها مشدودتين. ولم يبدُ عليها أنّها في مزاج حسن.

– سيمون! ممنوع عليك عبور الشارع بمفردك! أمّي غاضبة جدّاً! فالجميع يبحثون عنك. هيّا بنا! أنت في ورطة حقيقية!

– أعتقد أنّه يبحث عن أقزامه.

– آه! مرحباً!

– مرحباً!

– لأنّه كان ثمّة أقزام هنا.

– أقزام حقيقية؟

– كلّا، بل أقزام حديقة. كان ثمّة حديقة مليئة بتماثيل أقزام وما إلى ذلك...

– وعربة صغيرة.

– نعم، كان ثمّة منازل، وبئر، وعربات، وطاحونة، وفطر، وكثير من الأشياء الأخرى.

– أين هي؟

– سيمون، لم تعد موجودة! فالسيّدة نارديلا رحلت!

– لقد اشتريت للتوّ هذا المنزل المؤلّف من طابقين مع صديقتي. أنا أسكن في الطابق الثاني.

– كم أنت محظوظة، فهو جديد تماماً. لقد هدموا المنزل الذي كان قائماً هنا، وكان من طابق واحد.

– نعم، شرح لي المقاول ذلك.

– عليّ الذهاب، فأمّي بانتظارنا.
– أنت محظوظ جداً بأختك الكبيرة الجميلة!
– كلّا.
– نحن خمسـة أولاد، وهو الصبيّ الوحيد، لذلك لا يعتقد أنّه محظوظ حقّاً.
– خمسة أولاد؟ من أمّ واحدة؟
– نعم.
– زازي، انظري، هذا هرّ.
– يا إلهي! هرّ بثلاث قوائم.
– إنّه هرّي ستيف. أناديه رفيق الدرب لأنّه يتبعني أينما ذهبت.
– وأين قائمته الرابعة؟
– لقد تعرّض لحادث.
– أوه، كلّا!
– لا بأس، لقد اعتنوا به وهو الآن بحالة ممتازة حقّاً. فهو يجري في كلّ مكان ويحبّ الحيّ ولديه كثير من الصدقاء هنا.

فضلّتُ عدم إخبارها أنّه أحضر لي عدّة طيور وفأرتين منذ انتقالنا.

– أنا أيضاً لديّ هرّ.
– حقّاً؟ وما اسمه؟
– بطاطس-2.
– بطاطس-2؟ هذا اسم مضحك!
– هذا لأنّ بطاطس-1 مات.
– حسناً يا سيمون، سنأتي مرّة أخرى، الآن علينا الذهاب، فأمّي

بانتظارنا.

– لكن أريد أن أداعبه!

– مرّة أخرى.

– ما اسمكِ؟

– إيزابيل، لكنّ الجميع ينادونني زازي.

– وأنا دايان.

– تشرّفت بلقائك يا دايان.

اخترتُ الطابق الثاني لأنعم بمزيد من الضوء. فرشتُ غرفتين جميلتين للضيوف، وانتقلت كلودين إلى الطابق الأرضي، وخصّصت غرفة لابنتيها في القبو. بات الجميع سعداء. أحبّت لوري حياة المدينة، لا سيّما وأنّ كلّيتها قريبة. أمّا آديل، فطُردت من مدرستها لمجموعة من الأسباب، وكلّ منها برأي مديرها كان كافياً بحد ذاته. ومع أنّ المسألة كانت مهينة – بحسب القول المأثور، لا تسقط التفّاحة بعيداً عن الشجرة – إلّا أنّ كلودين سرّت بالطريقة التي آلت إليها الأمور.

– المدرسة الجديدة مجّانية، وقريبة جدّاً من المنزل. هكذا سأرتاح من إيصال الآنسة من وإلى المدرسة.

كانت تعتقد بسذاجة أنّ المدرسة الجديدة ستُخرج ابنتها من حالة الكسل التي تسيطر عليها. أتمنّى من كلّ قلبي أن تكون على حقّ. وبما أنّني أرى آديل يومياً كلّ أسبوعين، فإنّنا نبذل قصارى جهدنا نحن الاثنتان لتحفيزها. فقد أكّد طبيبها أنّ الآلية البيولوجية تعمل بشكل سليم، وبالتالي، ما علينا سوى تشغيل المحرّك.

رفض ألكسندر أن يكون عرّاب أخيه الرضيع المنتظر. فهو يعتقد أنّ والده يبالغ في طلب ذلك منه، حتّى بالنسبة إلى رجل يعاني من

أزمة منتصف العمر. أعلم أنّ ما أقوله سيّئ، لكنّني شعرت بالرضى. فقد أراد ابني الانتقام من أجلي، وأنا ممتنّة له. سيكون ثمّة وقت للطيبة لاحقاً، بمجرّد أن نتغلّب على الألم.

تخلّيت عن فكرة الجري. فقد كانت حياتي مؤخّراً حافلة بالمعاناة، ولم أر داعياً لإضافة المزيد، ليس الآن على الأقلّ. ولهذا السبب نفسه، طلبتُ الطلاق من دون تأخير ومن دون إحداث ضجّة، وتقاضيتُ حقوقي وما استطاع محاميّ أن يجنيه، متجاهلة توسّلات حماتي السابقة. في النهاية، كان للزواج بعض المزايا، فأنا لم أعد على عجلة من أمري للعثور على وظيفة. هكذا، بدأتُ الحياكة.

بالمقابل، أصبحت أرتدي حذائي الرياضي كلّ يوم وأمشي لكيلومترات لأتعرّف مجدّداً على الحيّ الذي نشأت فيه. ما زالت الأشجار القديمة في مكانها، وكذلك ملعب البيسبول القديم، بالإضافة إلى بعض المدارس، وصالون تصفيف الشعر عند ناصية الجادة الثالثة. وبينما تكاثرت المقاهي الصغيرة ومتاجر المواد الغذائية ومحلّات المصنوعات الحرفية، بقيت الشرفات والأزقّة مركز الكون بالنسبة إلى أهالي المنطقة. وفي الليالي الحارّة، يتناهى إلى الأذان رنين الأكواب والزجاجات والأطباق. أغمض عينيّ وأتذوّق موسيقاها، أنا صاحبة «الخلل الإيقاعي». فقد جلبتني صدمة انفصالي الكبيرة إلى هنا، إلى هذه الذكرى من طفولتي التي بقيت على حالها تقريباً.

علّمتني هذه المساحات الجديدة في حياتي أمراً رائعاً، وهو أنّ أولادي ليسوا جاك. فالنظرة التي ألقيها عليهم ليست مشوبة على الإطلاق بحقيقة كونه والدهم. لا بل على العكس من ذلك، كانوا

يجتـدون أكثـر مـا أحببتـه فيه، وبالتأكيد لن أُنكر المشـاعر التي كنت أكنّها له. ومحاولة التعبير بالكلمات عن حبّي لهم هو بحدّ ذاته تمرين صعب، فحبّي لهم لا يقاس. وبالمقارنة، لا أهمّية لأيّ شيء آخر.

في قسم البستنة من متجر الأدوات المحلّي، والذي يتمّ تجهيزه بمجـارف للثلـج، صادفـت مجموعـة لطيفة من أقـزام الحدائق. ولو أخبرنـي أحدهـم أنّني سأشـتري يومـاً ما قزماً، ولو مـن باب المزاح، لمـا صدّقتـه مطلقـاً. غير أنّ المجموعة كانت لطيفة حقّاً ولم أسـتطع مقاومتها.

– إنّهـا رائجـة جـدّاً هذه الأيّام سـيّدتي. لقد نفـد مخزوني منها خلال الصيف، ووصلت هذه المجموعة في نهاية الموسـم، لهذا لم يتبقّ منها سوى هذا العدد القليل.

– أليس عليها حسـم؟

– أوه كلّا! بل سيزداد سعرها ثلاثة دولارات في الربيع، وستطير مثل الكعك الساخن.

لم أكن أفكّر في اتّباع الموضة، بل أردت أن أُفرح قلب سيمون الصغير الذي يمرّ كثيراً من المكان مع إحدى شقيقاته. هكذا اخترتُ منها قزماً يدفع عربة صغيرة.

– أحمل لكِ سلاماً من جي–بي.

– آه! جي–بي الوسيم! قبّليه عنّي.

– سأفعل حتماً.

– تبدين مضحكة.

– افتحي لنا هذه.

– شامبانيا؟ حقّاً؟

– بكلّ تأكيد!

– ماذا يجري؟

– لن تصدّقي.

– ماذا؟

– لقد دفع لي فيليب حقوقي أخيراً!

– مستحيل! هذا يستحقّ الاحتفال فعلاً!

كانت أمسيات الجمعة محجوزة لنا أنا وكلودين. إذ نفتح خلالها زجاجة أو اثنتين من مشروب الحلّ المؤقّت، ونعيد صنع العالم ونحن نتناول بعض الأطعمة الجاهزة التي طلبناها من أحد المطاعم المجاورة. لا طهي، ولا جلي أطباق، ولا شعور بالذنب، بل نعيش حياتنا الفوضوية الكبيرة التي لم تعرفها جدّاتنا قطّ. وعندما نشعر بالدفء، نشغّل الموسيقى، ونرقص حافيتين على أرض غرفة المعيشة. يتحرّك جسدي على إيقاعه الخاصّ، وأتركه يفعل، فهو حرّ تماماً. تقول لوري إنّني أرقص بطريقة فريدة. وبالنسبة إلى امرأة مملّة في قصّة عادية، فتلك مجاملة رائعة.





– أنا أحبُّ شخصاً آخر.

امتلأ رأسي بالدماء، وجحظت عيناي من هول الصدمة. بضع مليليترات بعد، وتُخليان محجريهما تماماً. بدا لي ما سمعتُه غير منطقيّ إلى حدّ أنّني ألقيت نظرة خاطفة على التلفاز، على أمل أن تكون الكلمات آتية من مكان آخر. غير أنّ النجمين اللذين يحاولان حشو الدجاج بالبروسكيوتو كانا يضحكان بملء شدقيهما. ولم يكن حديثهما يدور حول زوال الحبّ.

– دايان... لم أكن أريد... لستِ السبب، ولكن... أفّ...

هكذا تبدأ سيرة أُنثى مملّة. دايان ديلونيه امرأة في عقدها الرابع، يتهاوى عالمها فجأةً عندما يتخلّى عنها زوجها قبل بضعة أيّام من احتفالهما بالذكرى السنوية الخامسة والعشرين لزواجهما، ليعيش علاقة حبّ مع «شخص آخر»، أصغر سنّاً بلا شكّ. بداية عاديّة إلى حدّ ما بالنسبة إلى رواية مدهشة للغاية، تشكّل منعطفاً جديداً في أعمال المؤلّفة، التي تتناول موضوع الانفصال بأسلوب لا يخلو من دقة الملاحظة وسرعة البديهة، كما ألفناها، وكلّ ذلك مع جرعة كبيرة من الفكاهة والحنان.



ماري - رينيه لافوا

فازت ماري-رينيه لافوا، بالإضافة إلى قلوب القرّاء، بالعديد من الجوائز (بما في ذلك، جائزتي أرشامبولت للمواهب الناشئة و Combat des livres Radio-Canada عن رواية La Petite et le Vieux. كما اختارت مدينة كيبيك روايتها Les Chars Meurent، في ربيع عام 2019، لحملة «مدينة وكتاب». تعتبر رواية سيرة أنثى مملّة، الجزء الأوّل من مغامرات ديان ديلونيه، التي تستمرّ مع Diane Demande un Recomptage، والتي نُشرت أيضاً في فرنسا وفي مناطق كندا الناطقة بالإنكليزية وألمانيا، وبيع منها ما يزيد عن 10000 نسخة. فازت لافوا أيضاً بجمهور الشباب مع رواية La Curieuse Histoire d'un Chat Moribond، وسلسلة Zazie و Le Dernier Camelot (Éditions Hurtubise).





جميع كتبنا متوفرة على الانترنت في مكتبة نيل وفرات.كوم
www.nwf.com


الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com

